

أسازونوف

ك. ماتفیف

حضارة ما بين النهرين

مطبعة. كركاز. جلد. كركاز

العريفة

ترجمة الدكتور حنا آق

www.A-Olaf.com

- * حضارة ما بين النهرين العريقة
- ك . ما تقييف و أ . سازونوف
- (موسكو ١٩٨٦ - الحرس الفني)
- * ترجمة الدكتور حنا آدم .
- * ٢٠٠٠ نسخة .
- * تنفيذ مطبعة دار الجسد .
- (دمشق - ١٩٩١)
- * صمم الغلاف : الفنان اخيفر بارو



современные названия государств

0 60 120 180 км

گالیک الفارسی

ترجمة الدكتور حمنا آوى

حضارة ما بين النهرين
العريقة

ك. مانتشيف - أ. سازونوف

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٩١

الفهرس

مقدمة

١٢-٥

- ذكرى الحياة على اللوحات الفخارية

١٣

الباب الاول :

٣٢-١٣

مهـد الحضارات القديمة

٢٠

- تاريخ قصة ((اخيقار الحكيم))

٢٠

- امثال اخيقار

الباب الثاني :

٧١-٤٠

المكتشفات السومرية

٤٠

- حفريات التلال السومرية

٤٩

- من اين آتت تسمية ((ذوي الرؤوس السود)) ؟

٥٨

- ملحمة غلغاميش وعلاقتها بالتوراة

٦٦

- كيف كتب تاريخ الديولالات السومرية

الباب الثالث :

٨٠-٧٢

سرعون الاول ودولته اكداد

الباب الرابع :

١٥١-٨١

سر باب - ايلو - (بابيلو)

٨١

- بابل - بوابة الاله

٩٥

- ((شيخ التاريخ)) هيرودوت عن بابل والبابليين

١١٢

- حدائق نوخذنصر المعلقة وزوجته اميتا وسميراميدا

١٢٥

- عندما يحين موعد رأس السنة

١٣٢

- مراجعة الطبيب للتداوي

١٣٧

- ما الذي حل بالبابليين

- المكتشفون الاوائل لمدينة بابل - المدينة المنسية من قبل

١٤٣

الاله والناس

الباب الخامس :

٢٠٨-١٥٢

اشور - بلاد الاله اشور

١٥٢

- كيف اكتشف الأوروبيون بلاد اشور

١٦٩

- مدن اشور وكنوزها

١٧٠

- اشور (قلعة شركت - حاليا)

١٧٢

- كلخو (نمرود - حاليا)

١٧٥

- نينوى (الموصل - حاليا)

١٧٧

- دور شاروكين (خورس اباد - حاليا)

١٨٢

- حكام اتجاهات العالم الأربع

- توجهات تطور التجمع القومي الاشوري منذ سقوط

١٩٦

وحتى يومنا الحاضر

٢٠١

عوضاً عن الخاتمة : الارث الحضاري لبابل واشور

دار المجد
طباعة نشر توزيع
دمشق ص ب ١١٠٣٣

تسديد:

إن الشعوب العريقة تبقى شجرة وارفة متأصلة في الأرض ضاربة جذورها في أعماق الزمن، تخبيء البسيطة كل ماضيها حتى لو لم يبق منها سوى وريقات معدودة على أغصان فريدة •

إن مثالنا في هذا الكتاب هو ذلك الشعب الذي أشاد دواة عظيمة وأسس عدة ممالك ودويلات في بلاد ما بين النهرين وبنى حضارة عريقة قدمت للبشرية جمعاء خدمات جليلة في مختلف مجالات العلوم كالفلك والرياضيات والعمارة والطب والقانون والأدب وغيرها • ولا زالت البشرية مدينة له بكثير من الاختراعات والاكتشافات في المجالات النظرية والتطبيقية للعلوم الطبيعية والانسانية • وفي هذا السياق يعتبر هذا الكتاب محاولة علمية جادة في كشف النقاب عن الأثر الفعال لهذه الحضارة الشرق أوسطية على مجمل التطور العلمي - التقني الحاصل في الغرب وكذلك في لجم كل التخصصات والافتراعات الاستعمارية التي تحاول تجريد هذا الشعب من ماضيهِ الحضاري وجعله من الأمم الملحقة التي ما زالت « ... حتى الآن موضع السياسة العالمية للامبريالية ... » والتي ما برحت أن تكون بالنسبة للثقافة والحضارة الرأساليين إيمثابة مادة سمداية فقط •

إننا بمحاولتنا السابقة في ترجمة مؤلف تاريخ هذا الشعب في العصر الحديث نقدم الآن لقراء العربية في هذا الكتاب لفتة علمية لأصول هذا الشعب ومنابع تاريخه في عصور ما قبل الميلاد ، حيث يحدد هذا المؤلف بوضوح وبساطة أصول حضارة ما بين النهرين ومضامينها ومدى تأثيرها وتأثرها بالحضارات الانسانية الأخرى وعليها • ويسوق مؤلفنا براهيناً علمية لا تقبل الجدل لما قامت وتقوم به الدوائر الصهيونية في سبيل تشويه تاريخ هذه المنطقة واللعب بمصائر شعوبها •

لذلك يعتبر هذا الكتاب وحدة متكاملة ، تستعرض حضارة شعب ما بين النهرين في دويلاته المتعددة ، ذلك الشعب الذي لم يكن يتصف — كما صوروه — بالقسوة والعنف والخطيئة ، بل امتاز بالعقل المتفتق الخلاق والمبدع والوعوي الذي جعله يحافظ على ذاته حتى يومنا الحاضر •

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نقدم الشكر لكل من ساهم في أخراج هذا العمل الى النور ، ونأمل أن نكون قد وفقنا في ترجمته • وشكراً •

آب ١٩٩٠

المترجم
د. ح. آ.



مقدمة

قارئنا العزيز :

ندعوك لترافقنا برحلة في متابعة الحضارات القديمة التي قطنت المساحة الممتدة ما بين نهري دجلة والفرات والتي أذهلت العالم المعاصر بعظمتها وجمالها وغناها • وسمى السكان القدامى هذه البلاد ببلاد ما بين النهرين « بيت نهريين » وسماها الأوغريقي ميزو باطامي أما الروس فسموها ببلاد الرافدين • وظهرت في بلاد ما بين النهرين ثم زالت من وجه الأرض كلياً دولاً مثل سومر وآكاد وبابل وآشور • وقد قدمت هذه الدول حضارة عريقة كان لها إلى جانب الحضارات المصرية والهندية والصينية أثراً كبيراً على الثقافة العالمية أجمع • كما كان لحضارة ما بين النهرين تأثير كبير ومباشر على بلاد القفقاس وآسيا الوسطى وعلى بلاد اليونان ومن خلال الأخيرة على الشعوب الأوروبية • ومن وجهة النظر هذه تهتمنا معرفة هذا التأثير، وأين وكيف يبحث في حياتنا المعاصرة ، وما هي الانجازات التي سار بها وما هو الدور الذي لعبه • وانطلاقاً من فهمنا لأهمية هذه المسألة فقد خصصنا باباً كاملاً عن الإرث الحضاري الذي خلفته بلاد آشور وبابل • كما كان لثقافة بلاد ما بين النهرين أثر كبير على واضعي التوراة • والآن يحاول المتسكون بها تقديم البراهين بأن التوراة هي « روح الله » ومن « خلق الله » وبأن الإله الأسمى أنزلها من السماء إلى البشر • ويورد مؤلفو هذا الكتاب مجموعة من الأساطير السومرية والبابلية آشورية وكذلك وقائع تاريخية تساعد القارئ في إدراك حقيقة أن نصوص التوراة ذات مصدر دنيوي وهي تتناغم

مع أساطير وحكايا الشعوب القاطنة - بالأخص - في بلاد ما بين النهرين وفي سومر • إذ أن بلاد سومر كانت تقع حينذاك إلى الجنوب من عاصمة العراق الحالية « بغداد » وتمتد حتى البحر الجنوبي « كما سمي الخليج الفارسي آنذاك » •

ففي الألف الرابع قبل الميلاد أخذت تتوافد إلى هذا الجزء من بلاد الرافدين شعوب سميت بالسومريين ، وراحت تقطنه مع شعوب أخرى دعت بأوائل السومريين « أو ما قبل السومريين - المترجم » نتيجة لعدم وجود تسمية خاصة بهم • وفي مرحلة الألف الثالث قبل الميلاد تقريباً أخذت تنشأ هنا تدريجياً المدن - الدول « الدويلات » •

من بينها تشير قبل كل شيء إلى دويلات مثل : إريدا ، لاكاش أور ، كيش وغيرها • وكانت تلك المدن تشكل الدول الطبقة المالكي العبيد ، إذ أنها خاضت حروباً فيما بينها من أجل السيطرة على بلاد سومر وتدعى مرحلة استقرار هذه الدويلات والممالك الأصغر منها في بلاد سومر علمياً بمرحلة السلالة السومرية المبكرة • وإلى الشمال من سومر كانت تعيش شعوب سامية ، اختلفت بمظهرها الخارجي وبلغتها عن السومريين ، وإذا كان السومريون دون لحي وشوارب فإن لهؤلاء الساميين لحيٌ طويلة وممتدة وشعوراً مسترسلة حتى الاكتاف •

كما اختلفت لغتهم عن لغة السومريين جذرياً • فلقد كانت تشبه اللغة الآشورية المعاصرة والعربية والعبرية القديمة • أما اللغة السومرية فلم يكن لها - بتأكيد جملة من الباحثين - أية علاقة أصولية باللغات العالمية الأخرى •

لم يكن السلام موجود بين السومريين والساميين أبداً ؛ فكانوا يتحاربون دائماً من أجل السيطرة على ما بين النهرين وتدخل حروب الملك السامي سرغون الأول « الأكادي » ، والذي استمر حكمه ٥٥ عاماً على ذلك ، إذ أننا سنتكلم عنه بالتفصيل في الباب المخصص لذلك من هذا الكتاب ؛ حيث ننوه عن أن سرغون الأول بدأ حربه أولاً ضد مملكة كيش « تل أحيمر - حالياً » شمالي مدينة سومر • التي دمرها وأصبح بذلك عملياً حاكماً لشمالي ما بين النهرين ، وفيما بعد استولى على مجمل بلاد سومر • وخلافاً لكل الحكام أسس سرغون الأول عاصمة جديدة له في مكان خال وسماها أكاد • ومن هنا أخذت دولة الأكاديين تسميتها •

وقد تاخمت مدينة أكاد سومر الشمالية ، وكانت عظمتها مبنية على الجيش ، الذي شكلت نخبة المشاة العمود الفقري فيه ، تلك النخبة التي تسلحت : بالنبال والرماح والبلطاط واحتمت بالخوذ والدروع المصنوعة من الجلود السمكية أو الخيش المتين • وقد امتدت مساحة المملكة في عهد سرغون الأول من البحر الأبيض المتوسط حتى الخليج الفارسي •

وبعد صراع عنيف تمكن سرغون الأول من إقامة دولة موحدة ومركزة سياسياً واقتصادياً ذات نظام حكم استبدادي • ولقد حكمت سلالة سرغون الأول ما يقارب ١٨٠ سنة حتى سقطت من ذاتها بفعال ضربات قبائل الكوتيين الجبلية الذين قدموا من المرتفعات الجبلية الإيرانية •

لم يستسلم السومريون لانتصارات سرغون الأول والكوتيين والعيلاميين بل نهضوا غير مرة بانتفاضات مسلحة ضد المحتلين • وقد قاد المنتفضين حكام المدن السومرية أوروك واورا والواقة

في جنوب البلاد • وأخيراً طرد السومريون المحتلين الأجانب وأنشأوا دولتهم المستقلة • واستمر الحكم السومري من عام ٢١١٢ وحتى ١٩٩٧ ق.م • حيث عرفت هذه المرحلة بمرحلة حكم سلالة أور الثالثة • وكان للكاديين - العميد والحرفيين والبنائين والصاغة ، والحدادين والفلاحين المقيمين والعاملين في هذه المرحلة - الدور الكبير في تسجيل بلاد سومر بما قدموه للحضارة العالمية • وبغض النظر عن ذلك فقد استغلّهم حكام سومر أبشع استغلال واستلوكوا ما أنتجته أيديهم من ثمار وأجبروهم بالقسر على العمل في مد الأبنية والطرق وإقامة شبكات الري وبناء المدن •

لا شك أن ذلك أدى الى إثارة تظنة سكان سومر والى إضعاف البلاد أمام الأعداء الخارجيين المتعددين ومن أهم هؤلاء في ذلك الوقت كانت القبائل العمورية الهاجمة من الجنوب الغربي من السهوب السورية وكذلك القبائل العيلامية من الجنوب الشرقي في القسم الإيراني، أولئك الذين حطموا الدولة السومرية ذات السلالة الثالثة • وفي النتيجة أسس العموريون الدولة البابلية ذات العاصمة بابل •

ومنذ ذلك الوقت لم تنبعث سومر أبداً • فلقد زالت عن وجه الأرض كلياً • وأخذ السومريون يمتزجون بالبابليين « العمورين والأكاديين » وتحولوا تدريجياً الى شعب واحد ، إلا أن الثقافة السومرية لم تمت بل أصبحت جزءاً من ثقافة البابليين والآشوريين ومن خلالهم دخلت الى الحضارة العالمية • واستمرت الدولة البابلية التي جاءت بدلاً من سومر بالوجود حتى احتلت من قبل سلالة الأخمينيين الفارسية • لقد احتل الملك الفارسي كير بابل عام ٥٣٩ ق.م وحولها الى عاصمة لإحدى توابع دولته •

والدولة الرابعة التي سنتحدث عنها في كتابنا هذا هي آشور حيث كانت تقع إلى الشمال من مدينة بابل وعلى نهر الدجلة ورافديه الزاب الأكبر والزاب الأصغر . وقد بلغت مساحة آشور دون الأراضي التي احتلتها ما يقارب ١٦٠ الف كيلو متراً مربعاً وإن لم تكن هذه المساحة الآن لعالمنا المعاصر كبيرة إلا أنها كانت تشكل بالنسبة للعالم القديم دولة شاسعة المساحة .

عاش كما في بابل كذلك في بلاد آشور شعب واحد ذو ثقافة واحدة وعادات وتقاليد واحدة ، وله لغة واحدة ذات لهجة آشورية وأخرى بابلية . لذلك سمى العلماء هذه اللغة باللغة البابلو - آشورية لقد صنعت الشعوب الأشورية والبابلية كنوز الثقافة الانسانية الرفيعة في ذلك الوقت وقدموها لشعوب أخرى في القمماس والهند وآسيا الوسطى والدنيا وكذلك في اليونان ومن خلالها إلى شعوب أوروبا ، كما أنها تشبعت بأفضل ما توصلت إليه الدول الأخرى من الثقافة العالمية .

ولا نرى في المخطوطات المسمارية المتعددة أية كلمة عن الشعب - عن الكادحين والأحرار والعبيد وذوي المهن المختلفة ، الذين بنوا القصور والجسور والقناطر والطرق والتماثيل . كذلك لا توجد ولا كلمة واحدة عن الفلاحين الذين قدمت ثمار عملهم على موائد الملوك والمسؤولين الآخرين . وفي كل مكان يسود الملوك فيه يضعون أنفسهم دائماً في مقدمة الرتل لابرار عظمتهم بالدرجة الأولى .

إن المخطوطات الأثرية مليئة بمثل هذه الكتابات . اذ انك عندما سنتطرق الى مخطوطات الملوك الآشوريين والبابليين ، والملك السومريين والتي تروي مآثرهم ، على القارىء أن يدرك بوضوح ان

خلف كل كلمة من تلك الكلمات يقف صانعو كنوز الثقافة هذه وهم الشعب العامل الأحرار والعييد ، الفلاحون والحرفيون ، الصاغة والبنائون ، الرسامون والنحاتون وليس الملوك والآلهة . لقد أبعده الزمن عنا لآلاف السنين كل ما صنعته يدا هؤلاء الناس وكست الرمال والغبار بطبقات سميكة المدن التي بنوها ، وبدا وكان كل ما بقي من ذلك بعض التلال التي يتصور البعض بأنها طبيعية ولا تحوي في جوفها أي شيء ثمين وهام .

إلا أنه كان للعلماء وعلماء الآثار رأي آخر وكانت صعبة وخطرة وطويلة طريقهم الى اكتشاف الدول العظيمة العريقة - سومر - أكاد - بابل وآشور .

إن مكتشفات علماء الآثار وتفسير اللوحات الغضارية «الكتب» ذات النصوص السامرية والتي تعتبر من أثمن المحفوظات المكتنية وكذلك حفريات المعابد والقصور المهذمة والمطمورة في التراب منذ آلاف السنين جعلت السرَّ حقيقة . لقد ساعدتنا هذه التلال على اكتشاف حضارات جديدة ومقارنة ثقافات الشعوب القديمة والمعاصرة وعلى التعرف بما قدمه السومريون والآشوريون والبابليون في التاريخ للثقافة الانسانية واستخدام هذه الكنوز في الحاضر والمستقبل . إلا أنها لم تزين أعظم المتاحف العالمية فحسب بل وأصبحت مفيدة وضرورية للحياة الحاضرة على الأرض وبالدرجة الأولى للشباب ولكل من يهتم بتاريخ الشرق القديم .

وخلال عملنا بهذا الكتاب تذكرنا ما قاله ف . إ . لينين عما قدمته شعوب الشرق للثقافة الانسانية وبأنه هنا « . . . ستنهض الجماهير الشعبية في الشرق كمساهم مستقل ، كخالق حياة جديدة ،

إذ أن مئات الملايين من سكان هذه المنطقة ينتسبون إلى أمم ملحقة وهي ما زالت حتى الآن موضع السياسة العالمية للامبريالية تلك الأمم التي ما برحت أن تكون بالنسبة للثقافة والحضارة الرأسماليتين إلا بمثابة مادة سميكية فقط » .

إن فكرة ف . إ . لينين عن أن شعوب الشرق ستنهض لتخلق حياة جديدة ، هي فكرة هامة جداً وخصوصاً في أيامنا هذه حيث يجري صراع إيديولوجي حاد بين قوى الاشتراكية والتقدم من جهة وبين قوى الرجعية والرأسمالية من جهة أخرى . يحاول الأيديولوجيون البرجوازيون البرهان على أنه لم توجد لدى شعوب الشرق في القدم أي حضارة أو ثقافة أو أن الحضارة والثقافة الشرقيتين هزيلة وشكلية وليس لها جذوراً عميقة . إنهم يريدون تجريد شعوب الشرق من قوتهم محاولين بذلك البرهان على تفوق المركزية الأوروبية « أوروستريزم » ، وهذا الكتاب يبين مساهمة شعوب الشرق القديم في تكوين كنوز الثقافة الانسانية .

ومن خلال الكتاب تعبر فكرة هامة أخرى وهي أن العلماء الباحثين يحصلون على الاكتشافات ويصلون إلى النجاحات في العلم نتيجة المواظبة وفكران الذات والأهم من ذلك العمل المضني .

إن العمل الدؤوب والمنظم هو الضمانة الوحيدة لكل الاكتشافات والمعلومات الجديدة . وكل ذلك كان عادة من صفات أبطال كتابنا هذا سواء علماء الآثار الأجانب مثل : ب . باتتا ، ج . ريج غ . إبيارد ، ح رسام وكذلك العلماء الروس مثل : ف . ديتيل ، بي . بربوزين . ن . ليخاتشوف ، م . نيكولسكي ، ف . غالينشيف ، ف . ستاسوف

وغيرهم • إنهم جميعاً كدحوا طويلاً باسم العلم والحفاظ في ذاكرة
الأجيال القادمة على ما توصلت إليه الحضارات الغابرة •
كتابنا هذا هو جهد عالمن باحثين شاهدوا الكثير مما اكتشفه
علماء الآثار •

أردنا أن نقتسم معلوماتنا معك أيها القارئ الشاب ، لذلك
ندعوك لتلمس الكنوز المادية والروحية — لأرض ما بين النهرين
القديمة — تاريخها ومكتشفاتها في الرياضيات والفلك ، أساطيرها ،
وإبداعات مهندسيها المعماريين التي ما زال علماء الآثار يواصلون
اكتشافاتهم لها في نطاق دول الشرق الأدنى • وهكذا فلنمض معاً •



الفصل الأول

مهد الحضارات القديمة

لتدخل الى بيتنا تحت ظلال الارز

وعندما تدخل الى بيتنا

سيقبل الفرات قدميك

ويخر الملوك، والواجهاء، والامراء لسك راكعين .

وسيقدمون لك الجبال والسهول هدية .

ذكرى الحياة على اللوحات الفخارية ((الفخارية)) .

إن الأسطر المتبسة من « ملحمة غلغاميش » واردة في إحدى اللوحات الفخارية الاثني عشرة التي أنبأت العالم عن حياة ومآثر غلغاميش الأسطورية هذه وغيرها من « الكتب الفخارية » مكثت في التراب آلافاً عديدة من السنين . حيث ضمت مكتبة الملك الآشوري آشور بانبيعل قسماً منها قبل أن تمسها يد علماء الآثار الانكليز الأوائل مثل « غ . ليبارد » و « ح . رسام » . لقد أرسل من أماكن التنقيبات ما يقارب ٣٠ ألف كتاب فخاري الى لندن إلا أنه وبعد ثلاثين سنة خلت ذلك أصدر المستشرق الألماني المختص بالشؤون الآشورية « ك . بتسولد » كتابه المؤلف من خمسة أجزاء « كتلوج » اللوحات الفخارية للمجموعة الكونيوجيكية في المتحف البريطاني وقد كتب المستشرق السوفياتي المختص بالشؤون الآشورية البروفسور « ي . دياكونوف » عن الأهمية الحضارية للكتابة في مقدمته لكتاب الأحرف الأبجدية جاء فيها ما يلي :

« الكتابة هي إحدى وأهم المنجزات الجوهرية والثقافية للإنسان بالرغم من أنها تبدو للوهلة الأولى بأنها تلعب دوراً تقنياً في تاريخ الثقافة فقط إلا أنه بدونها لم يكن لتتوفر إمكانية ذلك التطور العظيم للإنسانية من العصر الحجري إلى العصر الذري الذي جعل العالم يبدو كما هو عليه الآن وتتفق نحن مع ذلك كلياً إذ يعتبر المختصون أن من أوجد أقدم منظومة للكتابة المسماة المسارية هم سكان ما بين النهرين حيث يعتقد البعض أنهم كانوا سومريون أما البعض الآخر فينسب هذا الاكتشاف لشعوب أخرى » .

وعلى أية حال إن عمر الكتابة المسارية كبير . ويرجع ظهورها إلى أواسط الألف الرابع قبل الميلاد إن تسمية هذه الكتابة بالمسارية ترجع إلى العالم الانكليزي البروفسور في جامعة أكسفورد «ت. هايد» عام ١٧٠٠م. لقد لعبت الكتابة المسارية دوراً عظيماً في تاريخ الحضارة الانسانية لذلك ندرج باباً خاصاً عن هذه الكتابة .

طويلة وشاقة كانت الطريق أمام المختصين بفك رموز الكتابة المسارية لدى الآشوريين - البابليين من حيث قراءتها وكتابتها غير انه عندما تكلمت المسارية علمت الانسانية بوجود حضارة ما بين النهرين التي تعتبر إحدى أقدم الحضارات على الأرض لقد حذرت بعض السطور المسارية في إحدى « الكتب الفخارية » التي فك المختصون رموزها بخبرة « إن كل من يجرؤ على أخذ هذه اللوحات فليعلمه أشور وبيليت أما اسمه وسلالته فليطوها النسيان في هذا البلد » لم يرهب هذا التهديد الصارم الموجه من قبل الملك الآشوري أشور نينبال الباحثين أمثال تيكس ف. ميوتتر . غ. غروتيفيند غ. راؤولينسون . هينكس وغيرهم .

ولذلك نحن مدينون لهم من حيث فك رموز الكتابة المسمارية والتعرف على الحكمة الموجودة في هذه « الكتب الفخارية » . لقد حققوا إنجازاً حقيقياً باهراً في العلم إذ أن هذه الكتابة حتى بالنسبة لمعاصرها كان من الصعب جداً تعلم القراءة والكتابة بها ولهذا كتب بكل فخر واعتزاز الملك الآشوري آشور بنيبال بجد ذاته عن تمكنه إياها « أنا آشور بنيبال لقد حصلت على حكمة نابو (نابو هو إله العلم والكتابة) وكل فنون الكتابة واستوعبت معارف كل الحرفيين بكل تعدادهم ٠٠٠ وكما حصلت على كل الأسرار المخبأة لفن الكتابة ٠٠٠ » .

في تلك الأزمنة الغابرة لم يكتبوا على الورق كما هي الحال الآن بل على الفخار ومنذ القديم فكر سكان بلاد ما بين النهرين « السومريون » بما سيستعملونه كمواد للكتابة عليها وقد وقع اختيارهم على الفخار إذ أصبح لهم بمثابة مادة للكتابة عليها على مر آلاف السنين لم يستطيع الزمن القضاء على هذه « الكتب الفخارية » ومن أجل جعل الفخار ينطق بالكتابة كان يجب القيام بما يلي: في البداية كانوا يجمعون الغضار من شواطئ النهر ويخلطونه بالماء جيداً وكل ذلك كي تطفوا المواد العالقة فيه مثل القش وقطع القصب والأعشاب أما الأحجار فبالعكس كانت ترسو في الأسفل ثم يفرغون الماء فيبقى الغضار النظيف المغسول على القاع تلك كانت إحدى طرق الحصول على الغضار المستعمل للكتابة لكن في الأغلب كانوا يجمعون مثل هذا الغضار على امتداد ضفاف الأنهار حيث كانت تنظفه المياه ذاتها .

لقد بينت التجربة لسكان بلاد ما بين النهرين القدامى على امتداد

قرون عديدة بأنه تبقى آثار قدم الانسان وبصمات أصابعه على
الغضار الرطب زمناً طويلاً جداً أوليس من الممكن استعمال الغضار
في التسجيل عليه كل ما تخزنه ذاكرة الانسان كالعقود ونصوص
القوانين والحياة الاقتصادية والانتاجية والحسابات والاحصاء وهكذا
أخذ الانسان يتعلم كتابة ما ابتكره من رموز للكتابة على اللوحات
الغضارية الرطبة لقد كتب في البداية بعضا من القصب وبعد اكتشاف
المعادن أخذ يكتب بواسطة مسامير معدنية فان كانت اللوحة لا تلممه
لفترة طويلة كان يجفها في الشمس فقط أما إذا كان استعمالها ليس
لمدة واحدة أو كان يراد وضعها في الأرشيف أو الديوان أو المكتبة فقد كانت
تحرق في أفران خاصة ثم تفرز حسب اللزوم فبعض « الكتب
الفخارية » حفرت في نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل
الميلاد واليوم كثير من هذه اللوحات يبدو كما لو أنها قد حفرت
من زمن ليس بالبعيد أبداً ومن الجميل أن يتعرف كيف تبدو هذه
اللوحات فقد تميزت أشكالها ومقاييسها بتنوع كبير فمن الممكن
العثور على لوحات مستوية وغيرها محدبة وكذلك مربعة ذات زوايا
قائمة أو مكورة • بعضها ذو مقاييس كبيرة حتى ٤٥ سم وبعضها الآخر
شكلي صغير حتى ٢ - ٦ سم وأصغر وعلى اللوحات الشكلية دمع
توقيع محضر لهذا الغرض بالذات على صورة خاتم أو إسطوانة والأكثر
تعقيداً كانت عملية تحضير الغضار ذاته لهذه الرسالة فقد كان هناك
إنسان مختص يجمع الغضار ويرطبه بالماء ويتركه حتى يصل قوامه
الى حد معين فيفركه ويعجنه بيديه ثم يصنع اللوحة بالشكل
الذي يريد الكاتب • عادةً كان الكاتب يمسك اللوحة بيده اليسرى
ويكتب عليها الأحرف المسماة بواسطة القصب أو مسمار معدني أو

أنه كان يضعهما فوق الطاولة ثم يكتب عليها وتبدو الأحرف المسمارية سميكة من الأعلى ورفيعة من الأسفل وفي بداية تشكل الكتابة السومرية كانت الكتابة من الأعلى إلى الأسفل ومن اليمين إلى اليسار .
وعندما تحطمت دولة سومر على يد قبائل عمورية تحولت الكتابة المسمارية تدريجياً من اليسار إلى اليمين وبشكل أفقي ومن المعقول جداً أن الاتجاه الأول للكتابة المسمارية أثر على اتجاه الكتابة لدى الشعوب السامية المعاصرة والاتجاه الثاني على اتجاه الكتابة في الأبجديات الأوروبية . لم يكن من السهل تعلم الكتابة المسمارية فقد لزم ذلك عدد كبير من السنين إذ بدؤوا يتعلمون الكتابة المسمارية تدريجياً مثلما يتعلم الأطفال في عصرنا الحاضر فبعضهم يتلقن ذلك في البيت قبل السن المدرسية وبعضهم الآخر في المدرسة . لقد تعلموا في تلك الأزمنة الغابرة كما هو الحال الآن بواسطة الكتب حيث وضعت أمام التلاميذ نسخة من النص وبعد أن يستعرض المعلم كيفية الكتابة يبدأ التلميذ بنسخ النص النص . وكانت تتم إعادة ذلك عدة مرات حتى يصبح التلميذ يكتب بشكل جيد ومقبول لدى المعلم . كانت تستمر مثل هذه التمارين عدة ساعات يومياً في المدرسة وفي البيت . وكان أسهل للتلميذ القيام بذلك في المدرسة حيث تقدم مساعدة له من قبل المعلم .

وإليكم ما كتبه عالم الآثار الأمريكي إ. كيبيرا عن ذلك :

« ويشار هنا إلى رموز كثيرة ثم تصحح فمثلاً : بعضها كان دون أحرف مسمارية وبعضها ينقصها حرف مسماري واحد وفي بعض الأحيان تنزلق الرموز عن الأسطر أو يكون الواحد منها متلاصق بالآخر بحيث تتعذر قراءتها مثل التي تكون متباعدةً أجزاءً أوها عن بعض بحيث تبدو وكأنها منفصلة . نحن نشاهد هذه الأخطاء وكان باستطاعتنا

تصحيحها مثلما عمل ذلك المعلم القديم . . . إذ كان يأخذ بيده اللوحة وينادي التلميذ ويبدأ معه باستعراض ما كتب، وإذا لزم الأمر صحح ، وعندما يقتنع المعلم بأن التلميذ تعلم درسه جيداً كان يدعو تلميذاً آخرًا مع لوحة جديدة ، وغالباً ما تمسح القديمة ويبدأ بالكتابة عليها من نسخة جديدة وهكذا حتى تتلف اللوحة أو تجف حيث تتعذر الكتابة عليها .
وعندما كان التلميذ يتعلم كتابة النصوص البسيطة كانت تعطى له بعد ذلك نصوصاً أكثر تعقيداً بما فيها الملاحم الشعبية والأساطير والخرافات « القصص الشعبية » والوقائع التاريخية والأمثال والنحو .
وبعد أن يتعلم التلميذ نسخ النصوص والكتابة الاملائية ، يتقدم للامتحان الأخير ويتخرج للعمل .

لقد كان الأناص المتعلمون يلزمون في كل مكان . وكانوا يعملون عادة في المعابد والأراشيف والمكتبات ودواوين القادة والملوك .

أما الكتب التي كانوا ينتجونها فقد كانت تحفظ في المكتبات والأراشيف . إذ كان كهنة المعابد يجمعونها من ذاتهم أو بإيعازات صادرة من الملوك لهذا الغرض فجمع « الكتب الفخارية » كان يجري كما في بلاد سومر كذلك في بابل وآشور .

وإمن أشهر الذين مارس جمع الكتب الملك الآشوري الشهير والمثقف آشور بانيبال . فلنتعرف على إحدى رسائله حيث يعطي إيعازاته لجمع الكتب ويورد إ . كبيراً هذه الرسالة في كتابه إذ كتب آشور بانيبال فيها :

« خطاب الملك إلى شادوم : أنا بخير ، فلتكن سعيداً . عندما تتسلم رسالتي هذه خذ هؤلاء الرجال الثلاثة (ترد أسماءهم في

الرسالة) والعلماء من مدينة بارصيا وتفقد جميع اللوحات كما هي لديهم وكذلك تلك التي تحفظ في معبد إيزيد . ابحت عن اللوحات الثمينة التي توجد في أراشيفكم والتي لا يوجد منها في مدينة آشور وأرسلها لي . فلقد كتبت لجميع الموظفين والحفظة ولا أحد يحجب عنك أية لوحة أو مجموعة اللوحات التي كتبت لك عنها ، وكل لوحة تعتبرها هامة للقصر ابحت عنها وأخذها وأرسلها لي » .

لقد جلبت جميع هذه اللوحات إلى نينوى عاصمة بلاد آشور حيث أسست لهذا الغرض مكتبة خاصة تضم بضع عشرات الألوف من « الكتب الفخارية » . وقد تابع إ . كيريا مصير بعضها الذي دخل المكاتب فقد كتب عنه يقول : « . . . لم يكتف الملوك الآشوريون الآخرون بجمع ونسخ المؤلفات المكتشفة في المكاتب القديمة فقط بل عملوا أكثر من ذلك . إذ أنهم بعد نسخ النصوص المكتوبة بالسومرية انكبوا على ترجمة كل تلك المواد الضخمة إلى اللغة الحية المحكية . لقد صدرت القصص السومرية القديمة في إصدار أولي جديد وترجمت حرفياً إلى اللغة الآشورية . ولتحقيق مثل هذا العمل لزمّت فترة زمنية طويلة وعدد كبير من العلماء . وكانت القصور الملكية في تلك العهود أشبه بالمراكز الثقافية المتقدمة والقصور الزراعية للعلم في عصر النهضة .

ورغم المعرفة الواسعة صادفت الترجمة أثناء العمل بالنصوص القديمة كثيراً من المتاعب ، إذ أن اللغة السومرية كانت ميتة منذ ألف سنة خلت . وخير دليل على تطور مستوى العلوم المعاصرة أنه يمكننا اليوم في بعض الأحوال تصحيح النصوص المترجمة آنذاك » .

لقد كانت مكتبة آشور بانبيال في نينوى من أضخم المكتبات حينذاك . ففيها حفظت « الكتب المسمارية » بلغتين مزدوجتين معاً ، مما ساعد على سرعة فك رموز الكتابة المسمارية السومرية وفهم اللغة السومرية .

ويعتقد العلماء بأنه من الممكن جداً العثور على مثل هذه المكتبات أو ما يشابهها على الأرض القديمة لبلاد ما بين النهرين ، مما سيمنح إمكانية إجراء تحليل أوسع وأعمق لحياة ونشاط سكان تلك البلاد . لكن ما تم اكتشافه حتى الآن له أهمية غير منقطعة ، إذ أن اللوحات المكتشفة والتي طمرت آلاف السنين في التراب حافظت على نفسها بشكل مدهش واستطاعت أن تنقل إلينا ذكرى حياة العهود الغابرة . لقد نقلت لنا الحكمة والتجربة والمعارف والأخلاق والعادات والتقاليد والمقالات عن الحب والموت والنماذج الأدبية والأساطير ، والخرافات المختلفة . وترجمتها إلى لغات عالمية عديدة أصبحت في متناول الانسان المعاصر . وفي هذا الباب نورد لكم إحدى هذه الأساطير التي كتبت في الحقيقة على الجلد .

قصة ((اخيقار الحكيم))

يتسم الصراع الأيديولوجي في المرحلة الراهنة بظابعحاد، ويمس عملياً جميع جوانب حياة المجتمع السوفياتي . ويشن المختصون البراجوزيون بالشؤون السياسية « والسوفيتية » هجوماً شرساً على ثقافات شعوب الاتحاد السوفياتي وبالدرجة الأولى على الشعب الروسي . فهم يحاولون بدأب البرهان على أن الثقافة الروسية هي فنية ومحدودة ولم يكن لها علاقات وروابط مع الثقافات الأخرى لذلك تعتبر ظاهرة روسية صرفة . كما أنها غير قادرة على التأثير ومساعدة

الشعوب الأخرى إذ لا يمكن لغير الروسي فهمها والتأثر بها • ومن هنا تستجر الاستنتاجات التي مفادها بأن الثقافة الاشتراكية أيضاً والنموذج السوفييتي للحياة هي غريبة للشعوب الأخرى وتعتبر ظاهرة روسية بحتة يتصف بها الاتحاد السوفييتي فقط ولا يمكن تطبيقها على شعوب أوروبا وأمريكا وكذلك شعوب الدول النامية •

وفي حقيقة الأمر استوعبت شعوب روسيا كل ما هو جديد ومتقدم من الثقافات الأخرى وأغنت بدورها ثقافات شعوب الدول الأخرى ، وتعتبر العلاقات بين الأشوريين والأسقوثيين (★) مثالا على الصلات الحضارية بين روسيا وبلاد آشور • ففي أثناء حكم الملك الآشوري أسرخدون (٦٨١ - ٦٦٨ ق م) تزوجت الملكة الآشورية من القائد الأسقوثي بارتاتو وتشهد على ذلك المكتشفات التي عثر عليها علماء الآثار السوفييت في إحدى التلال الواقعة في مناطق القفقاس السوفييتية حيث ضمت الهدايا المرسله مع الملكة العروس سيفاً آشوري الصنع •

وفي عام ١٨٧٥ م تم في روسيا نشر معجم الكلمات الآشورية ، والذي يؤكد استعمال الأسماء الآشورية في روسيا بشكل واسع منذ القرن الرابع الميلادي •

وكتب الشاعر أ.ك. تولستوي قصيدة مطولة عن الشاعر ، والكاتب والفيلسوف الآشوري يوانا داماسكين « يوحنا الدمشقي »

★ الأسقوثيون : قبائل مختلفة عاشت في القفقاس على شواطئ البحر الأسود ما بين القرن السابع والثالث قبل الميلاد .
(المترجم)

مسمياً إياها باسمه • كما عرف الكاتب الروائي ل • ن • تولستوي الثقافة الأشورية وكتب رواية بعنوان « الملك الأشوري أسرخدون » • لقد استمرت العلاقات الثقافية بين روسيا والآشوريين على مدى مئات من السنين • ففي القرن الحادي عشر الميلادي زار الطبيب الأشوري بيوتر سريانين « بطرس سورايا » روسيا • وفي عهد أوأكوم في القرن السادس عشر الميلادي وصل الى روسيا باقل الحلبي (بولص د - حب) قادماً من مدينة انطاكية ، لقد كتب عن الفنانين الروس ما يلي : « لا يملك الرسامون الروس مثيلاً لهم على وجه الأرض بفنهم من حيث الدقة والمهارة الحرفية » • كل ذلك يدحض تكهنات خصومنا الفكريين عن محدودية الثقافة الروسية وعدم امتلاكها جذوراً عميقة في التاريخ ولتأكيد هذه الفكرة سنقوم بسرد تاريخ إحدى القصص الأشورية القديمة والتي وصلت الى روسيا واستمرت في الحياة كحكاية روسية إنها « قصة أخيقار الحكيم » •

بعد الأبحاث الطويلة الأمد والنقاشات العلمية المديدة توصل العلماء الى استنتاج مفاده أن موطن هذه « الحكاية » هو بلاد آشور • ولكن حتى قيلت الكلمة الأخيرة بهذه المسألة مرت فترة زمنية طويلة • إذ أنه في مشارف القرن العشرين فقط وبعد أن درس العلماء المصطلحات الجغرافية والتسميات الخاصة والعادات والتقاليد والأعراف والدين والتاريخ والأدب والفلكلور لشعوب عديدة من العالم أجمعوا بأن هذه القصة قد ولدت في مرحلة حكم الملك الأشوري سنحريب « ٧٠٥ - ٦٨١ ق م » أو في فترة حكم أسرخدون •

لقد درس وأغنى بحث هذه القصة علماء كثيرون من دول مختلفة من العالم مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وانكلترا والولايات المتحدة الأمريكية ورومانيا ويوغسلافيا وغيرها .

ونذكر أعمال العلماء الروس الذين سنتكلم عنهم بتفصيل أكبر فيما بعد ويحتلّ مركز الصدارة بين هؤلاء الأديب المعروف والمختص بالفن الشعبي (فولوكلورست) أ. غريغوريف الذي عمل سنين طويلة في بحث هذه القصة وعلاقتها بالأدب الملحمي الشعبي الروسي . ففي القصة يحكى بأنه أثناء ظهورها سادت بين بلاد آشور وعيلام ومصر علاقات متوترة وأن الملك سنحريب لم يحارب مصر إلا أن الملك أسرخدون احتلها في عام ٦٧٣ ق.م . فلقد أرسل نادان « ابن اخيقار بالتبني » رسالة الى أكبي ابن خمسلیم « ملك عيلام » يدعوه فيها الى زيارة بلاد آشور التي أراد أن يقدمها له دون حرب .

ويرد في القصة أربعة أسماء مركبة يشكل الجزء الأول منها اسم الإله الآشوري - البابلي نابو . فهي نابوساماخ وهو منقذ اخيقار ، ونابوزاردان وهو شقيق نادان ونابوإيل وهو حرس نادان ونابو خايل أحد الأطفال الذين طاروا على ظهر النسر . لقد كان نابو في البداية إله الغلال « الحبوب » وإله الصراحة وفيما بعد أصبح إلهاً للحكمة والكتابة .

وفي عام ١٠٧٠ ق.م . حازت شخصية الإله نابو على شعبية واسعة في بلاد آشور كراع للعلم هناك . ونصادف غيرها من الأسماء اسم طبشليم حيث يعني بتحوير لفظي بسيط له بـ « السلام الطيب » .

واسم اخيقار يعني « الأخ الحسن » وهو من مصدر عربي إلا أن مثل هذا التشكيل للاسم يصادف كثيراً في الأسماء الآشورية البابلية مثال اسم اويقام ويعني « أبي قام » هذه الأسماء وغيرها ترد في الوثائق العملية الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد . وأخيراً يذكر في القصة أيضاً اسم مانسيفار وكذلك اسم إشفاغني « زوجة أخيقار » وهذه أسماء آشورية - بابلية متحورة كثيراً .

كما نرى أن أغلب الأسماء المذكورة أعلاه هي من أصل آشوري - بابلي وما تبقى منها من أصل آرامي حيث كان استخدامها ممكن في بلاد آشور وبابل . فاسم نادان تعني باللغة الآشورية - البابلية « عطاء » . وعلى أسس تحليل هذه الأسماء توصل أ. غريغوريف إلى الاستنتاج الذي يقول :

« بما أن الأسماء مثبتة في الروايات وهي مدحضنة من التجوير الظاهر بجلاء فقط لذا يجب اعتماد الأصل الآشوري - البابلي لها . ولا يمكن أن يستعمل أسماء آشورية - بابلية في مؤلفاته وأن يعظم الملوك الآشوريين إلا المواطن الآشوري - البابلي الذي لا يجتنب دمج اسم الآلهة الوثنية في أسماء أبطاله الحقيقيين ، والقيام بذلك من قبل أناس ينتمون لدول أخرى يكون فعل لأمعنى له على الإطلاق » .

إن التسميات الجغرافية عيلام ومصر ووادي النسر وجبل سيس تساعدنا أيضاً على التحديد . فقد كانت دولة عيلام تقع في الجنوب الغربي من إيران الحالية . أما مصر فكانت هناك حيث هي الآن في القارة الأفريقية . ووادي النسر كان يقع - وفقاً للرواية - إلى

الجنوب من نينوى عاصمة بلاد آشور ، ولقد كتب عنه نادان في رسالته المزورة الى فرعون مصر :

« عندما تتسلم هذه الإرسالية ، قف واخرج للملاقاة في وادي النسر الواقع الى الجنوب . . . » ، « وأنا سأقتادك الى نينوى دون حرب وستملكها أنت » .

وكان لثقل هذا الوادي أن يقع على الطريق بين آشور ومصر . فعلى هذه الطريق كانت تقع مدينة « عش النسر » أي « قنة ديشرى » . ووجد منذ القرن السادس الميلادي هنا دير مسيحي للاشوريين . وجبل سيس - هو ذلك الجبل الذي كان على أخيقار أن يجمع الجيوش الآشورية عليه وفقاً لرسالة نادان المزورة . ويقع هذا الجبل على مدى ثلاثة أيام سفر من نينوى عاصمة الآشوريين . وفي أيامنا الآن لا يوجد مثل هذا الجبل بل توجد بهذه التسمية مدينة الى الشمال الشرقي من مدينة أضنة في تركيا .

ويذكر في القصة أنه كان لاخيقار زوجة تدعى اشفاغني وكذلك ستون زوجة أخرى ، وان هذه الظاهرة (تعدد الزوجات - المترجم) لم تكن لتتعارض مع العادات والتقاليد في بلاد آشور وبابل القديمة ويكتب أ. غريغوريف بالرغم من أن « بوليفاميه أي تعدد الزوجات كان مسموحاً به في بابل إلا أنه لم يكن الشكل السائد في ذلك إذ أن الأم احتلت مركزاً محترماً جداً في العائلة . والدليل أن اسم الأم في كثير من الوثائق يرد قبل اسم الأب . كما نال الابن العاصي لأوامر أمه وفقاً للقوانين الآشورية عقاباً أشد صرامة من عصيانه لأوامر أبيه ، ومن وجهة النظر هذه يكون نادان قد ارتكب جريمة أشنع بمخالفته لأوامر أمه المربية » . ويحتمل أن العدد ٦٠ هو من المنظومة

قبل ١٥٠٠ سنة من ظهور هذه القصة • وكذلك قبل ظهور خرافة إيكار (*) بفترة طويلة •

أثناء زيارة أخيقار لمصر طلب فرعون منه أن يفسر لغزاً عن الأحصنة والأفراس : « وضع لي يا أخيقار ما يلي - قال فرعون - : سهل حصان سيدك في آشور فأجهضت أفراسنا التي تهاوى السى سماعها هذا الصهيل هنا » •

ولهذا اللغز الآشوري الأصل عدة نماذج موازية له لدى الشعوب الأخرى ، ويذكر أ • غريغوريف أحد هذه النماذج الموازية له في الأدب الشعبي الروسي عن إيليا موروميتس والعنديلب الوغد •

وحينذاك أوصى إيليا موروميتس
باخراج الزوجات المكرشة والخيول المهر
لمسافة خمس فرسات (*) (*)

وحينها أنجب العنديلب وهو يصفر •

وحين لقاء فرعون بأخيقار طلب من الأخير أن يجدل له من الرمل خمس حبال • ولعبارة « يجدل من الرمل خمس حبال »

* إيكار Ikaros في الأسطورة اليونانية القديمة يرد ذكر إيكار - الشاب ، ابن ديدال الذي أراد الفرار من السجن بمحاولة التحليق فوق البحر بواسطة أجنحة صنعها له أبوه مسن الريش والشمع ، ولما اقترب إيكار من الشمس كثيراً ذاب الشمع وسقط إيكار في البحر وغرق - المترجم •

(*) (*) فرستا : وحدة قياس مسافات وتساوي ١.٦ م - المترجم •

أشباه موازية أيضاً إلا أن أقدمها هي تلك التي تعود لقصة أخيقار الحكيم • ونشاهد مثل هذه الأشباه في المعتقدات الروسية •

« ووفق المعتقدات الروسية الشعبية ، لم تكن هذه المسألة قابلة للتحقيق حتى من قبل العفاريت ، إلا أن ذوي الكتب السوداء « المشعوذين - المترجم » ولكي يخلصونهم من العفاريت يأمرونهم بضرر حبال من الرمال أو الماء أو من أشعة الشمس وبجر الحيتان بها من البحر أو أي أحمال أخرى »•

وعندما أمر الملك الآشوري صديق أخيقار بإعدام الأخير ، لم ينصاع الصديق للملك بل خبأ أخيقار في سرداب البيت •

وكذلك لهذه الحادثة مكان في الحكاية الشعبية الروسية عن إيليا موروميتس : « عندما كان إيليا موروميتس حاضراً لمأدبة لدى الأمير فلاديمير ، أخذ يرفل أرضاً الفروة المهداة له من الأمير فلاديمير ويتبجح وكأنه بذلك يرفل القيصر كودريفانيش • حينها أخذ الخدم أو الحشم بوشايته للامير فلاديمير قائلين له بأن إيليا موروميتس يتبجح يرفل الأمير ذاته على الأرض • وقتئذ أمر الأمير بظمر إيليا موروميتس واقفاً في حفرة حتى الرقبة • تقوم زوجة الأمير (أو ابنته) - أوبراكسيا بتقديم الطعام والماء سراً لإيليا موروميتس وخلال عدة سنوات • وعندما يشن الملك كودريفانيش (وبعض الروايات تقول بعد علمه بموت إيليا موروميتس) الحرب على الأمير فلاديمير ، يبقى الأخير في حيرة من أمره ، إذ أنه ليس لديه مدافع عنه فتقوم الأميرة إما بالاعتراف مباشرة بأنها حافظت على حياة إيليا موروميتس أو بتقديم النصيحة للامير فلاديمير للتحقق من حياة

إيليا موروميتس فيتوجهان الى المكان الذي طمر فيه إيليا ويخرجانه
من الحفرة ويترجياه ليعمل على إنقاذهما » •

ويحكى في الفولكلور القديم بقدر ما كان نادان ابن أخيقار
شريراً ومخادعاً مثلما يتصورون الذئب ، هكذا يقارنه أخيقار في
تعاليمه بهذا الحيوان الذي اقتادوه الى المدرسة ليتعلم •

ونصادف في الملاحم الألمانية وقصائد القرن الثالث عشر الميلادي
في فرنسا عند الشاعرة ماري دوفرانس حكايا وأمثال عن تعليم الذئب •
مثل هذه الحكاية موجودة حتى في الأدب الروسي القديم
وسميت « بقصة كيف علموا الذئب القواعد » حيث يقال :

أنت تهمس للذئب : أَلف باء ، نعم ؟

والذئب يردد الماعز والغنم

وأنت تهمس له : صرف الفعل

والذئب يقول : رأيت الماعز عند الجبل •

لقد نحا تاريخ انتشار هذه القصة عدة مناح • فالنص الأصلي
كتب باللغة الآشورية - البابلية التي لم تعد موجودة الآن • فالقصة
كتبت لها الحياة باللغة الآرامية القديمة ، التي تم اكتشاف مقتطفات
منها من قبل أو • روبنسون عام ١٩٠٦ في جزيرة سيناء بمصر ،
حيث سارت ضمن أرشيف الفرق العسكرية ويعود تاريخها تقريباً
الى عام ٥١٥ ق م •

وتحفظ بقايا ورق البردي التي هي بشكل لفائف بطول ٣٢-٣٣

سم في مكتبة برلين بالرقمين ٦٤ و ٦٣ • وتتألف اللقافة ذات الرقم

٦٣ من ٣٣ عموداً أما اللقافة ٦٤ فتضم بقايا عمود واحد فقط ١٥

كل سطر فيها يوجد من ٥٥ الى ٥٨ حرفاً •

ويمكن للقارئ الذي يريد المزيد من التفاصيل أن يتعرف على أوراق البردي هذه في عمل العالم الألماني المشهور إ. زاخاو الصادر عام ١٩٠٨ .

وما يلفت النظر في مصير هذه القصة ، أنه في القرن الرابع الميلادي قام الكاتب والفيلسوف الأشوري أفريم سيرين (أبريم أنورايا) بتنقيح أحد نماذج هذه القصة ونشره ، وهذا التنقيح بالذات أصبح أساساً لكل النماذج الأخرى للقصة : كالنموذج السلافي والعربي والأرمني واليوناني والروماني والأثيوبي واليوغسلافي والجيورجي . أما ما يخص النموذج اليوناني فهناك مجموعة كبيرة من الاحتمالات . وقبل كل ذلك كان العلماء اليونانيون القدماء ذاتهم يعتبرون أن الأسطورة هي فن ابتدعه الآشوريون والبابليون وبأنه كان لأساطيرهم أثر كبير على تكون الأسطورة اليونانية إيزوب (★)

ويعتبر العالم الفرنسي ف . نوو بأن الفيلسوف الاغريقي ديمقراطيس (٤٦٠ - ٣٧٠ ق م) أثناء رحلته الى بلاد بابل جلب معه الأساطير الاشورية - البابلية أمثال أخيقار الحكيم . ويلاحظ فيما بعد بأن ميناندر استخدم حكم ديمقراطيس هذه الذي كان بدوره قد استقاها من أمثال اخيقار هكذا رغم انه كان بإمكان هذا المؤلف وواضع سيرة حياة إيزوب أن يتخذ ميناندر من جانبه مثالا لهذا النموذج .

(★) إيزوب Aisopos وهو اسم كاتب الاساطير اليوناني القديم (قرن ٦ ق م) والذي وضع اسلوب التعبير عن الرأي بطريقة الاشارات والهمس والالغاز وذلك ما يدعى بالعربية لغة لقمان - المترجم - راجع معجم الكلمات الأجنبية - موسكو ١٩٨١ - .

أما الموضوعة العربية فهي مؤسسة وفقاً للمخطوطات الآشورية
القروسطية •

وكما يفترض بأن نقل القصة الى اللغة الأرمنية قد تم كذلك
بترجمتها من الآشورية إلا أن زمن الترجمة غير معروف • ونصادف
في مرافعة العالم الأرمني إزنيك (القرن الخامس الميلادي) بعض
أمثال أخيقار وحكمه • ولا يعتقد ف • نوو أن ترجمة القصة الى
الأرمنية قد تمت في مرحلة مبكرة كهذه ، إذ أنه يعتبر أنه من الممكن
جداً وصول حكم أخيقار الى أرمينيا أو وفيما بعد ذلك القصة •

وقدم العالم الأرمني داشيان والذي عاش في القرن التاسع عشر
في فيينا بحثاً مفيداً عن تاريخ ظهور قصة أخيقار بين الأرمن • وقد طبع
هذا البحث في النمسا عام ١٨٩٩ • فهو يكتب في عمله هذا عن
النصوص المكتوبة الأولى عن القصة وتاريخ ترجمتها الى اللغة
الأرمنية وتأثيرها على الأدب الأرمني • وقبل عامين من ظهور هذا
المنشور خرجت الى النور مقالة باللغة الأرمنية في مدينة فينيسيا
« البندقية - المترجم » ، حيث يكشف فيها التشابه بين الفصص
والأمثال التوراتية وبين أخيقار •

وفي عام ١٨٩٤ تمت كتابة قصة عن أخيقار من قبل بونياتفوف
ناظر معهد باياندور في أرمينيا في دار م • كيفوركوف إحدى أهالي
مدينة إجميادزين وهي بعنوان « قصة أخيقار الحكيم » •
وقد حلل ف • ميلار الروسي المختص بشؤون القفقاس ما كتبه
بونياتفوف وتوصل الى استنتاج مفاده أنه كان للسرد الشفهي عن
أخيقار في أرمينيا مصادر أدبية وصلت الى أرمينيا عن طريق
سورية •

وفي عام ١٨٩٧ صاغ العالم ذاته (ميللر - المترجم) مقارنةً بين قصة أخيقار والحكاية الشعبية الجيورجية « عن ملوك الشرق والغرب » وقد رأهما قريبتين جداً من بعضيهما • كما كان للباحث أ. خاخانوف المختص بشؤون القفقاس دوراً كبيراً في دراسة هذه القصة حيث وجد الجزء الأول للنموذج الجيورجي لقصة أخيقار الحكيم ونشره في عام ١٩٠٤ • إن نص هذا النموذج تنقطع أحداثه عندما يكذب نادان ابن أخيقار بالتبني على أبيه • فقد قارن أ. خاخانوف هذا النص بالنموذج الأرمني ووجدهما متشابهين بالأسماء وبالتحويلات والاضافات •• الخ.

أما الصياغة الأثيوبية للقصة فتدعى « بكتاب الفلاسفة الحكماء » وتضم خمسة عشر موضوعاً من القصة ، مترجمة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين من المخطوطات الآشورية بواسطة العالم إسحق بارخانيا •

وتعتبر المخطوطات الرومانية لهذه القصة الكنز الأغنى والذي صيغ - كما يعتقد العلماء - من النصوص السلافية أو اليونانية والتي ترجع أصولها إلى صياغة أفريم سيرين لها •

وسنحاول إعطاء لمحة مبسطة عن بعض أعمال العلماء الروس والمكرسة لهذه القصة والتي ظهرت في روسيا القديمة وأبدت تأثيراً كبيراً على مجموعة من الحكايا والملاحم الشعبية • وترجع أبكر دراسة لهذه القصة في روسيا إلى عام ١٨٠٠ م • في هذه السنة قال الباحث المشهور وصاحب مخطوطات أ. موسين - بوشكين بالاشتراك مع ف • مالىنوفسكي في الطبعة الأولى لكتاب « كلمة عن فوج إنغريف » فكرة عن وجود نموذج روسي قديم لقصة عن أخيقار الحكيم •

وفي عام ١٨١٦ • أجرى المؤرخ الروسي الكبير ن • كارامزين مقارنة للترجمة الفرنسية لكازوت المعمولة سنة ١٧٨٨ م مع النموذج الروسي للقصة الموضوعة وفن مخطوطات أ • موسين - بوشكين • وتوصل ن • كارامزين في النهاية الى أنه لا يمكن اعتبار قصة أخيقار الحكيم نموذجاً قديماً لمؤلف روسي ولم يستطع هذا المؤرخ الاجابة عن كيفية وصول هذه القصة الى روسيا ، إذ أنه آنذاك لم تكن توجد المواد الكافية لذلك ، ومع مرور الزمن وصات معطيات جديدة وأضحت اللوحة واضحة بالتدرج •

وفي عام ١٨٢٥ ترجم الباحث الروسي ن • باليفوي القصة بتصرف ثم قارن بعض أبوابها بالطبعة الفرنسية لكازوت والتي صيغت منها الترجمة الروسية • أما في عام ١٨٤٢ قام بطبع هذه القصة باسم «كلسة عن أكبر الحكيم» •

وقد درس القصة في روسيا علماء اللسانيات أمثال : أ • فوستوكوف ف • بوصليف ، م • سوكولوف وغيرهم • فقد قارن أ • فوستوكوف نموذجين للقصة موجودين في متحف رومياتسيف بالرقمين ٣٦٣ و ٢٧ • وبحث البروفيسور م • سوكولوف مطولاً المصائر التاريخية لهذه القصة ونسبها للقرن الخامس عشر الميلادي ، وطبع القصة بعنوان « سيناغريب الملك أدور » • ويكتب ف • بوصليف في عمله (المختارة التاريخية) بأن هذه القصة « تحصل آثاراً مترجمة ضاربة بالقدم إذ انها كما يمكن أن تكون من اليونانية كذلك يمكن أن تكون من مزامير سليمان أو من كتاب حكمة عيسى ابن سيراخوف وأقوال ميناندر الماثورة أيضاً » • ويضطلع فيما بعد بفكرة مفادها أنه باستطاعة التعاليم الموجود في القصة أن تكون أساساً لترجمتها الى اللغة الروسية •

وقد أصدر البروفيسور ن • تيخونرافوف محاضراته بين عامي ١٨٧٨ - ١٨٧٩ في كتاب « تاريخ الأدب الروسي القديم » وبحث فيه مسألة ظهور هذه القصة في روسيا ، وأبدى بهذا الصدد رأياً مفاده أن هذه القصة هي ترجمة لاحدى أساطير « ألف ليلة وليلة » وكان للقصة تأثيراً على الأساطير الروسية مثل : « كلمة معيشة مشابهة لكاسيان » و « النحلة » و « كلمة دانييل المعتقل » و « مصيبة سوء الحظ » •

وقد وقعت هذه القصة لمدة طويلة في ساحة نظر الأكاديمي فسيلوفسكي الذي كتب عنها يقول : « إن الأمثال الشرقية القديمة عن الملك وعن واعظه (★) الحكيم قد انتقلت الى المؤلف الأسطوري عن سيرة حياة إيزوب من جهة ، والى المجموعة العربية « ألف ليلة وليلة » من جهة أخرى » • • وفي التنقيح يرد ما يشبه الأخيرة ، إذ أن القصة الشرقية انتقلت الى الكتابة البيزنطية وهذه بدورها عرفت السلاف الجنوبيين عليها (أي القصة - المترجم) •

وفي ١٨٨٦ أصدر ي • بارصوف النموذج السيبيري لقصة أخيقار الحكيم (القرن السادس عشر الميلادي) وبعضاً من حكم أخيقار • وييني ي • بارصوف استنتاجاً هاماً جداً عن وجود مجموعة كبيرة من أمثال أخيقار الحكيم في وصايا فلاديمير موناخوف وكذلك في « كلمة دانييل المعتقل » •

ويعود الأكاديمي أ • فيسيلوفسكي عام ١٨٩٠ مرة أخرى الى دراسة قصة أخيقار وينطق بفكرة أنه من الممكن للقصة أنها قد

(★) الرجل الذي يستشير الملك وليأخذ النصائح منه .

وصلت الى الأدب اليوغسلافي من خلال الأدب البيزنطي منذ القرن الثالث عشر، وإنها دخلت الى مجموعة المآثر الروسية بعنوان « سيناغريب الملك آداروف وبلاد النضوج » كما دخلت الى هذه المجموعة قصة « كلمة عن قوح إغريف » •

وكتب البروفيسور م. سو كولوف في عام ١٨٩٢ مقدمة للكوميديا « المجد الروسي » حيث يلاحظ بأن قسماً من مواد (المجد الروسي) هو « قريب جداً من تعاليم أخيقار الحكيم في الطبعة الروسية للقصة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي وكذلك لما طبعه الأديب الروسي أ. بيكيني عن تعاليم أب لابنه » وفيما بعد طبع «التعاليم» ذاتها • كما كتب خ. لا باريف في عام ١٨٩٣ بحثاً عن البطريرك فيوستيريكت ، حيث تطرق لتاريخ ظهور قصة أخيقار • وقد اعتبر أن القصة وصلت عن طريق بيزنطة الى روسيا كأصل عربي لها • وفيما بعد صيغت منها القصة المسيحية •

ويفترض الأكاديمي ساباليفسكي بأن ترجمة القصة الى اللغة السلافية قد تمت في روسيا القديمة (روسي) • إن المعلومات المكثسة خلال سنين طويلة من العمل على هذه القصة مكنت العلماء من صياغة استنتاج واضح مفاده أن أصول هذه القصة تعود الى بلاد آشور الغابرة •

إن « قصة اخيقار الحكيم » — هي أحد أشكال الاحتكاك الثقافي الذي كان موجوداً بين روسيا وبلاد ما بين النهرين • إن الثقافة الروسية لم تكن لتتشبع بأفضل ثقافات الشعوب الأخرى فحسب، بل وكذلك أثرت على ثقافات بلاد الشرق القديم •

والآن وبعد أن تعرفنا على تاريخ قصة أخيقار الحكيم وطرق

انتشارها وترجماتها الى اللغات المختلفة واستخدامها في آداب الشعوب المختلفة بما في ذلك في الأدب الروسي • نود يارقائنا العزيز أن تقترح عليك متابعة التعرف على مجموعة من أمثال هذا الحكيم القديم والإحساس بسحرها وعمقها وكذلك أهميتها للذين عاشوا في زمانه ولعاصرنا أيضاً •

- ١ - اذا سمعت سراً ، فليمت في قلبك • ولا تبوح به لأحد ، كي لا يصبح جمره متقدة في فمك ولئلا يحرق لسانك كي لا يجلب الهموم لروحك ولا يجعلك تتمرد ضد الرب •
- ٢ - يا بني لا تدع ما تسمع ولا تتكلم بما ترى •
- ٣ - لا تحل الجبل المعقود ، ولا تشبك عقلاً جديدة دون لزوم لذلك •

- ٤ - لا تزن بزوجة قريبك لئلا يزنون بزوجتك •
- ٥ - لا تكن كشجرة البندق التي تستعجل في الإزهار ولكن تنضج ثمارها بعد كل الثمار • ومن الأفضل أن تكون كشجرة التوت فهي تزهر متأخرة وتعطي ثماراً قبل غيرها من الأشجار •
- ٦ - اخفض عينيك للوادي أو لا ترفع صوتك عالياً ، إذ انه ليس بالكلمات الكبيرة تبنى المنازل • لو كانت البيوت تشاد بالصراخ لكان بإمكان الحمار أن يشيد كل يوم منزلين • لو تحرك المحرار بالقوة فقط ، لما نزوعوا السكة عن ظهر الجمل أبداً •
- ٧ - نقل الحجارة مع العالم أفضل من شرب الخمر مع الغبي •
- ٨ - اسكب خمرك على ضريح الأتقياء ولكن لا تشربها برفقة الأشرار •

- ٩ - مع الانسان العاقل لن تضيع ومع الغبي لن تتعقل •

- ١٠ - صاحب الرجل العاقل كي تجمع لنفسك العقل • ولا تقترب
من الثرثار لئلا تصبح مثله •
- ١١ - مادامت قدماك في حذاء متين فتابع السير وحك ونظف
الطريق لأبنائك وأحفادك •
- ١٢ - كل مما هو لك ولا تمد يدك للآخرين •
- ١٣ - مع الانسان التافه لا تتذوق حتى الخبز •
- ١٤ - لا تغضب عندما يزدهر خصمك ، ولا تفرح عندما يقع
في مصيبة •
- ١٥ - لا تقترب من المرأة غير المترفة في حديثها وكذلك من
المرأة ذات الصوت الصارخ •
- ١٦ - لا تبدي لجمال المرأة أي اهتمام ولا تكن له في قلبك أي
اشتياق • إذ أن الجمال الحقيقي للمرأة يكمن في جمال سلوكها ، وبهاؤها
يتجلى في جمال حديثها •
- ١٧ - إذا بينت لك عدوك الشر ، حين يصادفك ، فجرده من
سلاحه بقوة عقلك •
- ١٨ - إردع ابنك مادام صغيراً ، وقبل أن يصبح أقوى منك
فينهض ضدك ويخجلك بتصرفاته الغبية •
- ١٩ - كلمات الانسان الكاذب تشبه الطيور الجارحة فهو
يتقبلها بلا مناقشة ذلك الذي بدون عقل •
- ٢٠ - لا تلحق بنفسك لعنة أهلك وأمك • إذ في الوجة
المقابلة لن تستطيع الفرح بسعادة أبنائك •
- ٢١ - لا تتوجه في طريق دون أن تحصل السلاح ، لأنك لا تعرف
متى وأين ستصادف عدوك •

- ٢٢ - كما تزين الأعضاء والثمار الشجرة ، والغابة الكثيفة الجبل هكذا يزين الزوج أطفاله وزوجته •
- ٢٣ - لا تقل « سيدي غبي ، أنا أكثر فهماً منه » •
- ٢٤ - لا تقل « أنا ذكي » ، عندما لا يعتقد الآخرون أنك هكذا •
- ٢٥ - الكلب الذي يترك صاحبه ويتبعك ، ارجمه بالحجر •
- ٢٦ - الغنم التي تشرد بعدة اتجاهات ، تصبح صيداً محققاً للذئاب •
- ٢٧ - لا تسمح لقريبك أن يدوس قدميك ، كي لا يركب فيما بعد على رقبتك •
- ٢٨ - اضرب الانسان العاقل بكلمات عاقلة ، كي تلهب قلبه ، كما تلهب الحمى الانسان المريض في يوم صيفي ، أما الأحمق مهما أنهلت عليه بالعصي فلن تجعل منه إنساناً خيراً •
- ٢٩ - اعط أوامرك للفارس الذكي ، ولا تلح عليه للقيام بها • أما إذا كان الفارس غيباً فانطلق بنفسك بدلا عنه •
- ٣٠ - جرب ابنك بالخبز والماء أولاً وفيما بعد اجعله قيماً على أهوالك وأملاكك •
- ٣١ - لقد قمت بعتل الحديد وكسر الحجر ولكن كل ذلك تبين أنه عمل سهل بالمقارنة مع الدخول الى بيت حمي أنا •
- ٣٢ - أن يكون للانسان عينان ضريرتان أفضل من قلب أعمى •
- ٣٣ - صديق قريب أفضل من أخ بعيد • السمعة الطيبة أفضل من الجمال إذ أنها تبقى خالدة الى الأبد أما الجمال فيذبل ويزول •
- ٣٤ - عظمة وزه في يد الانسان أحسن من وزه كاملة في إناء

غيره • وعصفور في اليد خير من ألف عصفور طائر في الهواء •

٣٥ - لاتنيس بينت شفة بالكلمات التي لم تفكر بهافي قلبك ،

لأنه من الأفضل أن يتلثم الانسان بأفكاره مما لو تلثم في كلامه •

٣٦ - لا تفرق عن أصدقاء أيبك لئلا يبعد أصدقائك عنك •

٣٧ - لا تدخل حدائق السلاطين ولا تقترب من بنات عظماء

العالم •

٣٨ - عندما تصادف إنساناً أكبر منك سناً ، قم له وفاء

بالاحترام •

٣٩ - عندما تتعلق البقرة في الهواء وتطير الطيور دون أجنحة

ويصبح الغراب أبيضاً كالثلج والعلقم حلوا كالعسل حينذاك فقط.

سيعقل الأحقق •

٤٠ - عين الانسان تشبه العدير ، وهذي وذاك لا يمكن إشباعهما

مالم يملأ بالتراب •

٤١ - من غير المحب الافراط في زيارة صديقك دائماً كي

لا يتجنبك ويبدأ بكرهك •

٤٢ - من يرفض الاستماع بأذنيه سيضطر للاستماع بقربته •

٤٣ - الخير يترد بالخير والشر يرد بالشر ، ومن يخفر حفرة

لغيره سيقع فيها •

الباب الثاني المكتشفات السومرية

غلغاميش رأى كل شيء وجرب كل شيء
وحتى أنه توصل لادراك السر القامض للحكمة
ولمجمل تاريخ ما جرى قبل الطوفان . .
(من اللوح الأول « ملحمة غلغاميش »)

حفريات التلال السومرية

مرت عهود ، وكل عهد منها ترك آثاراً خلاقة على أرض
ما بين النهرين ، تلك الآثار التي نشاهدها في الألواح الفخارية
« الكتب الفخارية » وفي القصور المتهدمة ، وفي أطلال جدران
القلاع والمدن والمعابد الدينية .

مرت عصور - والأرض - الأم تحتضن بأمان في جوف تلالها
آثار الحضارات القديمة لبلاد ما بين النهرين . تلك التلال التي
تمثل بالنسبة لأجيال عديدة من الباحثين المستشرقين تلافيف ذاكرة
التاريخ ، ومن هذه التلال التي صانت ذاكرة آلاف السنين تذكر تل
مكبير والأحيمر وورقة وكثيراً غيرها . وراحت الأسرار المخبأة
فيها تتكشف تدريجياً وأصبحت معلومة في البداية للعلماء الباحثين
ومن ثم على نطاق واسع من القراء . لقد رأى فيها العلماء منقبوا
الآثار شواهد دامغة للحضارات العريقة ومن خلال اللوحات الفخارية
تعرفوا على معيشة أهل بلاد ما بين النهرين ، واهتماماتهم وعلى
أحزانهم وأفراحهم وعلى عملهم وعنائهم اليومي من أجل لقمة الخبز
وعلى كيفية القيام بالاحتفالات وقضاء أوقات الفراغ إن وجدت .
تلال عظيمة حفظت في « أجوافها » أدلة عن ذكرى أساطير ومثل

وملاحم السومريين وعن أديهم الذي كان له تأثيراً كبيراً جداً على واضعي التوراة التي يحاول بعضهم تصويرها بأنها من ابداع الشعب اليهودي وحده ، والبعض الآخر يعتبرها منزلة من السماء أبداعها الخالق العظيم .

لقد بدأت التنقيبات في هذه التلال في جنوب ما بين النهرين منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، وتابع الأوروييون في القرن السابع عشر هذه الأعمال .

ففي بداية القرن السابع عشر وصل الرحالة الايطالي بيترو ديلا فالتي الى القسم الجنوبي من ميزوبوتامي (★) . فقد برز امامه تل مجهول ، وفيما بعد سماه العرب مكبير . لم يدر حينذاك بيترو ديلا فالتي أن تحت هذا التل ترقد مدينة التوراة أور وهكذا يمضي القرن السابع عشر ويلحق به الثامن عشر .

وفي عام ١٨١٨ م قام الفنان الانكليزي برسم تل الأحيمر وعليه أطلال قديمة ، ولم يتوقع الفنان بأن لوحته هذه تضم بقايا المدينة السومرية كيش .

وفي عام ١٨٨٥ قام العالم الرحالة الانكليزي ج . فريزر برقعة مواطنه الطبيب ج . روسس بتنقيب تل ورقه وجوفي وتل مكبير . كانت أبناء الرحالة والعلماء عن التلال الحاضرة لأسرار الأزمنة الفابرة تلهب اهتمام الأوروبيين بذلك .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر اكتشف عالم الآثار الفرنسي إ . دي سيرزيك المدينة السومرية ، القديمة لاغاش في محلة

(★) اللفظ اليوناني لبلاد ما بين النهرين وهي مشتقة من Mesos وسط اوبين وكلمة Potamos أي النهر - المترجم .

التل ، حيث وجد هناك بقايا الثقافة المادية لهذه المدينة السومرية ، ومن بين هذه المكتشفات يميزون أدوات الفن وعديدا من اللوحات الفخارية ذات النصوص المسمارية •

وفي بداية القرن العشرين وجد العلماء على أثر التنقيب بمدينة سومرية ضخمة قديمة وهي أور • حيث اكتشف العلماء في هذه المدينة مقبرتين هما - كما اتضح ذلك فيما بعد - لملك اورميسكلامدوك والملكة شوباد ، اللذين عاشا في الألف الثاني ق.م ، وقد كتب المستشرق السوفياتي الكبير البروفيسور ف • أفديف بأنه في هاتين المقبرتين : « •• تم العثور على كمية كبيرة من مصنوعات الصياغة ذات الفن الرفيع وخصوصاً قيثاره مصنوعة من الخشب ومطرزة بالذهب والفضة والزمرد ، وكذلك رأس ثور ذهبي ولوحة غنية بالنقوش مخصصة للعبة ماثبه الشطرنج « المترجم » • وميدالية فضية لقارب مع مجاذيف وحلي عديدة للزينة وأوان وأسلحة ومجموعة كبيرة لأدوات أخرى مصنوعة ومطرزة من الذهب والفضة • وقد تم بشكل جيد حفر ودراسة القسم الأكبر من المدينة والذي يعود لزمان حكم الملك ريميسين (القرن السابع عشر ق.م) • وقد تم العثور هنا على مجموعة من الشوارع والأزقة والساحات وكذلك على بقايا أبنية عديدة قدمت صورة واضحة عن حياة المدينة السومرية القديمة • كما تم العثور في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة على وثائق مسمارية تنسب بصورة رئيسة الى عهد « الملك ريميسين » • وفي عام ١٩١٢ م بدأت البعثة الألمانية للتنقيب عن الآثار عملها في المدينة السومرية القديمة أوروك ، وقد ترأس هذه البعثة العالم يو • يوردان واستمرت أعمالها المتواصلة والكاملة مدة ستة أشهر ، حيث دنت الحرب العالمية الأولى فتوترت العلاقات الدولية بين

الحكومات مما اضطر علماء الآثار توقيف أبحاثهم التي تكثرت بالنجاح منذ بدايتها ، إذ عثروا في هذه المدينة على عدة معابد وأدوات للاستخدام المنزلي والقبلي والثقافي خلال فترة لا تزيد عن نصف سنة .

ولم يعاودوا أعمالهم إلا في عام ١٩٢٨ م أي بعد إحدى عشر خريفاً . ومرة أخرى تقترب حرب عالمية ثانية تلك الحرب التي لم تتيح الفرصة لانتهاء التنقيبات الأثرية .

وفي هذه المرة تجسد النجاح الكبير بالعثور على المعبد العظيم المخصص لمدفن الالهة السومري الأكبر آلهة السماء آنو . وفيما بعد عشر على « المعبد الأبيض » الذي يعود لعام ٢٨٠٠ ق.م . ومعبد الالهة فانه الذي كان موجوداً قبل الميلاد وهاكم ماكتبه عن هذه التنقيبات المستشرق البولوني المختص بالحضارة السومرية م . بيليتسكي في كتابه « عالم السومريين المنسى » : « كشفت الأرض للعلماء عن سر الأسوار الدفاعية الضخمة لمدينة النصف الثاني من الألف الثالث لما قبل الميلاد وهنا في أورك تم العثور على أقدم اللوحات المعروفة لنا ذات الكتابة المصورة والأختام المسطحة والاسطوانية وفي الطبقات الأقل عمقاً لوحات من العهود المتأخرة بأختام ومساند مدورة مكتوبة برموز متنوعة وغير ذلك الكثير . وحدثت حجارة الجدران الجانبية السليمة العلماء عن الكمية الهائلة لأعمال البناء في عهد قادة سلالة أور الثالثة ومن بين الأدوات المنزلية العديدة عثر على مزهرية من الرخام الشفاف ذات ثلاث حزم من النقوش البارزة وقد تحطمت الى خمسة عشر قطعة نتيجة لثقل البناء الذي تم اكتشافه .

ويعتبر الباحثون بأن هذه المزهرية تكسرت في الأزمنة الغابرة

وبأن الحرفيين السومريين منذ آلاف السنين الفاتنة قد جمعوا حطامها وربطوها بحلقة معدنية. لم يوجد تقصير حتى في تصوير الأدوات البسيطة كأشكال الحيوانات والطيور والمصنوعات الفخارية والحجرية وكذلك المعدنية ، إلا أنه يبدو أن أثن المكتشفات هذه وحتى بالمقارنة مع المزهريّة الرخامية والأختام القديمة هو رأس امرأة منحوت من المرمر ذو جمال أخاذ .

وفي ١٨٨٩ واصلت التنقيبات في المكان المقترح عن توضع المدينة السومرية القديمة نييور بعثة أمريكية برئاسة ج. بيترس وغ. غلبريخت بالإضافة الى هؤلاء فقد ضمت البعثة خ. هنس بصفة مصور ومدير وكذلك ثلاثة منقيين آخرين . وفي منطقة التنقيبات عن مدينة نييور توضع مجموعة من التلال فرقمها المنقبون وبدأوا العمل في التل رقم (١) وعثروا فيه على أطلال قصر ملكي ، أما في التل رقم (٥) فقد وجدوا مكتبة كاملة « للكتب الفخارية » . لكن اضطر علماء الآثار الى مغادرة أماكن التنقيبات بسبب الاندلاع المفاجيء للصراعات الأهلية بين القبائل العربية في ذلك المكان .

وبعد سنة كاملة فقط قرر إثنان من البعثة السابقة وهما ج. بيترس وخ. هنس العودة الى بلاد ما بين النهرين . وفي هذه المرة اكتشف المنقبون زيפורات (وهي منذنة مدرجة مبنية لأغراض روحية) أما في التل رقم (١٠) فقد عثروا على معبد وألف « كتاب فخاري » . لقد وصل هؤلاء الأمريكيون الى هذا المكان عدة مرات وفي كل مرة منها كانوا يكتشفون شيئاً جديداً آخر ومن هذه المكتشفات كانت عشرين ألف « كتاباً فخارياً » ، وقد اتضح أنه في هذا المكان كانت تقع المدينة السومرية نييور قديماً .

وفي عام ١٩٤٨ وبعد انقطاع طويل عاد المنقبون الأمريكيون مرة أخرى الى نيبور . وفي هذه المرة استطاعوا أن يعثروا على أصنام دينية وقرارات قضائية واورحات لحسابات اقتصادية . وفيما بعد أي في عام ١٩٦١ عثرت البعثة الأمريكية في مكان سمي « بالمستودع » على أكثر من خمسين شكلاً يمكن بواسطتها تحديد التقاليد الدينية للسكان المحليين - السومريين .

ولم يغب عن بال المنقبين الأمريكيين البلدان المختلفة والأماكن الأخرى لبلاد ما بين النهرين . ومنها تل الأحيمر الذي زاره في عام ١٨١٩ الكاهن الانكليزي ج . بوكينغم . فقد قدم حينذاك للفنان ر . يورتر اقتراحاً بأنه في هذا المكان كانت تقع مدينة بابل قديماً عاصمة الدولة البابلية . فتوجه ر . يورتر الى المكان المشار اليه ودون جهد عثر على « كتب فخارية » وقطع من ألواح رخامية مملوءة بالكتابة المسارية . وعلى قسم من عرش الملك البابلي حمورابي . لقد كان ر . يورتر رساماً موهوباً ولريشته فضل علينا لما تركته لنا من لوحات ورسومات لهذه التلال القديمة والمشاهد التي تعود لذلك الزمن البعيد . لقد حفظت رسوماته في عدة متاحف بريطانية بمجموعات خاصة عرفت الأوروبيين على بلاد ما بين النهرين القديمة . ومهدت الطريق لتنقيبات أثرية لاحقة عن مدينة كيش ، ذلك الكنز الذي خبأه تل الأحيمر قرناً طويلة ، لقد مضت سنون قبل أن يبدأ علماء الآثار تنقيباتهم المنتظمة .

لقد بدأ المنقبان الفرنسيان ف . فرنسيل وج . أويرت وعملوا هنا سبعة أيام فقط لأنهم عثروا خلالها على عبارة مبنية من القرميد تعود لعهد نبوخذنصر الثاني وعلى العديد من الأدوات

المنزلية والثقافية والفنية • لأن البعثة تعرضت لغارات البدو العرب
مما اضطرها لايقاف التنقيبات •

وكانت أطول بعثة استمرت عشرة فصول هي بعثة عام ١٩٢٣

لتنقيبين من الولايات المتحدة الأمريكية برئاسة لينغدن وماكيه •
فقد كتب م • ييليتسكي بأنه : « كان مركز اهتمام البعثات العشرة
المنظمة من قبل هذه المجموعة موجهاً نحو التل الشرقي والأطلال العائدة
للعصور الغابرة • ففي مجرى أعمال الحفريات في التل (A) تم
العثور على القصر الشهير المبنى من القرميد المقعر والذي يعود بنائه
في الأغلب الى عهد الملك إيسليم • لقد حافظ القصر على وضعه
بشكل لا بأس به ، وقد تمكن علماء الآثار من إعادة وضع مخططه
ثانية بكل دقة • فقد تحددت معالم السلاله والصلالات العديدة ،
والعرف المختلفة الأغراض وكذلك اللوحات الجدارية والنقوش ،
كما عُثر بين هذه الأطلال على لوحة ذات كتابة صورية • لاشك
أن القصر قد تعرض لتهديم أو أنه هُجر من قبل ساكنيه منذمرحلة
السلالات القديمة ولم يَرمم ثانية أبداً • كما تعود لذلك الزمن أيضاً
المدافن وربما أطلال (أو قصر مهجور) استعملت كمقابر فقد عُثر في
هذه المدافن على مجموعة كبيرة من الأدوات المختلفة : مثل الأدوات
النحاسية وأدوات الزينة ، مصنوعة من العقيق والذهب والفضة وأختام
من الجص والحجر الفلوري واللازودي ومن الحديد الأحمر •

كما عثر المتقنون في إحدى المدافن على هيكل فخاري لعربة ذو
عجلتين وفي مدافن أخرى على بيوض النعامة • أما المادة الأكثر أهمية
فقد تم الحصول عليها من تنقيبات التل الغربي حيث عثر على مقبرة
وتواييت شبيهة من حيث الشكل بتواييت أور ، ووجد في بعضها آثاراً

لمدفن جماعي • أما في الطبقات الأعمق فقد وجدت مصنوعات فخارية
تمتاز بصفات عهد جمدت نصر» •

لقد كان النجاح الكبير من نصيب المنقب الانكليزي د • تيللور
الذي بدأ الحفريات في مدينة المخير التي تحدثنا عنها ، لقد لاحقت
هذا المنقب وكذلك المنقبين الآخرين عواصف رملية حارة وجافة •
إن هذه الرياح الصحراوية القوية ساعدت المنقبين أحياناً فمثلاً هبت
مثل هذه الرياح على جانب من التل وعرفته من الرمال المتراكمة على
تلك الصفحة مما مكن د • تيللور من رؤية جدران البناء المهدم •
وكتب م • بيايتسكي بهذا الشأن قائلاً : « لم يكن هناك مكان للشك
فتقع أمامه مدينة كبيرة غائرة في نوم عميق ودائم إنها المدينة التي
كان عليه إيقافها • مما تبدأ التحريات ؟ وتضار العين المجربة تلاً من
مجموعة تلال يقع في الشطر الشمالي من هذه المنطقة وتشبه آثار
بناية من ثلاثة طوابق ، أضف أن الطابق الثالث يمكن ملاحظته
بسهولة وهو مزاح ل ٥ - ٦ أمتار بالنسبة للطابق الثاني كما تبدو
الأعمدة والسلالم الصاعدة على المقطع الطولي للانحدار واضحة
جداً • وخلال الحفريات التي قادها تيللور وقام بها السكان المحليون
أخذت تظهر تدريجياً بقايا الجدران والأعمدة والسلالم • من المتوقع
أنه ارتفع فوق الطابق الثالث في وقت ما « بهو » ضخم وأخذ
تيللور يبحث قبل كل شيء عن كتابة تدله على باني هذا المعبد •
كان البابليون يضعون مثل هذه الكتابات على الزوايا الخارجية
للجدران فإذا به يكشف الزوايا الأربعة كلياً ويتنصب أمامه معبد
الالهة نانه لمدينة أور • وكان الخبر الذي جاب العالم بأكمله هو :
العثور على مدينة التوراة أور تلك كانت سنوات الاكتشافات الأثرية

العظيمة عندما - كما بدا - أن الناس قد اعتادوا على المفاجآت المثيرة إلا أنه كان من الصعب تصديق مثل هذا الخبر . واتضح من الكتابة المدونة على جدران هذا البناء بأن هذا المعبد قد أعيد بناؤه من قبل الملك البابلي نابونيد لتمجيد آلهة القمر نانه ، وبأن من بدأ بنائه هو ملك أورثانا وابنه الملك شولغا ، وكذلك في السنوات التي سبقت حكم الملك نابونيد كثير من الملوك بنوا بيت « نانه - سين » .

وبعد أن تم حفر جدران زيقورات اتخذ تيلمور قراراً بحفر بئر عميق حتى الأساس . وقد ساعدت هذه الحفريات حتى « القاع » على لقية مجموعة من الجرار و « الكتب الفخارية » . وكل « كتاب » حفظ في غلاف فخاري لوقيته من الصدمات وعرفت محتويات هذه الكتب المنقبين على الماضي المجيد لهذه المدينة وتاريخها وبنائها ، ومراسلات ملوكها مع الحكام الآخرين .

كل ذلك كان هاماً ، إلا أن الاهتمام بمدينة أورغاب بشكل مفاجيء مثلما كان الاهتمام بظهورها ، ولم يرجع علماء الآثار الى هنا إلا في عام ١٩١٨ حيث ترأس المجموعة ر . كيمييل - تومسون . وقد ناب عنه في ١٩١٩ الانكليزي غ . هول . وقبل أن ينتهي من تحرياته وصل الى أور القديمة مع بعثة الباحث ل . ويللي الذي امضى هنا ١٢ فصلاً . ولم يرغب الانكليز باعطاء المبادرة لأحد . إذ أنه في القرن الماضي وفي بداية القرن العشرين توجهت كل متاحف العالم للحصول على آثار سومر وبابل وآشور الفريدة بنوعها وقيمتها وقدمها . ويعود ذلك بالأخص الى القرن التاسع عشر ، إذ لاحظ م . بيليتسكي بأن في هذه المتاحف « الحكومات والمتاحف الحكومية القائمة بالأبحاث

العالمية قدمت القروض بكل صدر رحب للبعثات الأثرية • فقد جرى خلف هذه الكنوز الدباوماسيون والعسكريون والعاملون في الشركات وقد تمكنوا من جمع عدد من الهياكل والوثائق التاريخية ، لكن هذه المضاربة ألحقت بالعلم ضرراً غير قليل لذلك كان أعضاء البعثة مشغولين بشكل رئيسي بالبحث عن المواد التي تعطي للجمهور انطباعات مذهشة •

وقد امتازت التحريات في تلك المرحلة بطابع بربري للتعامل مع المواد الأثرية النفيسة ، وبضعف علم الآثار وبغياب المختصين وبدعم وجود الطرق التجريبية للأبحاث • كل ذلك يمكن أن يوضح لنا أماكن النقص الموجودة في معارفنا عن السومريين » •

لكن كل ذلك كان مجرد مقدمة بسيطة لاكتشافات المدن الأخرى وللتنقيب عن تاريخ السومريين الذي لا مثيل له • لقد ساعدت هذه الاكتشافات التي قام بها منقبون اخصائيون ودبلوماسيون ، وبنائون وحتى الرحالة على الأطلال بوضوح في القرون الماضية لتاريخ الانسانية وعلى توسيع تصوراتنا عن العالم القديم لبلاد ما بين النهرين •

من أين أنت تسمية ((ذوي الرؤوس السود))

هكذا سمي السومريون أنفسهم وكذلك ستمتهم الشعوب القاطنة

في بلاد ما بين النهرين •

لقد ظهرت مسألة تحديد الموطن الأصلي للسومريين في بداية القرن العشرين ، وقبل ذلك اعتبروا عادة سكاناً محليين واعتبر موطنهم الأصلي بلاد ما بين النهرين •

ولكن هذا الرأي تغير تدريجياً ، وراحوا يحاولون الموطن الأصلي

للسومريين الى خارج حدود بلاد ما بين النهرين • وأول من أخذ يشك بذلك هو العالم الأمريكي إ. سبايزر وأيده في ذلك العالم الروسي م. ميكولسكي والأمريكي س. تكامير وغيرهما • ووجد هؤلاء العلماء خلفاء رأوا في هذه الفرضية أساساً متيناً للاستنتاجات الواقعية • حيث يؤكد ش. أوتين بالاستناد الى الدراسات المجراة على المدافن بأن السومريين خرجوا بالأساس من القفقاس وأيده بذلك ف. خريستيان ، فقد كتب بأنه هناك تشابه معين بين اللغتين السومرية والقفقاسية • ويذهب ف. خريستيان بفرضيته الى أبعد من ذلك حيث يعتبر أنه « قد يمكن أن السومريين قدموا من التبت أو من منطقة اساما في الهند » •

وقد قارن ف. خريستيان بين عادات وتقاليد البورميين - التبتيين من جهة والسومريين من جهة أخرى • واطلّع على ثقافتهما وعلى حقيقة أن البورميين - التبتيين قد قدموا الى آسيا في العصر الحجري الحديث من شواطئ البحار الجنوبية • كما قدم العالم الانكليزي س. غيد فرضية أخرى عن منشأ السومريين ، فقد بين بأنه في القرون الأولى للألف الثالث قبل الميلاد ظهرت بوقت واحد في مصر وسومر مجموعة من العادات والمقومات الثقافية الواحدة • واستناداً لذلك فهو يؤكد وجود روابط بين هذين البلدين بنوها السومريون الذين كما قطنوا بلاد ما بين النهرين كذلك قطنوا مصر في وقت واحد • ويعتقد س. غيد بأن السومريين قد انحدروا من الهند أو من أي منطقة أخرى في جنوب شرقي آسيا •

ويعتبر بعض العلماء بأن اللغة السومرية لغة أغاوتينية أي أن تغيير الشكل في الكلام لا يجري بالحق ضمائر على نهاية الكلمات

بل باضافة زوائد على بداية الكلمات • وانطلاقاً من ذلك فهم يسمونها الى مجموعة اللغات التركية •

والبعض الآخر يشير الى قرابة اللغة السومرية باللغة الدراويدية في جنوب الهند ، حيث يكتب العالم التشيكوسلوفاكى ي • كليما : « إن التشابه الواضح بين مكتشفات محنجو وارو وخراب الواقعة في سفلي نهر الهند وبين المكتشفات السومرية في جنوب بلاد ما بين النهرين تدعم هذه الافتراضات بقوة » •

وفي نهاية المطاف طرح رأي يقول : بأنه من الممكن اعتبار المقاطعة الغربية من الهند الصينية الموطن الأصلي للسومريين •

كما يبرز سؤال آخر عن كيفية وصول السومريين الى بلاد ما بين النهرين • هل وصلوها — بحراً أم برأ من خلال المناطق الجنوبية لايران الحالية ؟ ويمكن أن تدعم الافتراض الثاني القرابة المعينة بين ثقافتى سومر وعيلام الواقعة الى الجنوب الغربي من المرتفعات الايرانية والمتاخمة لبلاد الرافدين • إلا أنه لا توجد لدينا براهين حقيقية على أن الموطن الأصلي للسومريين هو الهند •

ويطابق بعض الباحثين بين الملوحة وأثيوبيا وبعضهم الآخر يبحثون عن الموطن الأصلي للسومريين في ما وراء القفقاس على شواطىء بحر قزوين • ويبقى السؤال حتى الآن عن البلاد التي يقصد بها من استعمال مصطلح ديلمون الذي غالباً ما يرد ذكره في المراجع السومرية مفتوحاً • وكما سنرى فيما بعد أن السومريون يطلقون تسمية ديلمون في أساطيرهم على جنة الأناس الأوائل • وكما قدم العالم الأمريكى س • كرامير في الفترة الأخيرة اقتراحاً بالبحث عن بلاد الديلسون في حوض نهر الهند (وليس بمطابقتها بجزيرة البحرين كما جرت العادة على

ذلك حتى الآن) • وللبرهان على مثل هذه الفرضية يستند س • كرامير على الوثائق الادارية والتجارية السومرية ، التي تطلق فيها تسمية ديلمون على البلاد التي كان يستورد منها العاج الى سومر ؛ وكذلك يستند على الملحمة السومرية التي تسمى بالديلمون تلك البلاد حيث « تبرزغ الشمس منها » وهي أقرب ما تكون الى حوض نهر الهند منها الى جزيرة البحرين • كما ايس من السهل تحديد تاريخ وصول السومريين الى الجزء الجنوبي من بلاد ما بين النهرين • وتتحدث المكتشفات الأثرية عن وجود قفزة ثقافية حادة في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد • ويفسرون ذلك بوصول شعب الى هناك ، حيوي ذو مستوى رفيع من التطور من المتوقع أنه السومريون • وقد عثر على الدلائل الأولى لوجودهم عند التنقيب في أبعده المدن الى الجنوب وهي مدينة إريدو • ومن هنا انطلقت الثقافة السومرية بالانتشار في الاتجاه المعاكس لجريان الفرات ودجلة ، وقد وضعت بصماتها على مساحات شاسعة بين هذين النهرين ولمدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً • ويبدأ طريق الثقافة السومرية تغلغله من جنوب ما بين النهرين عبر المدن القديمة إريو ، أوروك ، أور ، لاغاش ، شوروباك ، أداب ، نيبور وكيش ، ويلاحظ تأثيرها الى الشمال أبعده من ذلك في ماري وحتى في آشور • وعندما قدم السومريون الى جنوب ما بين النهرين لاقوا مقاومة عنيفة من السكان المحليين الذين عاشوا هنا منذ أقدم العصور • فأخذ السومريون يقطنون هذه البقعة من الأرض تدريجياً وبموجات ابتدأت من نهاية الألف الرابع وحتى بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، وبذلك أزاحوا السكان المحليين الذين - حسب رأي س • كرامير - هجروا ما بين النهرين متوجهين الى حوض

نهر الهند • حيث قطنوه حوالي عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد • لقد خلف هؤلاء السكان وراءهم ثقافة عالية انتقلت فيما بعد الى السومريين • وبهذا الشكل ترسم معالم إحدى أهم التوجهات التي لم يشك العلماء فيها أبداً •

وبكلمة أخرى يعتبر العبيديون (نسبة الى تل عبيد في جنوب ما بين النهرين) أسلاف السومريين أو السومريين القدامى المزاكين من مواطنهم الأصلية الى بلاد المخنجو دارو أي الى بلاد الهند • فهم لم يبقوا وينقلوا للسومريين جزءاً هاماً من ثقافتهم في ما بين النهرين ، بل ونقلوا جزءاً هاماً منها الى مواطنهم الجديد أيضاً ، ومن هنا التشابه الكبير بين ثقفتي السومريين وموخنجو دارو •

أخذت الثقافة العبيدية بالانتشار في حوالي أعوام ٤٤٠٠ — ٤٣٠٠ ق م ويقترحون أنها ظهرت في جنوب ما بين النهرين أي أنها تلك الثقافة المحلية التي تعتبر فاتحة الحضارة السومرية ومحركها الأساسي • أما هي بالذات (أي الثقافة المحلية) فيفترض العلماء أنها نشأت في المناطق الجنوبية لایران الحالية • فقد امتد تأثيرها من الأقسام الجنوبية لبلاد ما بين النهرين حتى مدينة كيش في بغداد الحالية • فقد عرف السومريون القدامى بالذات الري جيداً ، إذ أنه بدون هذه الطرق في الزراعة لم يكن هناك إمكانية بناء حضارة كهذه الحضارة التي تلقاها وطورها السومريون • ومن هنا الامكانية التامة لتصديق الافتراض باعتبار الهند المنشأ الأصلي للسومريين • وعلى أية حال ، أثبت العالم الانكليزي ويللي العلاقة الوثيقة بين الثقافات العبيدية والهندية والسومرية ، فلقد عثر في تل عبيد على الشيء الذي يهمنا في مسألة استنقضاء الموطن الأصلي للسومريين •

لقد كان ذلك خاتم وشم يحمل صورة ثور أحبدب على طراز موخنجو دارو . كما نقشت عليه مخطوطة تشبه كتابة سكان وادي نهر الهند . وتقع مدينة موخنجو دارو - كما هو معلوم - في منخفضات نهر الهند ، حيث اكتشف علماء الآثار هناك رقيمات أثرية تبين الثقافة الهندية القديمة العائدة للالف الثالث قبل الميلاد . إن هذه الرقيمات تشهد - في الوقت ذاته - على قرابة ثقافة هذه المنطقة وبلاد النهرين القديمة .

وكتب بي . كليما عن العلاقات الثقافية المتبادلة والتماثل بين السومريين وسكان الهند القدامى ، يقول : « وفي المقبرة الملكية عشر على خرزات من العقيق مرسوم عليها أشكالاً هندسية مصبوغة بنفس الطرق الكيميائية التي استعملت في معاملة المواد الأخرى في موخنجو دارو . ومن غير المعقول أن تكون هذه الطريقة قد اكتشف في بلدين متباعدين أحدهما عن الآخر في وقت واحد تقريباً ، ولا نشاهد في وقت متأخر عن ذلك في أور مثل هذه المعاملة للخرز ، أما في الهند فيتطور هذا الفن ويزدهر تبعاً حتى يومنا الحاضر » .

ويؤيد البعض الآخر من العلماء وفي مقدمتهم العالم الروسي الكبير « الأب الروسي لعلم السيرولوجيا (★) » ن . نيكولسكي وجهة النظر القائلة بأن المنشأ الأصلي للسومريين هو إيران أو تلك الأرض القريبة منها مثل المناطق المتاخمة لعاصمة تركمانية السوفيتية (أشخباد) .

(★) السيرولوجيا - أحد فروع علم الاستشراق ويدرس تاريخ الحضارات الآشورية من جميع النواحي (السياسية والاقتصادية والاجتماعية . . . الخ) - المترجم .

فقد عثر المنقبون في تلال هذه المناطق على أدوات حجرية وبرونزية وفخارية شبيهة جداً بتلك التي وجدوها في التلال السومرية في جنوب ما بين النهرين • وكل ذلك قاد الى فكرة مفادها بأن السومريين فعلاً قد قدموا الى ما بين النهرين من تركمانيا الحالية • كما بين التحليل اللاحق لكلتا الثقافتين وجود ما هو مشترك بينهما •

وكان يقع موضع أو مكان إقامة الإله إنليل - الإله الرئيسي لدى السومريين - في الجبال وليس في الوهاد كما هو الحال في القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين • لذا يمكن لمنحدرات جبال كوبيتداغ أن تكون منشأهم الأصلي •

لقد كانت الحياة الرعوية وكذلك يمكن اعتبار عوامل أخرى مثل النكبات وغيرها السبب في تحريك السومريين من أماكن إقامتهم الأصلية • وأخذوا يهاجرون بما في ذلك الى بلاد ما بين النهرين (حوالي الألف ٦ - ٥ قبل الميلاد) • وهنا في المنخفض جمعوا تلاً ركامياً عالياً لإلههم الرئيسي إنليل بقصد شكرهم له للرعاية الدائمة ولأنه قادهم الى واد خصب ذو أنهار غزيرة • فقد سمو هذا التل الاصطناعي الذي جمعه بأيديهم «بيت على الجبل» أو «بيت الجبل» وبالسومرية (إيكور) •

وكان السومريون في مرحلة تنقلاتهم شعباً دون أبجدية ، إذ لم يعثر المنقبون في مواطن إقامتهم الأصلية على أية آثار للكتابة • كما لم يكن في استطاعتهم العيش في الوقت ذاته دون أقتنية اصطناعية للري ودون المياه المتجهة من الأنهار الجبلية الى الأراضي الجافة • أما في بلاد ما بين النهرين حيث تتوفر المياه بكثرة كانت الأقتنية ضرورية لهم لجر هذه المياه الفائضة لري الأراضي وهكذا ظهرت لدى هذا الشعب

بلاد شاسعة ذات أراض خصبة ، تعطيهم مواسماً ثمينة بالمحاصيل وفي مسار ذلك أخذت تتشكل العلاقات الاقتصادية المعقدة التي بات من الضروري رصدتها وتسجيلها في الوثائق حينذاك .

وهكذا برزت الحاجة الى وجود الكتابة . وضعت الخطوة الأولى حيث أخذ الناس يفكرون بكيفية تسجيل الأعمال الاتاجية ، والأوامر والتعليمات والتعهدات وبعض القوانين الأخرى .

كما قدمت آراء أخرى بالنسبة للغة السومرية وموطنهم الأصلي فيعتبر كثير من العلماء بأن لغة السومريين وقواعدها المدهشة لا قرابة لها بأية لغة من اللغات التي احتفظت بنفسها ليومنا الحاضر هذا .

فيقدم باحث هذه المسألة ف . أفاناسيف رأياً مفاده أن السومريين سمووا جزر الديلمون (جزيرة البحرين) الواقعة في الخليج الفارسي مهداً لحضاراتهم ، وإحدى أقدم مدنهم هي اريدو . كانت تقع هذه المدينة في مصب نهر الفرات في الخليج الفارسي حالياً حيث لم يتحد وقتئذ مع نهر دجلة في مجراه السفلي .

كيف بدأ السومريون آنذاك ؟ نشاهد على الألواح الفخارية رسوماً لأناس حليقي الرأس ، لم يكن لهم شوارب ولحى . وجوه السومريين ورؤوسهم مستديرة الشكل ، عيون واسعة كبيرة وأذن مستقيم كبير . وكان وجهاؤهم أيضاً حليقي الرأس ، دون قبعات وبعضهم الآخر يضع قبعات مستديرة تدعى بالسومريات .

ويعتبر السومريون بذاتهم أن أول مدينة بنوها في بلاد ما بين النهرين هي مدينة نيبور على مشارف بغداد الحالية ، وكان يعتبر الإله إنليل الإله الرئيسي لمجموعة من الآلهة الموجودة في المدن الأخرى . ومن هنا يعتقد العلماء بأن مدينة نيبور هي أول مدينة شيدت لديهم .

فقد كانت تقع بالقرب من منطقة المرتفعات الإيرانية ومن هناك مرت
وتمر الطريق بين الوهاد الجبلية • وبهذه الطريق انهالت الموجات
السكانية الأخرى •

لقد جمع العالم التشيكوسلوفاكي المختص بالشؤون الآشورية
ب • غروز في وقته أيضاً أبحاثاً عن مسألة الموطن الأصلي لل سومريين •
وقد دلت دراسة المواد التي جمعها على أن السومريين وصلوا الى
بلاد ما بين النهرين في مرحلتين اثنتين ، كانت المرحلة الأولى في
النصف الأول تقريباً من الألف الخامس قبل الميلاد ، أما الثانية فكانت
في النصف الثاني منه • وقد وصلوا الى هذه المناطق قادمين إما
من أعماق آسيا وإما من الشرق الأدنى •

وخلاصة لمجمل الفرضيات المطروحة عن الموطن الأصلي لل سومريين
كتب م • بيليتسكي يقول : « تقع البلاد التي قدم منها السومريون وفق
مجمل المعطيات في مكان ما في آسيا وعلى الأرجح في منطقة جبلية
لكنها واقعة بشكل يسمح لسكانها تعلم فن الإبحار • ويتفق رأي
أغلب الباحثين — قليلاً أو كثيراً — حول ذلك • والشاهد على أن
السومريين قد قدموا من الجبال هو طريقة بنائهم للمعابد التي شيدت
فوق دعائم اصطناعية أو على قوالب من الغضار أو الطوب فوق التلال
أو المصاطب المرتفعة • وبالكاد يمكن أن تظهر مثل هذه العادة لدى
سكان السهول • وكان على سكان الجبال أن يجلبوا معهم من منشئهم
الأصلي الى جانب هذه العادة معتقداتهم المبنية لتمجيد الآلهة على
قمم الجبال • كما أن هناك برهان آخر على ذلك ، بأن كلمة « البلاد »
وكلمة « الجبل » في اللغة السومرية تكتب بنفس الشكل •

كما تتفق — بشكل عام — آراء مجمل الباحثين عن كيفية وصول

السومريين الى بلاد ما بين النهرين • فإذا كان ذلك فعلا كما يفترض بعض الباحثين ، بأنهم نزلوا من أعالي المرتفعات الايرانية أو أنهم جاؤوا من مناطق جبلية أبعد من ذلك ، فإن طريقهم مرت من خلال الهند نحو البحر ومن هناك الى الغرب • ومن الممكن أنه قد وصلت الى أسماعهم أخبار عن بلاد واقعة على شواطئ البحر بين مصبي نهرين أو أنهم أبحروا بكل بساطة للعيش بحثاً عن الأراضي التي يمكن العيش فيها •

وهكذا يتحدث الكثيرون عن وصول السومريين الى بلاد ما بين النهرين بجرأ وذلك لأنهم أولاً ظهوروا قبل كل شيء في مصبات الأنهار • وثانياً ، لعب الدور الرئيسي في معتقداتهم الإله أنكي ، ذلك الإله الحكيم الطيب الذي كان «بيته» - أبزو - يقع بين المحيطين •

وأخيراً ماكاد السومريون يقطنون ما بين النهرين حتى أخذوا يمارسون الري في الزراعة والإبحار وركب السفن في الأنهار والمحيطات •
ملحمة غلغاميش وعلاقتها بالتوراة

أكد واضعوا التوراة ومؤيدوها بأنها لم تكتب من قبل أي إنسان بل قدمها الله للبشر ، فلقد نزلت علينا من السماء •

ويبين تحليل النصوص التوراتية بأن قسم منها يرجع الى العادات والتقاليد العبرية والقسم الآخر لشعوب أخرى • إن معرفة ذلك ضروري لكشف ألغيب الصهيونية حول تفوق شعبها وعلى ماتنطوي عليه هذه الألغيب من خداع وتشويش لأفكار المؤمنين والسذج • وأحد دلائنا على ذلك هو ملحمة غلغاميش • وتقدم لنا هذه الملحمة إمكانية البرهان على صحة المقولة التي تؤكد المنشأ الديوي للتوراة

وتبين بطلان الإدعاء القائل بأن العهد القديم هو من المؤلفات الروحية الإلهية .

ففي القرن التاسع عشر عمل في الشرق الأدنى والأوسط ، الدبلوماسي الانكليزي راؤولينسون . فقد مارس الى جانب عمله الدبلوماسي البحث عن الآثار وإحصاء المخطوطات المسمارية وتفسيرها وهكذا نقل عن صخرة بيخيستون الواقعة على الطريق بين بغداد ، وطهران مخطوطة ذات لغات ثلاث . ولذلك كان يدعى بالبينيست (★) بيخيستون ، إذ انه لم يقم بنقل الكتابة فحسب بل وبقراءتها وترجمتها وتقديرها لجهوده في فك هذه الرموز وفي اكتشافاته الأخرى في التاريخ الأشوري سموه بـ «أبي الأسيريولوجيا» .

عندما انتهى راؤولينسون من أعماله الدبلوماسية التي قضاها في منصب القنصل الانكليزي العام في بغداد . عاد مباشرة الى انكلترا وعكف على اعداد سلسلة « النصوص المسمارية في آسيا الغربية » وقد قام بدعوة ج . سميث ليساعده في تصنيف وتجميع وترميم وطباعة الرقيمات على صفائح نحاسية لتحضيرها للنشر بعد طبعها ج . سميث لم يقم بتنفيذ ما أوكل اليه بدقة فحسب بل وأخذ يدرس اللغة الآشورية - البابلية التي كتبت هذه اللوحات بها . راح يتمعن في معاني الكلمات المكتوبة ويدرس تاريخ العالم القديم في كتب أستاذه غ . راؤولينسون . بدأ تدريجياً يفهم النصوص المنقوشة وفي إحدى المرات انتقى من بين ركام اللوحات الممجة في مستودع المتحف البريطاني لوحة مجدته في

(★) متسلق جبال الالب وفيما بعد أصبحت تطلق على جميع متسلكي الجبال - والمترجم .

العالم أجمع • فقد دار الحديث فيها عن مغامرات أحد أبطال العصور
الغابرة والطوفان الذي تعتبر قصته معروفة لكل انكليزي من التورات
منذ نعومة أظفاره • ج. سميث أدهشه هذا الاكتشاف لذا راح
يترجم هذا الجزء الهام من السلسلة ، فقد سماه « تصورات الكلدانيين
عن الطوفان » • وفي كانون الأول عام ١٨٧٢ تم نشر صوراً منسوخة
من الرقيمات الفخارية عن غلغاميش وبما في ذلك كتاباً عن الطوفان •
لقد آثار ج. سميث بنشره هذا اهتماماً واسعاً كما في انكلترا
كذلك في العالم أجمع ، ليس اهتماماً فحسب بل وذعراً أيضاً لدى
الأوساط الدينية أمام ما تم العثور عليه من مواد تؤكد بطلان الخلق
الإلهي لأحد الكتب المقدسة ألا وهو العهد القديم •

والحقيقة أن العلماء منذ القدم وقفوا ضد مقولة التكوين الإلهي
للتوراة وانتقدوا فكرة منشئها السماوي • ومن هؤلاء الناقدون نذكر
تسيابي ، يورفيري ، لوكيان • وفي مرحلة متأخرة مارس انتقاد التورات
كل من سبينوزا ، استريوك ، باوير ، كولباخ وغيرهم • إلا أنه لم
يكن بمقدور أحد منهم أن يقدم بهذا القدر من المواد الذي قدمه
ج. سميث • لذلك بمجرد نشره لهذه الأبحاث أخذ الناشرون من
مختلف الاتجاهات يقترحون عليه جل الخدمات وتعويض تكاليف
الرحلة الى بلاد ما بين النهرين حيث كان بإمكانه العثور على الجزء المتبقي
من هذه الملحمة • وأصحاب جريدة « ديلي تيلذراف » لم يوافقوا على
دفع تكاليف الرحلة لسميث الى نينوى وبالعكس بل وأخذوا على عاتقهم
كل نفقات الإقامة والعمل هناك بالإضافة لذلك تلقى ج. سميث ألف
جنيه استيرليني ثمناً لإجراء التحريات في موقع العمل •
كلف مجلس الاشراف على المتحف البريطاني ج. سميث بمهمة

لمدة ستة اشهر • وفي كانون الثاني من عام ١٨٧٣ سافر الى نينوى
— العاصمة السابقة للدولة الآشورية والواقعة في شمال ما بين النهرين
وفي أيار من العام ذاته عثر ج • سميث على ١٧ سطرًا من المقتطفات
الناقصة لأسطورة الطوفان العالمي • عملياً تم العثور على كل أجزاء
الملحمة عن غلغاميش (١٢ رقيقة) • وبعد خروج البحث الأول
عن الطوفان العالمي الى النور نشر ج • سميث كثيرا من المقالات ،
وأصدر بعض الكتب عن تاريخ آشور تلك الكتب التي أصبحت فيما
بعد نصباً تذكاريًا للباحث عبقري •

والى جانب الاستنتاجات المفيدة والهامة الأخرى افترض ج •
سميث في أعماله بأن اللغة الأصلية لمحملة غلغاميش لم تكن اللغة
الآشورية — البابلية ، بل السومرية ، وبالتالي كانت الملحمة قد كتبت
أولا في المدينة السومرية أوروك • مما دفع العلماء لبدء مرحلة من
البحث المضني عن رقيمت عن الملحمة باللغة السومرية وقد عثر
عليها ، وهكذا تم البرهان بأن الكتاب الأول من التوراة والمسماى
بالوجود هو نسخة كاماة عن الملحمة السومرية القديمة العائدة لنهاية
النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد •

ويدور الحديث كما في التوراة كذلك في الملحمة عن الطوفان
وإنفلك والله (في الملحمة — عن عدد من الالهة) • الذي حذر نوح
— في التوراة وأوتنايشيتيم — في الملحمة عن حدوث الطوفان وعن
بناء السفينة — الفلك • انهالت دفعات الأمطار على الأرض وأعرقتها
قضت على كل ما هو حي باستثناء أولئك الأناس والحيوانات والطيور
الذين تمسك نوح « أوتنايشيتيم » أخذهم معه • وبعد إبحار طويل
ترسي الفلك عند جبال أارات « وفق التوراة » أما في الملحمة فعند

جبال ينسير • وفي كل من التوراة والملحمة يطلقون الطيوركي تعثر على اليابسة وبعدها الانقاذ يبدأون حياة جديدة • ويتضح كثير من النصوص التوراتية من خلال مراجعة الأدب السومري (فالملاحم والأساطير والخرافات في التوراة مرتبطة بحياة سومر القديمة وبالأخص الباب الأول « الوجود » من التوراة ، الذي يعود الى الأسطورة القديمة عن غلغاميش • لقد كانت هذه الملحمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، أما التوراة فقد بدأوا كتابتها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وانتهوا من كتابتها في القرن الثاني بعد الميلاد •

ولم يصل العلماء حتى الآن الى رأي موحد عن الطريق التي وصلت بها هذه الملحمة الى واضعي العهد القديم (القسم الأقدم من التوراة) • فبعضهم يعتقد أن هذه الملحمة يمكن أنها قد وصلت الى العبريين القادمين من شبه الجزيرة العربية بحثاً عن المراعي في بلاد بابل وأشور • وآخرون يؤكدون أنها قد وقعت بين أيديهم في زمن الأسر الأشوري في عهد الملك سرغون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق م) • أو في زمن السبي البابلي • فقد كتب العالم السوفييتي المشهور والمختص بالتوراة م • بيلينسكي : « تعتبر التوراة في وضعها الحالي مجموعة من المؤلفات القديمة المنوعة من حيث الشكل والمضمون والتي يغلب عليها الطابع الديني والمكتوبة على امتداد مرحلة زمنية طويلة جداً تستد من القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحتى القرن الثاني الميلاد • وتتألف التوراة من جزأين (العهد القديم الذي وضع قبل العصر المسيحي باللغة العبرية القديمة والعهد الجديد المكتوب من قبل أيديولوجي المسيحية المبكرة باللغة اليونانية القديمة » • ومع كل ذلك يشير واضعوا العهد القديم بجرأة الى المصادر العبرية

القديمة التي استقوا منها مواد نصوصه ، إلا أنهم لا ينبسون بنت شفة إطلافاً الى الاستنساخ عن الشعوب الأخرى كالأساطير والخرافات والعادات والتقاليد والقواعد العامة للموضوعة من قبل غير العبريين • كما يلاحظ فيما بعد أن : « الانتقاد العلمي للتوراة هدم التركيب الدوغمائي للديانة اليهودية ••• فقد تم البرهان على اعتبار التوراة مجموعة من المؤلفات الأدبية المتنوعة الشكل والموضوع والتي تنصف بغالبيتها بطابع ديني • كما أن نصوص العهد القديم تشبه كثيراً النصوص السومرية القديمة - الآشورية - البابلية والمصرية والحيشية» •

كما كتب مؤيد هذه النظرية العالم السوفييتي البارع به • ياروسلافسكي بأنه : « كما احتلت الامبراطورية الآشورية في وقت ما » (نحو ٢٦٥٠ سنة خلت) الدولة العبرية ، كذلك اتخذ العبريون كثيراً من العادات الآشورية ومعتقداتهم • كما اعتنق العبريون كثيراً من المعتقدات التي دخلت الى التورات عن البابليين عندما كانوا واقعين تحت احتلالهم • فمثلا : إن قصة مردوخى واسفيري هي بدون شك ترداد للقصة البابلية عن مردوك وعشتار • بالإضافة لذلك فإنهم اعتسبوا قصة الطوفان عن الآشوريين والبابليين أيضاً • فقد كتبت هذه القصص من قبل الكتاب العبريين المتأخرين ونسخوها بأشكال متعددة ، ثم جمعت معاً وأخرجت في التوراة كقصة عن سفينة نوح ، هذه القصة التي سنرى فيما بعد أنها تتألف - في واقع الأمر - من قصتين موضوعتين من قبل أشخاص مختلفين وحتى قبائل مختلفة» • ويعتقد الباحث الثالث في التوراة العالم البولوني ز • كوسيدوفسكي بأن هذه الملحمة تنقلت من بلاد ما بين النهرين القديمة

الى بلدان أخرى وإلى شعوب أخرى وخصوصاً إلى العبريين القدماء
وإلى فلسطين .

ومن جهة أخرى يبرهن علماء الآثار أن الفيضانات الكبيرة
(الطوفانات) كانت غير ممكنة الحدوث في أرض فلسطين المجردة من
الأنهار . مثل هذا الطوفان كان ممكن الحدوث فقط في بلاد غنية بالموارد
المائية . ولا يمكن أن تكون هذه البلاد في آسيا الأمامية غير بلاد
ما بين النهرين (ميسوبوطامي) بلاد السومريين والبابليين والآشوريين .
لقد قام عالم الآثار الانكليزي ل . ويللي بتنقيبات في جنوب
ميسوبوطامي ، وتكن بذلك من الاجابة عن التساؤل عن موقع
الطوفان العالمي . وكتب ز . كوسيدوفسكي : « حفر ل . ويللي في
جدار مدينة أوروك فقاً . . . وعشر على عمق ١٤ متراً على مدفن للملوك
السومريين يرجع الالف الثالث قبل الميلاد ، ويحوي على كنوز ضخمة
وبقايا بشرية . لكن ل . ويللي اتخذ قراراً بأنه يجب الكشف عما يوجد
تحت هذا المدفن . حينها اخترق العمال بتوجيه منه الطبقة التالية
من الأرض حتى وصلوا الى طبقة من الطمي النهري ، الذي لم يعثر فيه
على أية آثار لوجود الانسان . أمِنَ المعقول أن العمال قد وصلوا
الى طبقة التوضع التي تعود الى مرحلة ما قبل الاستيطان البشري
لهذه المنطقة ؟ إلا أن التنقيبات اللاحقة للمدفن جلبت له اكتشافات
مدهشة فتحت طبقة من الطمي بسماكة ٣ أمتار ظهرت آثار جديدة
لوجود الانساني مثل قوالب الطوب والنفائات ورماد المواقد وحطام
القرميد . لقد دلت قطع المصنوعات الخزفية شكلاً وتقنية على أنها
تعود الى حضارة مغايرة تماماً عن تلك التي تم العثور عليها فوق طبقة
الطمي النهري . لذا كان من الممكن تفسير هذا التوضع للطبقات

بالمشكل التالي فقط • لقد اجتاحت المنطقة فيضانات غزيرة تمكنت من إبادة مواطن إنسانية غير معروفة لنا وتعود الى عصور غابرة مجهولة، وعندما انحسرت المياه جاء الى المنطقة أناس آخرون واستوطنوا أرض ما بين النهرين من جديد • أولئك كانوا السومريين الأوائل صانعي أقدم حضارة من الحضارات المعلومة لنا في العالم • ولكي يتراكم الطمي بسماكة ثلاثة أمتار تقريباً كان لا بد من تواجد المياه في هذا المكان لفترة طويلة وبارتفاع لا يقل عن ثمانية أمتار • إن وجود مثل هذا الارتفاع في مستوى المياه السطحية — بعد اجراء الحسابات — كان يمكن له أن يجعل كل بلاد ما بين النهرين ضحية لكارثة مدمرة • إذا ، لقد لحقت بهذه البلاد فاجعة قاتمة نجدها في التاريخ فلقد كان في تصور سكان بلاد ما بين النهرين أن الفراغ الذي ألمت به الفاجعة يمثل العالم أجمع لذلك كانت الفيضانات الغزيرة بالنسبة لهم تمثل طوفاناً عالمياً شاملاً ، وذلك عقاباً من الآلهة (اللاهات) للبشرية الخاطئة • أبناء الفاجعة تناقلتها الأجيال من عهد لآخر فمن السومريين الى الأكاديين فالبابليين »

وانضيف بأن هذه الحكاية وصلت الى الآشوريين الذين سجلوها على الرقيمات الفخارية ، حيث عثر عليها المنقبون الاثريون غ • ليباردوخ • رسام في قصر الملك الآشوري آشور بانيبال • وقام ج • سميث بتفسيرها وإعلام البشرية بضمون بعض منها • ويبقى ز • كوسيدوفسكي على حق كلياً عندما لاحظ بأنه : « ما إن أعلنها — أي إعلان سميث لضمون الرقيمات — حتى تعالى زخم الاحتجاج من قبل انكلترا فيكتوريا المنافقة التي تعتبر التوراة بالنسبة لها كتاباً منزلاً من الله ولم يكن بمقدورهم الامتثال لحقيقة أن قصة نوح هي

اسطورة منسوخة عن السومريين » • فما هي الحجج التي أوردتها
خصوم ج • سميث للبرهان على انعدام الروابط بين هاتين الوثيقتين؟
قبل كل شيء أنهم يتشبهون بأن بطل القصة في الوراثة سمي نوحاً
أما عند السومريين فكان غلغاميش ، كما أن الفلك قد رست عند جبل
آارات الى الشرق من نهر دجلة وليس الى الغرب منه على جبل نيسير •
وهكذا الخ •••

إن المواد التي أوردناها تدحض مرة أخرى هذا « المنطق » ، إذ
أن التوراة قد وضعها الناس على أساس المعطيات الفلوكاورية ،
والتاريخية والأدبية لشعوب مختلفة •

وإما يخص ملحمة غلغاميش فقد كتب القدر لها حياة طويلة ،
فترجمت للغات عدة في العالم بما في ذلك الى الروسية • وبذلك نحن
مدينين قبل كل شيء للشاعر الروسي الكبير ن • غوميانف ،
والبروفيسور السوفيتي الأسيربولوج ي • دياكونوف • ففي عام
١٩١٩ م حقق ن • غوميانف ترجمة الملحمة الموضوعية من قبل إ • دورم
وفق النص الفرنسي • وفي عام ١٩٦١ م قام بي • دياكونوف بوضع
الترجمة العلمية للملحمة غلغاميش عن الأصل المكتوب باللغة الآشورية
— البابلية وأغناها بالتعليق المفصل مضيفاً إليها قائمة المراجع المتعلقة
بالملحمة •

وقد كتبت حول موضوع الملحمة قصص درامية ومقطوعات
موسيقية وحتى أوبرا •••

كيف كتب تاريخ الدويلات السومرية

إن أقدم الدول في العالم كما يعترف بذلك العلماء الآن ظهرت
في بلاد ما بين النهرين القديمة • وبنفس الوقت الذي تشكلت فيه

هذه الدول ظهرت هنا طبقات من المستغلين والمستغلين ومن أجل الحفاظ على الثروات بنت الطبقات المسيطرة جهازاً قسرياً مكوناً من فصائل مسلحة ، تقوم بالحماية وجمع الضرائب ومراقبة العميد ، والمشاعات •

إلا أنه لم تظهر الدولة كجهاز منظم مباشرة ، فقد تكونت تدريجياً ، فمن المفيد جداً التعرف على منشئها وتطورها من خلال الدويلات (المدن - الدول) السومرية •

بعد قدوم السومريين الى بلاد ما بين النهرين القديمة (٤٥٠٠ - ٤٠٦٠ ق م) بدأت تتراكم لديهم تدريجياً أسس تكون الدولة • ففي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد تم تكوين ما يقارب عشرين دويلة على الأرض التي قطنها السومريون • وفي الربع الأول من الألف الثالث قبل الميلاد بلغ عددها نحو أربعين دويلة ، من بينها إريدو ، أور ، لارسا ، شوريباك ، كيش ، أوروك ، لاغاش ونيبور •

لقد عمل قادة « حكام » هذه الدويلات محاولات لتوحيدها في دولة مركزية واحدة ، إلا أن أغلب هذه المحاولات كانت تنتهي بالاختفاق • وذلك لعدة أسباب بما في ذلك الأسباب الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية والأيدولوجية •

إذ أن مثل هذا التوحيد كان سيقلص نفوذهم في هذه الدويلات ويخلصهم من ملكية الأراضي وينهي عبادتهم الربانية •

كان العداء بين الدويلات السومرية يؤدي في الغالب الى الحرب فيما بينها لأسباب تتعلق بالرغبة في السيطرة على مصادر المياه والغابات والأراضي والمراعي • فمثلاً ، نتيجة للحرب الطويلة الأمد تم تحطيم قادة أوما وتوحدت دويلتا أوما ولاغاش • وفي عام ٢٨٧٠ ق م تمكن

حاكم دويلة كيش واسمه ميسيليم من إخضاع كلا من لاغاش وأوما لسيطرته . إلا أن هذا التوحيد لم يتسع أكثر من ذلك في سومر ، إذ أنه لم يكن قد تكونت بعد الظروف الاجتماعية السياسية لتوحيد كل الدويلات .

لقد عاشت الجماهير الشعبية في ظروف صعبة جداً ، وأكثر الحكام تميزاً بالقساوة والجشع كان لوغال أند حاكم دويلة لاغاش (حوالي ٢٤٠٠ ق م) . ففي هذه المرحلة ارتفعت قيمة الضريبة على أعضاء المشاعة لعدة مرات . وكانت ترسل لجمع هذه الضرائب فصائل مسلحة تقوم الى جانب مهبتها هذه بنهب السكان وخلق الفوضى . لذا عمل السكان المستأثرون على مجيء حاكم جديد إلى السلطة باسم أوروكاغينا . وفي تقديره لذلك قام بخفض الضرائب وأخذ يعاقب أولئك الذين كانوا يخربون ، وبالرغم من وجود منع رسمي لزيادة قيمة الضرائب إلا أن الجباة كانوا يتلاعبون بذلك حسب رغباتهم .

لقد أضعف عدم الرضى لدى الجماهير الشعبية وممارسات جباة الضرائب دويلة لاغاش لذلك خسرت الحرب فيما بعد أمام دويلة أوما .

وقد نقل لوكال - زاغيس حاكم أوما عاصمته الى جنوب سومر في المدينة القديمة أوروك .

وكتب البروفيسور ف . افدييف عن سياسة لوكال - زاغيس قائلاً : « لم يكتف لوكال - زاغيس بتحطيم لاغاش واحتلالها ، لقد وضع هذا الحاكم القوي لأوما نصب عينيه مهمة كبيرة هي توحيد كل سومر وأكاد وضمهما تحت قيادته . إن ضرورة مركزة شبكة الري الاصطناعي والدفاع عن البلاد ضد الأعداء الخارجيين كالقبائل الجبلية والرغوية

التي كانت في الأغاب تخترق حدود بلاد ما بين النهرين ، كل ذلك جعل توحيد كل بلاد سومر في دولة كبيرة من نموذج الدول الشرقية القديمة ذات الحكم المطلق مهمة ملحة • وأول من حقق هذه المهمة كان لوكال - زاغيس • فكما عرف من مخطوطاته أنه أخضع لسلطته أوروك وأور ولارسو وآداب • كما وقع تحت نفوذه أيضاً المركز الديني لكل سومر ألا وهو مدينة نيبور القديمة • ونظراً لأنه سمي نفسه ملكاً على أوروك وكذلك ملكاً لأور ، لذا أعلن هاتين المدينتين عاصمتين للمملكة السومرية الموحدة ، وذلك لأن هاتين المدينتين السومرتين القديمتين تعتبران حاملتي التقاليد السياسية والثقافية السومرية الأصيلة • وفي عمله لتعزيز سلطته على مجمل بلاد سومر استند الى كهنوت المدن السومرية داعياً آلهتها أن تصبح حامية له • أضف لذلك، انه لأول مرة في تاريخ بلاد ما بين النهرين يصنف قائد ما - كما يكتب لوكال - زاغيس في مخطوطاته الكبيرة سياسته العسكرية بشكل واضح حيث يشير فيها الى أن الإله الأعلى إنليل : « ملك جميع البلاد أعطى لوكال زاغيس عرش ملك البلد وسلمه سلطة البلاد بحيث أنه إذا احتلها من مشرقها لغربها فتح لهم بذلك طريقاً من البحر السفلي عبر دجلة والفرات الى البحر العلوي » • إن هذه السياسة التوسعية التوحيدية التي اتبعها لوكال - زاغيس ساعدت على ازدهار المدن السومرية الكبيرة •

وباعتزاز بنفسه تكلم لوكال - زاغيس حيث : « أنه أعطى أوروك البهجة والسعادة ، رافعاً رأس أور كراس الثور حتى السماء ووهب لارسو أحب المدن لبابار - مياه السعادة ورفع أفضل مدن الرب الى أعظم شأن » •

إلا أن هذا الازدهار في سومر لم يدم طويلاً ، فقد استمر خلال الخمس والعشرين سنة فقط التي تربح فيها لو كالم - زاغيس على عرش المملكة فقط . إذ برزت بعد ذلك للحال الدولة الأكادية القوية ، التي أصبحت مصدراً واقعياً يهدد بوجود المملكة السومرية المستقلة ذات السيادة الموحدة .

كان لا بد أن يتقد - آجلا أم عاجلا - الصراع بين هاتين الدولتين . وقد خرجت فيما بعد أكاد من هذا الصراع منتصرة ، حيث أخضعت جنوب سومر لنفوذها مشكلة بذلك المملكة السومرية - الأكادية المتجددة بقوة فتية كبيرة وزخم جديد للسياسة التوسعية التوحيدية التي اتبعها الملوك السومريون الغابرون .

لقد دامت المملكة الأكادية التي سنتكلم عنها في الباب الثاني ما يقارب - ١٨٠ - عاماً ثم سقطت على أيدي العيلاميين والكوتيين (وهم قبائل إيرانية المنشأ) وفي صراعهم مع العيلاميين والكوتيين انتصر الكوتيون وحافظوا على السلطة في أكاد وسومر نحو ١٢٥ سنة .

وقام السومريون بقيادة أوتيشيغال حاكم دويلة أوروك ضد المحتلين وبعد حرب ضروس وطاحنة هزم أوتيشيغال الجيوش الكوتية . إلا أن السلطة على عموم سومر لم تصل لأيدي أوتيشيغال ملك أوروك ، بل انتقلت الى السلالة الثالثة لحكام دويلة أور (٢١١٨ - ٢٠٠٧ ق م) . وأسس أحد ممثلي هذه السلالة وهو الملك شوانغا (٢١٠٠ - ٢٠٤٢ ق م) دولة موحدة مركزية ممتدة من سواحل الخليج الفارسي وحتى حدود المساحة التي تحتلها مدينة بغداد حالياً . ففي هذا الوقت تم وضع شبكة كاملة من الأقنية ومنظومات الري

ومزارع واسعة تخصص ملكيتها للمعابد والدولة • وفي مرحلة حكم شولغا تمت صياغة إيديولوجية حكومية هادفة لعدم بلاد سومر تتخذ الشكل الذي اعتنقتها به الشعوب السامية كالبابليين والآشوريين فيما بعد • واتباع مثل هذه الأيديولوجية تمكن حكام تلك البلاد من السيطرة على الجماهير الشعبية وإعاقة اتحادهم في النضال ضد السلطة •

كان الإله الرئيسي في بلاد سومر هو إنليل ، وكادت تعتبر كل الآلهة تابعة له وهو والدها • وكان معبده الأساسي (إيقور أي بيت على الجبل) يقع في مدينة نيبور في شمال بلاد سومر • وتقول الأسطورة عن إنليل بأنه أصبح الإله الوحيد العظيم بعد صراعه مع الغولة تيامات آلهة الهيمولي المائية حين لم توجد الأرض آنذاك • ومن أجل خلق الأرض وإيقور تقابل إنليل وتيامات في صراع صداماً لصدر وبعد عراك عنيف أبطحها أرضاً ، وحينها تمكن من خلق الأرض ، وكل ما هو حي (الناس والحيوانات والطيور والنباتات) وكذلك بيته على الجبل •

واستخدم كهنة مختلف المدن السومرية عبادة الإله إنليل وآلهة أخرى بشكل واسع وذلك لتوطيد سلطتهم وسيطرة إيديولوجيتهم – إيديولوجية الطبقة الحاكمة مما سهل هيمنتهم على الجماهير الشعبية وكبح جماح التناقض الطبقي والصراعات الأخرى •

ولم تستخدم هذه الأيديولوجية في الشؤون الداخلية فحسب ، بل واستخدمت بشكل واسع لتبرير الحروب التوسعية وإخضاع شعوب وبلاد أخرى أيضاً. وبالاستناد إليها شن الملك شوغال من سلالة أور الثالثة حرباً على العيلاميين وحملات ضد القبائل الإيرانية وأخضع

اسيئارته شعباً قاطنة على المجرى الشمالي لنهر دجلة وسورية ،لقد
وصات جيوشه الى المناطق الشرقية لآسيا الصغرى •

إن الحروب المظفرة التي قادها شولغا جعلته يعظم شخصه دون
حدود ، فقد أجبر السومريين أن يركعوا له وأن يبنوا على شرفه المعابد
كما قدمت لنصبه القرايين • ولكن لم تساعده عظمته ولا قدسيته
للقوف في وجه غزوات القبائل الرعوية السامية (العموريين) ضد
بلاد سومر •

لقد خرج العموريون من شبه الجزيرة العربية وزحفوا تدريجياً
الى سورية المجاورة ومنها الى بلاد ما بين النهرين القديمة • وقاموا هنا
بشن حروب ضد السومريين • كما قام العيلاميون من الشرق من
الأراضي الإيرانية بحروبهم أيضاً ضد السومريين • وقد ساندتهم بذلك
جيوش دولة ماري الواقعة بالقرب من الموقع الحالي لمدينة دير الزور
السورية • وفي النتيجة تم تحطيم بلاد سومر وأسر ابن سين آخر
ملوكها وهو من سلالة أور الثالثة من قبل جيوش دولة ماري وذلك
في عام ٢٠٠٧ ق م •

واستغل العموريون أسر ملك سلالة أور الثالثة ، فبدأوا
هجومهم على سومر وأخضعوا لسلطتهم كلياً • ومع ذلك لم تبدء
الثقافة السومرية ، بل أصبحت جزءاً لا يتجزأ من ثقافة البابليين
والآشوريين ومن خلالهم دخلت الى ثقافات الشعوب الأخرى واستمرت
حتى يومنا الحاضر •



الباب الثالث

سرغون الاول ودولته أكاد

انا هو شاروكين

الملك القاهر ، ملك أكاد

أمي كانت كاهنة وأبي لم اره

وأخو أبي يعيش في الجبال

(من قصة عن سرغون)

المدينة التي لم يبق لها أثر

لقد قدم في حينه لوكال - زاغيس حاكم الدويلات السومرية فكرة المصدر الإلهي للسلطة الملكية في المملكة العالمية الموحدة من الخليج الفارسي وحتى البحر الأبيض المتوسط . وسمى الحكام الأكاديون أنفسهم في محاولة لتطويع هذه الفكرة بسلوك « الدنيا الأربع » ، ومن أجل توطيد سلطتهم أخذوا يعطونها طابع المصدر السماوي ويشكلون جيوشاً كبيرة بالنسبة لتلك الأزمنة . وبالتالي أصبحت الفكرة المشؤومة عن المصدر الإلهي للسلطة الملكية والسيطرة على العالم أجمع متبناة من قبل ملوك وقيصرة عدة لشعوب أخرى . وفي كل حالة بما في ذلك مع ملك أكاد نلاحظ نهاية مؤسفة لمبدأ توحيد الشعوب بقوة السلاح وتشكيل الامبراطوريات الممزقة بالقصر . ويبين تاريخ مملكة أكاد ذلك بشكل واضح .

كان سرغون الأول مؤسس هذه المملكة ، الملك الوحيد الذي يحمل ثلاثة ألقاب فهو سرغون الأول والأقدم والأكادي . إن كل من هذه الألقاب الثلاثة يعكس جوهر فكرته بالضبط . وفي اللغة

الآشورية - البابلية (الأكادية) والتي تكلمت بها القبائل السامية في بلاد ما بين النهرين القديمة يلفظ اسمه شاروكين أي الملك الحقيقي الأصيل •

وخلافاً لما سبقه من حكام في بلاد ما بين النهرين ، بنى سرغون مدينة جديدة وهي أكاد وجعلها عاصمة له • وباسم هذه المدينة أصبحت تسمى البلاد بلاد أكاد • إن موقع مدينة أكاد غير معروف بالضبط ، إذ أنها دُمّرت إثر حصار ضربته عليها قبائل الكوتيين الإيرانية وهدمتها من أساسها • إلا أنهم يعتقدون أنها كانت تقع في نقطة أكبر تقارب لنهري دجلة والفرات وقريباً من مدينة سيبار السومرية •

ويفترض العلماء أن سرغون الأول لم يكن معروف الهوية ، وهو من أصل فقير عمل جنائياً في مدينة كيش التي كانت تقع الى جنوب العاصمة المرتقبة • ولكي يخفي منشأه «العامي» سمى سرغون الأول نفسه بالملك الحقيقي - شاروكين • و بإيعاز منه نشر الكتبة المؤلفون في القصر أسطورة عن منشأه الخير وعن السلطة التي وهبته إياها آلهة الحب والحرب عشتار (فينيرا - فينوس) ، ويعتقد العلماء أن هذا التصرف كان إحدى أقدم المحاولات في تاريخ الانسانية لتقديس سلطة المالك الحكومية ، وذلك بتكوين فكرة الدولة العالمية الكونية وتسمية سرغون الأول « ملك دول الدنيا الأربع » وإيكم ما تقوله الأسطورة المكتوبة بإيعاز من سرغون الأول ، لقد نشرت هذه الأسطورة في كتاب « أنا أكشف لك كلمة السر • الأدب البابلي والآشوري » •

أنا هو شاروكين ، الملك القاهر ، ملك أكاد

أمي كانت آكاهنة وأبي لم أره

وأخو أبي يعيش في الجبال
 مدينتي هي أنسويرانو التي تتوضع على ضفاف الفرات
 حملتني أمي الكاهنة وولدتني في السر
 وضعتني في صندوق من القصب وسدت منافذه بالقار
 ورمت بي في النهر بحيث لا أغرق
 وفاضت مياه النهر وحملتني الى أكي السقاء
 أكي السقاء انتشلني بالخطاف
 أكي السقاء رباني كابن له
 أكي السقا صنع مني جناً
 وعندما أصبحت جناً أحببني عشتار
 وتربعت على عرش الملكية في الرابعة والخمسين من عمري
 لقد امتلكت وقدت أناساً سود الشعر
 وسويت الجبال العظيمة ببلطات نحاسية
 لقد سعدت الجبال الشاهقة
 واجتزت الجبال المنخفضة
 وأغرقت البلد البحري ثلاث مرات
 وهزمت ديلمون أيضاً •

لقد بنيت الأسطورة عن سرغون الأول على أساس الخرافة
 السومرية عن عنان (يونان) والجنان (البستاني) شوكايتود • وترد
 شخصيات « الجنان والآلهة » في أسطورة غلغاميش حيث تتقدم الآلهة
 عشتار بجبهالجنان إينشولان

ومن هذه الأساطير تم حقن العهد القديم بصورة عن الطفل
 المنقذ في السلة والعائم في النهر ، حيث تصادف ذلك في قصة موسى

إذ ترتبط وإياه أساطير عن الملك الفارسي كبير وعن مؤسسي روما ريموس وريمولوس • فمثلا تقول الأسطورة عن ريموس وريمولوس بأنهما كانا توأمين رمي بهما في نهر تيمبر بأمر من الملك أموليا • ففجرتهما المياه الى الشاطئ ، وهناك التقى بهما الراعي فاوستول • وفيما بعد أصبح ريموس أول ملك لروما وأعطاهما اسمه •

إننا نصادف ذلك تقريبا في كتاب « الخروج » في العهد القديم • حيث يأتي الحديث عن ولادة موسى • إذ يقول الكتاب بأن امرأة ما ولدت ابناً وأخفته ثلاثة أشهر ، إلا أنها لم تستطع الاستمرار بذلك طويلا • فأخذت سلة من القصب ودهنتها بالقار ووضعت الطفل فيها وأبقتة على شاطئ النيل •

« وخرجت ابنة فرعون الى النهر لتغتسل ، بينما كانت وصيفاتها تتجولن على شاطئ النهر ، رأت هي السلة راسية بين قصب الزل فأرسلت أمتها لتجلبها لها » •

لقد شاء سرغون الأول أن تكتب هذه الأسطورة مع إسهاب أكثر لسيرة حياته على لوحاته الجدارية المتعددة • ونقل الكتابة فيما بعد هذه المخطوطات من النصب الجدارية الى الرقيمات الفخارية وحفظتها الأخيرة لكل الأجيال اللاحقة • وهكذا تناقلتها الأجيال فيما بينها حتى وصلت بإيعاز من الملك الآشوري آشور بانيبال الى مكتبته الشهيرة في مدينة نينوى لتصبح إحدى المكتشفات الأثرية للسنقيين في القرن التاسع عشر وفيما بعد فكت رموزها وترجمت فقد قيل فيها بأن سرغون الأول وضع في بلاد ما بين النهرين القديمة نظاماً موحداً للمقاييس والأوزان ونظم التجارة الداخلية والخارجية ، بسا في ذلك مع شبه الجزيرة العربية والهند ودول أخرى • كما أنه شدد في

استغلال العبيد والمشاعات وزاد الضرائب على مالكي العبيد ونبلاء المشاعات ، كما أنه بالإضافة لكل خلفائه وسع بناء أقنية الري ، والمواصلات في بلاد ما بين النهرين • وقد سميت إحدى هذه الأقنية والتي كانت تصل دجلة بالفرات بالقناة الملكية • كما بنى الملوك السرغونيون أبي من سلالة سرغون الأول مدناً جديدة ومعبداً ، وقصوراً ، واستخدم في هذه الحركة المعمارية آلاف العبيد والمشاعين وغيرهم •

لم يكن بمقدور أعضاء المشاعات العاملين في تلبية المتطلبات المادية أن يواصلوا الأشغال الخاصة بهم كما لم يستطيعوا دفع الضرائب المترتبة عليهم في وقتها ، مما عرضهم للعقوبات والإفلاس - مصادرة ما أنتجته أراضيهم • وكان عدد هؤلاء الناس يزداد شيئاً فشيئاً • ضمن هذه الظروف كان البعض منهم يعلن الاحتجاج والاضرابات ضد سلطة الملوك الأكاديين • ولكي يتسكن سرغون الأكادي من إخماد احتجاجات الجماهير الشعبية الواسعة ومن القيام بحملات توسعية اضطر إلى تأسيس جيش كبير - بمقاييس تلك الأزمنة - ومنظم ومسلح بشكل جيد • وبدأت هذه القوات القيام بحملات توسعية كبيرة ضد عدد من البلدان مثل : غابات الأرز (لبنان) ، وجبال الفضة (آسيا الصغرى) ، وعيلام (في مناطق جنوب إيران الحالي) وضد الدويلات الحاكمة في سورية ، لقد وصل سرغون الأقدم حتى الخليج الفارسي والبحر الأبيض المتوسط ، حيث كما كتب قام بغسل سلاحه •

وكتب الباحث الروسي ب توراييف : « إن هذه الانتصارات المدوخة التي جعلت سرغون حاكماً لدولة عالمية تفسر بتنظيمه الجيد لقواته المسلحة • فقد كان في إمرته مالا يزيد عن ٥٤٠٠٠ عسكرياً -

يوميًا عليه إطعامهم - أي أنه كان يملك في شخص هؤلاء الجنود جيشاً صغيراً محترفاً (دائماً) ، مدرباً تدريباً قالياً عالياً يمكن له أن يتحمل عبء تحقيق انتصار الكتاب الجمعة .

ولم تأتِ الانتصارات لسرغون بسهولة دائماً . فقد شكّل العيلاميون له هوماً وإحراجات كبيرة . حيث كانت الحروب معهم طويلة وشاقة وتكلفت بانتصارات متبادلة .

لم يكن هدف ريموش (٢٣١٣ - ٢٣٠٥ ق م) ابن وخليفة سرغون الأول توسيع مملكة أبيه بل الحفاظ على ما تمت السيطرة عليه . فقد أخذ ريموش انتفاضات عديدة في سومر وفي الدويلات الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط في آسيا الصغرى .

إلا أن الشيء الأكثر سرطانية له كانت المؤامرة التي دبرتها الأوساط العاملة في قصره والتي بات على إثرها ريموش قتيلاً . ويمتد أن المؤامرة قادها أخوه .

وثالث السرغونيين على العرش الأكادي كان مانيشتوسو ٢٣٠٥ - ٢٢٩١ ق م) ، الذي انتفضت ضده (٣٢) مدينة إيرانية ، وسحقت كل هذه الانتفاضات واستولى على أملاك كبيرة . وخلافاً لأسلافه لم يسيطر مانيشتوسو على أعدائه بقوة السلاح فقط ، بل وبعقد المصالحات واجتذاب شعوب مختلفة الى طرفه .

وبعد موت مانيشتوسو استلم نارامسين (٢٢٩٠ - ٢٢٥٤ ق م) حفيد سرغون الأول صولجان ملك أكاد . فقد بدأ حكمه بتوسيع حدود الدولة الأكادية على حساب الدويلات في سورية وعيلام والمدن

الواقعة في الجهة الجبلية شمالي أكاد • كما قام بحملات على الجزيرة العربية بهدف السيطرة على الطرق المؤدية الى الهند والتي سميت آنذاك بالموحا • فقد جلبوا من هناك الى أكاد التوابل المختلفة والذهب والأصناف الأصلية لأشجار ثمينة وكذلك العاج •

وكان لا بد من ولادة المقاومة والتصدي لدى الشعوب المنكسرة بسبب سياسة الدول الثانية في احتلال الدول واستعباد الشعوب الأخرى فقد أخذت هذه الشعوب برص الصنوف فيما بينها وبعقد اتحادات سرية وعلمية موجهة ضد الدولة الأكادية • وبالرغم من أن نارامسين تمكن من الانتصار عليهم إلا أن هذه الانتفاضات حضرت التربة لضعاف البلاد أمام العدو الخارجي • ولكن المواجهة مع أنها لم تكن من نصيب نارامسين بل من نصيب الملك الأكادي الأخير شار غينشاري (٢٢٥٣ - ٢٢٣٠ ق م) •

ومن بين أعداء الدولة الأكادية كان الكوتيون - ورد ذكرهم أعلاه - الذين حطموا أكاد في مرحلة حكم السلالة السرغونية • فقد وردت في النشيد الوطني السومري كلمات تدل على انعدام الرحمة لدى الكوتيين وقساوتهم وشراستهم :

البلاد في أيدي الأعداء القساة

والآلهة أخذت الى الأسر

والسكان بالتهم والضرائب أغرقت

والأقنية والسدود فتحت

ولم يعد نهر دجلة طريقاً للمواصلات

والأراضي لا تسقى

فالأراضي لا تعطي الحاصلات

ومنذ ذلك الوقت لم تعد هناك دولة أكاد * فقد قطنت تلك
البلاد فيما بعد الى جانب الأكاديين المتبقين قبائل العموريين ،الذين
سبق وتكلمنا عنهم فهم وباختلاطهم مع الأكاديين انجبوا شعباً جديداً
هو البابليين *



الباب الرابع

سر باب - ايلو (بايلو)

إذا أخذت بائعة النبيذ بدلا من الخبز

كقيمة للبيع فضة أو انها

احتالت على المشتري، فهي محكومة

بالعقاب : يجب رميها في الماء . . .

وإذا سمح بائع النبيذ للسكري

الشجار في محله ولم يجلبهم الى مركز حفظ النظام

فهو محكوم بالعقاب ، ويستوجب الحكم بالاعدام .

(مواد من مجموعة قوانين الملك البابلي حمورابي)

بابل هي بوابة الاله

كثيراً ما ترد في المراجع الأدبية والتاريخية وفي المؤلفات الموسيقية

لشعوب عدة كلمة « بابل » و « الضلال البابلي » و « برج بابل »

و « بلبلة بابل » وغيرها . إن الاهتمام عميق جداً وثابت بتاريخ الدولة

البابلية وعاصمتها مدينة بابل ، وكذلك بكيفية ظهورها ولماذا سميت

بهذا الاسم ومن عاش هناك ، وهذا ما سيكون مجالاً للبحث في هذا

الباب من الكتاب .

كما سبق لنا الحديث في الأبواب الأولى عن السومريين .

والأكاديين ، نعيد بأنه في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد اخترقت

حدود بلاد ما بين النهرين قبائل العموريين السامية . فقد قادوا فضلا

عنيفاً ضد الأكاديين والسومريين وفي نهاية المطاف انتصروا عليهما .

وفي النتيجة امتزجت هذه الشعوب الثلاثة ببعضها بعضاً وأفرزت شعباً موحداً ذو ثقافة واحدة مبنية على قاعدة الثقافتين السامية والسومرية . واختار الغزاة العموريون المدينة السومرية كادينغير (باب الإله) ، والمبنية في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد عاصمة لدولتهم واطلقوا عليها اسم بابل أي « باب إيلا » ومعناها باب الإله ، أي كما سماها السومريون في وقت ما . ومن تسمية المدينة أخذت الدولة البابلية تسميتها وكذلك الشعب البابلي . كما سميت السلالة التي حكمت الدولة البابلية منذ عام ١٨٩٤ وحتى عام ١٦٩٥ ق م بالسلالة العمورية ، التي أسسها الملك صوموأبوة ومن أشهر حكامها كان الملك حمورابي مؤلف مجموعة القوانين التي دخلت التاريخ باسم « شريعة حمورابي » .

وتقدم مجموعة قوانين حمورابي تصوراً واضحاً عن الوضع الحقوقي للبابليين وعن العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية في تلك المرحلة . لقد عثر على هذه المجموعة القانونية المنقوشة بالأحرف المسماة على مسلة سوداء من المرمر في المدينة الفارسية القديمة سوزي وذلك في كانون الثاني من عام ١٩٠٢ م بعد تنقيتات قام بها علماء الآثار الفرنسيون كما ترجمت الى الفرنسية في العام ذاته . ففي عهد حمورابي وجد التعامل بالنقد الذي دخلت في أساسه المعادن وخصوصاً الفضة . وكان نظام النقد حينها ستيانياً أي : الثلاثت يساوي ٦٠ ميناً والمينا تساوي ٦٠ شاقلا والشاقل يساوي ١٨٠ لي . كما كانت حقوق الاستدانة في عهد حمورابي متطورة جداً . فقد كفلت العيرة والديون بوثائق مسجلة على « الرقيعات الفخارية » ومنذ ذلك العهد وضعت على الديون والاستعارات نسبة من الفوائد؛

ومن لم يكن يلبي دفع ذلك كان يتحمل العقوبات ومصادرة أملاكه .
كذلك أعارت الشريعة هذه اهتماماً كبيراً بالعائلة الخلية الأولية
للمجتمع البابلي . لقد كانت العائلة البابية بشكل رئيسي ذات أم
واحدة فقط ومؤلفة من الزوج والزوجة والأطفال . وكان القران الذي
يسبقه الزواج يعقد رسمياً كما كان يدفع للخطيبة مهرها وهي تقدم
بالمثل العتية ويعقد القران بوجود عقد مسمى مثبت بالتواقيع والأختام
وبحضور الشهود . كما وجد عندهم الطلاق أيضاً كانت تسترد
العتية للزوجة وحين حصر الإرث كانت البنات تستلمن الجزء الأصغر .
وساد في بابل عصر العبودية ، حيث اعتبر العبد ملكاً خاصاً
لصاحبه وعلقت برقبته اشارة الوشم الخاصة بذلك .

ووفقاً لشريعة حمورابي كان الملك يأتي في رأس الدولة ، فهو
الذي امتلك السلطة من الرب وهو المالك الأكبر للاراضي ، إلا أنه
لم يكن صاحب البلاد فقط ، بل وذلك الانسان المهتم برعيته فهو الذي
صان البلاد ورعى الضعفاء والمشردين المعوزين . أما قضايا الخلاف
فكانت تحل جميعها في المحاكم ، التي ضمت المشرعين ودعي إليها الشهود
الذين كانوا يقدمون القسم (الحلفان) . ونصادف في شريعة حمورابي
عقوبات قاسية وحتى أحكاماً بالاعدام فمثلاً إذا تسبب الطبيب في تعطيل
أي عضو في جسم المريض ، كان يمكن له أن يفقد يده عقاباً على
ذلك .

وكان ينفذ الحكم بالاعدام بعدة أشكال إما بقطع الرأس أو
بالوأة حياً في التراب أو بالوضع على الخازوق .
وقد تحملت أعباء حفظ النظام والدفاع عن البلاد قوات نظامية ،

حيث استلم الجنود مقابل خدمتهم العسكرية أراض زراعية وكمية معينة من النقود • ولم يكن إلا للدولة الحق في مصادر هذه الأراضي لجرم شائن ارتكبه هذا الجندي • كما كان الملك حمورابي يقوم من وقت لآخر مستغلاً مهارة الدبلوماسي والقائد العسكري التي لديه بتشتيت منافسيه في بلاد ما بين النهرين فمنهم من يضعفهم ، وآخرين يحطهم وغيرهم ينهبهم •

ففي عهد الملك حمورابي ازداد الحكم تسلطاً مما انعكس على كل مجالات الحياة بما في ذلك الأيدولوجية والثقافية والدين • ويتضح ذلك جيداً من خلال مجموعة المؤلفات الأدبية بما فيها أسطورة خلق الكون والبشر •

وبودنا هنا أن نعرف القارئ على هذه الأسطورة وذلك لسببين اثنين هما : أولاً لتبيان كيف أن السلطة الفردية للملك البابلي توافقت مع السلطة الفردية للآلهة في بابل • وذلك بحافز من حمورابي ذاته كي يثبت بأن السلطة الفردية منحت له من الإله العظيم والقدير • مردوخ • بوثنياً لتوضيح أن أسطورة الخلق أخذها واضعوا التوراة عن البابليين ولذلك لا يمكن اعتبارها ذات مصدر إلهي بل هي قصة صاغها الكتبة التوراتيون • ففي الأسطورة يتصارع الإله البابلي مردوخ ضد الغولة تيامات آلهة الهيولى (الفراغ) • فالغولة تيامات تذكرنا بالتنين الكاسر ، الثعبان ، الحرباء • الخ •

يدل العلماء الى أن العبريين الذين أسروا في عهد نبوخذنصر الثاني (٦٠٤ - ٥٦٢ ق م) نسخوا هناك هذه الأسطورة ، إلا أن واضعي التوراة في ضمهم هذه الأسطورة الى العهد القديم استبدلوا

تسميات أبطالها فردوخ أصبح يهوا (*) وتيامات أصبحت
« ليفيافان (***)) ومن خلال التوراة يمكن عن طريق الآشوريين
المسيحيين أصبحت هذه الأسطورة معروفة لجميع المسيحيين في العالم .
كما استبدل اسم مردوخ بالقدّيس جرجس وتيامات بالتين .

فقد اصطدم بمثل هذه الحقيقة العالم الأمريكي إ. كيرا في حفل
ازاحة الستار عن أحد التماثيل في الولايات المتحدة الأمريكية حيث
كتب بهذا الصدد : « في الوقت الراهن يتقوض تأثير الدين تدريجياً
كلما أعيرت الاكتشافات العلمية أهمية أكبر .

إلا أنه منذ عدة سنوات مضت تم الاتفاق في إحدى الجامعات
الأمريكية على زيارة رئيس الجامعة العالم الشهير ووضع تمثال له في
باحة الجامعة وهو ما زال على قيد الحياة تمجيداً له . رفعت الستارة
عن النصب فإذا بالعالم يدوس بقدمه اليسرى حرباءه لا بأس ، فهل
فكر العالم المجيد عما يعني ذلك ؟

لا شك أن ذلك يرمز كيف أن العلم يسحق الجهل ، ولكن هل
عرف العالم بأنه يعتبر بذلك المتبني المباشر لإلليل ومردوخ وأشور

(*) يهوا : الاسم القديم لاله اليهود وقد ورد ذكره في العهد
القديم . وتمنع اليهودية المؤمنين من لفظ اسمه ويستعصون
عن تسميته باسم ((أدونيا)) أي ((سيدي)) . وتبقى كلمة
يهوا حتى الآن غير معروفة المعنى ويعتقد أنها من كلمة
((خود)) أي ((موجود)) ، وكان أحد آلهة القبيلة اليهودية
وفيما بعد أصبح الاله الوحيد لجميع البشر وخالق السموات
والأرض - المترجم .

(**) ليفيافان وهي تسمية يهودية للغول البحري الكبير -
- المترجم - .

ويهوا والقديس جرجس ؟ فلقد نظرت الى النصب وتبادرت الى ذهني مباشرة فكرة من سيكون المصارع الثاني مع التنين ؟ فلو استطعت الاجابة على هذا السؤال لتمكنت من تحديد اتجاه تطور الحضارة في الألف سنة القريية القادمة » •

ولقد جاء في الأسطورة بأنه في العهود المنسية عندما لم توجد الأرض ولا السماء بعد عندما لم تكن قد انفصلت اليابسة عن المياه ، وعندما لم تظهر في وسط المحيط اللامتناهي المفرق للكون بعد ولا جزيرة واحدة ، كان يوجد غولان فظيعان هما الأب الأول أبوس والأم الأولى تيامات كما ظهر كذلك في تلك الأزمنة المنسية مومو الكاسر والذي كان عائماً في الهيمولي الأبدية •

ففي الثروات العديمة الشكل للعواصف المائية أخذت تتوالد تدريجياً بذور الحياة وتتخذ شكل الالهة ، فظهر لآخمو ولاخامو وأنشار وكيشار وآنو وإنليل وإيا •

لقد حاولت الأمهات الأوائل فصل الجزء الرطب عن الصلب والهواء عن النار وتبيان الطريق للعواصف العديمة الشكل • لم يكن أبوس وتيامات ليرضيا بما فعله الالهة التي خلقها • ولم يرغباً بفقدان الهدوء الذي كان لديهم لذلك قررا إبادة كل الالهة • ولتحقيق فكرتهما الشريرة هذه أوكلا ذلك لخدامهما الأمين مومو • لكن الإله الحكيم إيا رأى كل ذلك وقرر الدفاع عن نفسه ، لذلك قذف أبوس بدعوات مميتة ، فقطع جسده الى أجزاء صغيرة نشرها في الفراغ المائي اللامتناهي ، كما أنه اكبل مومو المفترس وأفقدته قوته السحرية ، وعلى شفة المحيط الأيدي بني إيا بيته ودعا الإله الناري أنشار ذو الأربعة عيون والأربعة آذان ليحرس له أملاكه •

واتتاب تيامات غيظ عنيف عندما رأت كيف أن الفوضى حلت محل النظام والعواصف أخذت تنفصل الواحدة عن الأخرى ، فقررت إعدام جميع الالهة ودمج الصلب بالرطب والهواء بالنار مرة ثانية • فخلقت إحدى عشر غولا كاسراً كالشعابين ذات الألسنة الحادة والتنين المجنح ذو الأسنان التي لا ترحم ومخلوقات نصف إنسان ونصف عقارب والانسان - السمكة وكلاب برية متوحشة • لقد كانت أشلاء هذه الغيلان مملوءة بالسّم الى جانب الدم وقد وضعت تيامات في مقدمتهم كينغو وهو أشرسهم وأقساهم • والتقى الحدثان إذ طمأنته بإعلانها إياه زوجاً لها ووضعت مصير الكون في يديه • وخرج كينغو بلباس ملكي وسيفه بيده على رأس جيش عرمرم من الغيلان ولم يجرؤ أحد من الآلهة النظر في وجهه •

واجتمعت الآلهة في منزل الإله أنشار وأخذوا يتشاورون ممن منهم سيخرج لمواجهة تيامات وزوجها الجديد كينغو • ولم يوافق لا الإله أنشار ولا أنو الجبار ولا إيا الحكيم على الخروج لمواجهة قوى الفوضى والظلام ، حينها أعلن أصغر الآلهة مردوخ موافقته على مصارعة الأعداء الشرسين لينقذ إخوته الآلهة من الموت • ولكن مقابل ذلك يجب أن يعترفوا به ملكاً عليهم وألا يجادلوه أبداً •

وهكذا راح الآلهة السبع المقرورن لمصير العالم - يناقشون ما اقترحه عليهم مردوخ ، وبعد أن أكلوا الخبز الأبيض واحتسوا الخمرة الحلوة فانتشت رؤوسهم وفرحت قلوبهم ودون أي ندم تخلوا عن سلطتهم العليا أملاً بالتخلص من الأعداء المرعبين لذلك أعلنوا لمردوخ: « ستصبح ملكاً لنا ، وبسلطتك سيعلو من ستحبه وبها ستخضع من لم يكن مفيداً لك ، ولن يجرؤ أحد على نقض أوامرِكَ وحلوك • فأنقذنا

من تيامات الرهيبية ومن زوجها الكافر لنكون لك خدماً سميماً طائعاً
ونقدم لك الصولجان والتاج والسيادة » •

وبعد أن استلم مردوخ الساطة العليا من أيدي الآلهة لم يشوان
في تحقيق ما وعدهم به ، فتسلح بالسيف والرمح وعلق على خصره
القوس والنبال وأخذ بيده شبكة كبيرة وقفز الى العربة المجرورة
بأربعة أحصنة ذات الأسنان المليئة بالسم •

وقد أحاطت به ثمانية رياح هابطة من مختلف الاتجاهات ، وكان
الشرر يقدر من كل حركة تصدر عنه • ما أن رآه كينغو حتى سقط
رعباً وافرقت غيلانه التي خلقتها تيامات • إلا أن تيامات بذاتها لم
تخف منه فاستقبلت مردوخ بضربة غادرة وصدرت عنها اللعنات مرتعدة
فرائعها من شدة الكراهية المتوحشة • لم يتلبك مردوخ الشجاع ولم
يخفه ذلك فرفع يده ورمى الشبكة المنسوجة بذكاء على تيامات فقمرت
الأخيرة فاهما ظانة أنها ستبتله هو والعربة معاً ، إلا أن مردوخ تراجع
برشاقة ودفع بكل ما أوتي به من قوة ثمانية رياح شديدة الى حلقها
حيث ملأت جوفها للخال ، فثارت فيها عواصف هوجاء مزقت قلبها
وكبدها إرباً إرباً ، فراحت تختنق ولم تستطع أن تنبس بينت شفة •

واستغل مردوخ الوضع القائم فغرس الرمح في جسمها وداس
بقدمه على جسدها الميت الهامد ، ثم استل سيفه واتزع قلبها أما
جثة العولة الضخمة فقطعها الى نصفين كالسمكة الصفحية ، فحجب
بأحدهما المياه العليا ليفصلها عن المياه السفلى مكوناً بذلك الجندار
المستمر الفاصل لعالم السماء فاتحاً فيه ثغرات بسدادات ووضع عليها
حراسة مشددة يمنع بها هطول الأمطار وسقوط الثلج والبرد على
الأرض دون إذن منه •

وصنع مردوخ من النصف الثاني لجثة تيامات الأرض ذات الشكل شبه المستدير ورمى بها الى المياه السفلى التي أغرقت مملكة الإله الحكيم إيا • وبإزادة هذا الإله صنعت المفاتيح من ثروات الأرض والمياه المالحة التي غطت نصف الكرة الأرضية وامتدت الى اليابسة في أماكن عديدة صانعة بذلك الخليجان والجزر • وبين صفحة السماء وسطح الأرض في الفراغ اللامتناهي والمحزر من المياه البدائية هبت وفق إرادة مردوخ رياح هي ذاتها تلك الرياح التي مكنته من تقطيع جثة تيامات الى نصفين • كما زين مردوخ صفحة السماء باثنتي عشرة مجموعة نجمية كبيرة واهباً كلا منها ألفي سنة من الوجود كما كلف التوائم بالحراسة فيما بعد ينوب عنهم تيليتس حينذاك يكون أدقين منتظراً دوره •

ودعا الإله مردوخ الالهة سين « القمر » وشامش « الشمس » وقسم اليوم فيما بينهما ، ثم لبس الاله - الأب سين تاجاً بابوياً بلون أصفر شاحب وجعله يخرج الى السماء اكل ليلة ويضيئها بأشعة سحرية • وكان من الصعب رؤية تاجه خلال سبعة أيام وبعد اسبوع كان نصف التاج مرئي جيداً وفيما بعد النصف الآخر منه وفي نهاية الشهر التهب التاج كله بأشعة غير مرئية •

وفي كل صباح كان سين يلتجئ الى بيته في السماء وبدلاً عنه يرتفع في الأفق الشرقي الإله - الابن شامش ليقود النصف الثاني من اليوم طارداً الظلام ومخيفاً الجن والأرواح الشريرة • ونظراً لكون سطح الأرض متموجاً وفارغاً في بدايته فقد أراد له مردوخ فيما بعد أن تنمو عليه الأعشاب في السهوب كما أنه غرس الغابات على منحدرات الجبال وقصب الزل في المستنقعات والأحواض

كما نشر مردوخ مختلف أنواع الحيوانات في الجبال والوديان ، أما جده أنو فقد خلق الحيوانات ذات الريش التي راحت تضع أعشاشاً لها على أغصان الشجر والصخور المهجورة وأطلق الإله الحكيم إياها في التيارات البحرية ومجاري الأنهار عدداً هائلاً من الأسماك .

وبعد ذلك اتعمنت الأرض وامتلات بصخب الحياة ، ولم يكن كل ذلك ليرضي مردوخ واتبته فكرة عظيمة ، فقد أراد أن يخلق كائناً حياً يشبه الآلهة بكيانه وعقله . لقد قضى على كينغو الشرس زوج تيامات المهزومة وخلط دمه بالتراب وعجن منه الأناس الأوائل . إنهم بكل شيء يشبهون الآلهة إلا أنهم (أي البشر) أضعف منهم وفترة حياتهم محدودة ، فعندما يشيخون ما عليهم إلا أن ينزلوا حتى الأزل الى بلاد ما ، دون رجعة ، ويبقون في العالم تحت الأرض المقيت تاركين أولادهم وأحفادهم في خدمة الآلهة الخالد .

وهكذا عزيزنا القارئ كما ترى أن هذه الأسطورة تساعدك مرة أخرى للتأكد من أن فكر الإله الواحد هي من منشأ بابلي ، أما واضعوا التوراة فقد غيروا وفق آرائهم أسماء أبطال هذه الأسطورة البابلية القديمة التي تعود بدورها الى الأسطورة السومرية عن الإله إنليل والغولة تيامات .

لقد اتخذ الملك حمورابي إجراءات فعالة لتوحيد بلاد ما بين النهرين في دولة مركزية واحدة ولذلك استخدم كل إمكانياته بما فيها قوته العسكرية منطلقاً من مبدأ « فرق تسد » . ونتيجة لهذه السياسة أصبحت بعض الدول المنفردة التي لم تقبل الدخول في اتحادات مع غيرها فريسة لسياسة حمورابي الاحتلالية . فأخذ يحتل دويلة بعد أخرى مثل إيسين ، أوروك ، أور وغيرها . وكانت أطول حروب حمورابي

هي حربته ضد دولة عيلام . ولم يستطع حمورابي القضاء على ملك عيلام إلا في السنة الواحدة والثلاثين من حكمه وببعد ذلك أخضع كل جنوب بلاد ما بين النهرين الى الدولة البابلية .

وقد استند حمورابي في كل هذه الفترة الزمنية الى مساعده دولة ماري ، الواقعة الى الجنوب الشرقي في سورية الحالية . وبعد تحطيم خصومه (العيلاميين) أخذ حمورابي بالقضاء على الدواة الحليفة ماري وضماها الى بابل .

ولس سامسويلونا ابن حمورابي « ١٧٤٩ - ١٧١٢ ق م » بعد استلامه السلطة مباشرة إثر وفاة أبيه فقد أعداء حمورابي القدامى وفي مقدمتهم الملك العيلامي ريميسين .

لقد انتظر ريميسين المهزوم في عيلام ضربات قوات حمورابي طيلة هذه السنين تلك الساعة التي يموت فيها حمورابي وقد أتته فجمع قواته ثانية وشن الهجوم على بابل واحتل جزءها الجنوبي .

وبعد صراع عنيف تمكن سامسويلونا من طرد الغزاة ، ولكن البابليين لم تبقى لديهم قوة كافية لصد غزوات أخرى . وفي هذه المرة أعداء البابليين كان الحيثيون (١٥٩٥ - ١٥١٨ ق م) وكذلك القبائل الكاسية (وهم قبائل جبلية ايرانية) .

واستمر الصراع بين البابليين والكاسيين قرابة مئة وخمسة وخمسين سنة وانتهت بانتصار الكاسيين الذين راحوا يحكمون بابل .

واتبع ملكهم أغوما الأول (١٥٩٣ - ١٥٧٤ ق م) وأتباعه من بعده سياسة الملوك البابليين الاحتلالية واخضع احكمه مجموعة من الدول والشعوب .

وحكمت السلالة الكاسية في بابل قرابة ٥٥٠ سنة وخلال هذه

الفترة اتخذوا لغة ودين وعادات وتقاليد وثقافة البابليين لنفسهم
وامتزجوا بهم كلياً •

لقد جلبت مرحلة الخمسمائة سنة من حكم الكاسيين التأخر
السياسي والتراجع الحضاري للبابليين • لقد كانت الخسارة كبيرة
لدرجة أن بابل بقيت حتى بعد سقوط هذه السلالة سنين طويلة في
المقام الثاني لبلاد ما بين النهرين •

وفي القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد تنضوي بابل
تحت لواء الأملاك الآشورية ومد عام ٧٣٢ ق م أصبحت إحدى
مقاطعاتها •

ولم يكن للبابليين أن يستكينوا مثل هذه القسمة ، لذا فقد
انتفضوا غير مرة والسلاح في أيديهم ، إلا أن الجيش الآشوري
دمر بابل وأغرقها أخيراً سنة ٦٨٩ ق م بالمياه •

وبعد مضي تسع سنوات • أمر أسرحدون ابن الملك سنحاريب
(الذي دمر بابل) بإعادة بناء المدينة • وحكم الملوك الآشوريون
في بابل حتى عام ٦٢٦ ق م • إذ أنه في هذه السنة بدأ نابو بالاصار
الحاكم الآشوري لبابل العصيان ضد آشور بعد عقده تحالفاً مع
ميديا الواقعة في الجزء الشمالي الشرقي من إيران الحالية •

واستمرت الحرب ضد بلاد آشور حتى سنة ٦٠٥ ق م • وانهت
باتتصار الحلفين ، فقد دمر آشور واقتسما البلاد فيما بينهما •
وتابع ابن نابو بالاصار ، المعروف في التاريخ بالملك نابوخذنصار
الثاني (٦٠٤ - ٥٦٢ ق م) سياسة أبيه الاحتلالية واحتل سورية
والدولة اليهودية وفينيقيا ودولا أخرى • وفي مرحلة حكم أحفاد
نابوخذنصار اعتلى الحكم الفارسي الملك كير الثاني الذي تهيأ جيداً

للحرب ضد البابليين ، فدرس التجربة الحربية لديهم ورصد منظومة وسائل الدفاع في المدن البابلية • وفي عام ٥٣٩ ق م جرت معركة بين القوات الفارسية والقوات البابلية الى الشرق من بلاد ما بين النهرين ومدينة أوبيس الواقعة في المكان الذي يلتقي فيه الآن نهر ديالا بدجلة • وبدأت القوات الفارسية بعد أن حطمت البابليين هجوماً على عاصمتهم واخترقوها من إحدى بواباتها وسقطت بابل •

تلك هي إحدى الفرضيات عن احتلال بابل ، أما الفرضية الثانية فتقول بأن الفرس لم يتمكنوا من أخذها فلجؤوا لجرمياها الفرات التي قسمت المدينة الى قسمين واخترقوها من خلال المجرى المفرغ من الماء • وفي أثناء القتال استشهد والتصار ابن ملك بابل أما الملك نابوييد فوقع في الأسر •

وفي عام ٣٣١ ق م • احتل الكسندر المقدوني بابل وحولها الى عاصمة لامبراطوريته الكبرى • وفيما بعد ابتداءً من عام ٣١٢ ق م • راح أحد الدقق « ممثل القائد العسكري الكسندر المقدوني » والمعروف باسم سيليفك بنقل الجزء الأكبر من سكان بابل واسكنهم العاصمة الجديدة سيليفكيا (العاصمة الجديدة للسيليفكيين) • ومنذ ذلك الوقت أخذت مدينة بابل تنهار شيئاً فشيئاً وغادرها السكان حاملين معهم كل ما بامكانهم حمله حتى حجر البناء لاشادة مساكن جديدة • واستمرت الحياة حتى القرن الأول والثاني الميلاديين ومنذ ذلك التاريخ لم يبق أحد فيها •

وطوى النسيان تدريجياً موقع مدينة بابل • فقط وبعد بحث طويل الأمد نجح المنقبون الأثريون بالعثور عليه ، هناك حيث كانت

مدينة بابل موجودة الى زمن جداً قريب حيث شيدت في هذا المكان بعض القرى • فاذا وقفنا وظهرنا باتجاه بغداد الحالي ووجهنا نحو البصرة الموجودة في جنوب البلاد يمكن رؤية مجموعة من التلال على الضفة اليسرى للفرات • إن أول هذه التلال من الشمال يحمل اسم بابل فقد ضم قصر نبوخذنصار (وحدائق سمير أميد المعلقة) والى الجنوب من هذا التل يوجد تل باسم عربي جميل هو القصر ذلك التل الذي ضم في داخله قصور الملوك البابليين الآخرين • وإلى الجنوب من تل القصر يوجد تل عمران حيث اكتشف الباحثون فيه معبد إيساغيلو (البيت العالي) الذي شيد على شرف مردوخ الإله الأكبر في بابل ، وكذلك برج بابل (المبنى ذو الطوابق السبع) والمسماى إيتن عنكي (أي بيت تأسيس السماء والأرض) • وقد بني معبد إيساغيلو في البداية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد إبان حكم الملك زابومي أحد الملوك البابليين • وأحيط المعبد وأبنية أخرى بجدران حصينة تحمل اسم إيمغوريل وناميتي بيل • ومن هنا مرت طريق الى الجنوب نحو مدينة بارصينا واقتربت من معبد هذه المدينة إيزيدا « بيت الأبدية » وقد كرس هذا المعبد لابن الإله مردوخ نابو راعي الفن والعلم • والآن يحمل هذا التل اسم بيرزغود •

وقبالة تل عمران على الضفة الغربية لنهر الفرات كان يقع قصر ملكي آخر • وفيه بالضبط كما تروى المراجع التاريخية توفي الكسندر المقدوني • ولحماية القصر ضرب البناؤون حوله جدار حصين • وكانت تمر من خلال مدينة بابل عدة أقنية للري ومياه الشرب وأكبرها كانت قناة أراختو حيث كانت تقطع المدينة من الشمال الى الجنوب

وكانت طريقاً للنقل النهري واستعملت بكثافة إبان إشادة المدينة الجديدة إذ عن طريقها تم نقل الآلهة الرئيسية بالسفن •

لقد كانت بابل مدينة كبيرة فعلا حتى لعصرنا الحاضر ، وقد بينت التنقيبات الأثرية بأنه في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد أي في زمن حكم نبوخذنصار كانت مساحة المدينة تصل الى عشر كيلو مترات مربعة • وقد أحاطت بها ثلاثة جدران منيعة : الأول عرضه سبعة أمتار والثاني عرضه ٧ر٨ متراً والثالث وهو أضيقتها وعرضه ٣ر٣ متراً • كما كان للمدينة مئة بوابة و ٢٥٠ برجاً للحراسة ، ولم يكن ذلك كاف لتأمين دفاع متين ولأجل تقوية الدفاع تم بناء سور في شمال العاصمة وسمي (الجدار الميدي) ، أما حول المدينة فقد حفرت قناة عميقة وملئت بالمياه •

هيرودوت ((شيخ التاريخ)) عن بابل والبابليين

إن ما نعرفه عن بابل والبابليين الآن هو حصيلة ما تجمع لدينا من مصدرين اثنين ، أولهما : الرقيمتان الفخارية المسماة ، وثانيهما : إخباريات العلماء الاغريق القدماء وفي مقدمتهم وصف « شيخ التاريخ » هيرودوت •

فإذا كانت المعطيات الأولية معروفة جداً ، فإن إخباريات هيرودوت - شاهد العيان ، الذي زار بابل - هي غير معروفة للقراء عموماً • كما أن معلومات هذا الفيلسوف هامة جداً وموضوعية غير منحازة ودقيقة - لذلك نقدم للقراء مقتطفات من كتاب هيرودوت ليتعرفوا عليه ، إذ اننا أهملنا منه أجزاء قليلة فقط تلك التي لاتنطرق لالتاريخ البابلي لا من قريب ولا من بعيد •

لقد كتب هيرودوت يقول : « بأن البابليين قطنوا سهلاً واسعاً

مربع الشكل طول ضلعه ١٢٠ ستادي (★) لم تكن مدينة بابل أكبر المدن التي عرفتھا في بلاد ما بين النهرين فحسب بل وكانت أجملھا على الاطلاق • قبل كل شيء كانت المدينة محاطة بحفرة عميقة واسعة وملوئة بالماء ، ثم يليها سور عرضه ٥٠ منكباً ملكياً (★★) وارتفاعه ٢٠٠ منكباً • والمنكب الملكي أكبر بثلاثة أصابع من المنكب العادي •

وهنا يجب أن أتحدث عن التراب الذي رفع من الحفرة ، ماذا حل به ؟ وعن كيفية إشادة السور بمجرد البدء بالحفر كان التراب المنزوع من الحفرة يجبل وتتصنع منه القوالب (البلوك) • لقد كانوا يحضرون كميات كبيرة من هذه القوالب المجففة بشيھا في أفران خاصة • وكان البنائون يستعملون الاسفلت المسخن في بنائها على بعض كما كانوا يضعون حصيرة (★) من الخيزران بعد كل ثلاثين صفاً من الطوب المشوي • وقبل كل شيء كانوا بهذا الشكل يدعمون حافة الحفرة وفيما بعد السور ذاته • وفي أعلى السور على الأطراف أشادوا الشرفات وهي أبراج ذات طابق واحد يقف كل منها بمقابل آخر وفيما بين الأبراج بقيت مسافة تتسع لمرور أربعة خيول معاً • وكان لهذا السور مئة بوابة جميعها مصنوعة من النحاس (بما في ذلك قطع الاغلاق والارتاج) • كما توجد هناك مدينة أخرى تبعد عن بابل مسافة ثمانية أيام سيراً على الأقدام وتدعى إيس (عيس) حيث يمر بها نهر صغير بالاسم نفسه إيس ويصب هذا النهر في الفرات • تلکم

(*) كل واحد ستادي يساوي ١٥٠ - ١٩٠ متراً - المترجم •

(**) كل منكب ملكي يساوي نصف متر - المترجم

(*) شبيهة بما يعرف بالسياج حالياً - المترجم •

هو نهر عيس الذي يجرف بياهه كدر الاسفلت • ومن هنا كان يجر
الاسفلت لبناء سور مدينة بابل •

وبهذه الصورة تمت إشادة جميع أسوار بابل • والمدينة بحد
ذاتها كانت تتألف من قسمين ، يسر من خلالها نهر يدعى الفرات الذي
ينبع من أرمينيا • انه نهر كبير وعميق وسريع الجريان يصب في البحر
« الأحمر » (***) • ومن جانبي النهر كانت السور المائلة تصل لحد
النهر تماماً ثم يسير على طول الضفتين جدار مبني من الطوب المشوي •
أما المدينة ذاتها فكانت مؤلفة من بيوت ذات ثلاثة وأربعة اوايق مجمعة
الى بعضها بعضاً تتقاطع فيها شوارع مستقيمة مستدة بشكل مواز
وعمودي على مجرى النهر • وفتح في الجدار المحاذي للنهر بوابات
صغيرة بعدد الشوارع العمودية بالنسبة لمسار النهر • كذلك كانت
هذه البوابات الصغيرة مصنوعة من النحاس أيضاً وكانت تؤدي الى
النهر مباشرة • لقد كان السور الخارجي للمدينة يعتبر بمثابة الدرع
الحصين لها • أما السور الثاني فكان يمر من داخل الأول وعلى
ارتفاعه أقل منه قليلا ولكنه أضيق منه • وقد شيدت الأبنية في وسط
كل قسم من أقسام المدينة • ففي أحد الأقسام كان قد شيد القصر
الملكي المحاط بسور ضخّم وحصين ، أما في قسم آخر فكان معبد
زفيس بيل المقدس ذو البوابة النحاسية التي ما زالت موجودة حتى أيامنا
هذه • وكان قسم المعبد المقدس على شكل مربع طول ضلعه أكثر
من ٢ ستادي وفي وسط هذه القطعة المقدسة بني برج عال وضخم إلا

(***) كما جاء في النص الأصلي لهيرودوت - المترجم - •

اني أنقل ما كلمني عنه الكلدانيون بذاتهم ، بشغف كان يتمنى داري
 ابن غيستصبا الحصول على ذلك النصب ، إلا أنه لم يجرؤ على خطفه
 إطلاقاً • ولكن ابنه كسيركس استطاع خطفه بعد أن أمر بالموت
 على الكاهن الذي لم يسمح لأحد من النصب ونقله من مكانه • هكذا
 كان هذا المعبد مزداناً بالفأس الثمينة وكذلك القسم المقدس من المدينة
 حيث يوجد الكثير من الهدايا المقدسة المقدمة من شخصيات بارزة •
 لقد غيرت الملكة نيتوكريس حاكمة بلاد بابل اتجاه نهر الفرات
 الذي جرى سابقاً من خلال وسط المدينة ، حيث أنها أمرت بحفر قناة
 تمر من أعالي المدينة وهكذا أصبح النهر متعرج لدرجة أنه مثلاً كان
 يمر باحدى الضواحي في بلاد آشور ثلاث مرات (وتسمى الضاحية
 التي يمر بها الفرات ثلاث مرات باسم - أردريكا) • ولا يزال
 على المرء حتى الآن عند القيام برحلة من البحر السفلي الى بابل
 نحو الأسفل باتجاه جريان نهر الفرات المرور بمحاذاة هذه الضاحية
 ثلاث مرات خلال ثلاثة أيام • لقد كان هذا العمل أحد مآثر نيتوكريس
 وفيما بعد تم بأمر منها ردم سد على ضفتي النهر مدهش الضخامة
 والارتفاع وبعد ذلك أعطت أمراً بحفر بحيرة بنفس العمق في أعالي
 مدينة بابل لتجميع المياه الجوفية على مقربة من النهر ، لقد بلغ قطر
 هذا المجمع المائي ٤٢٠ ستادي • وأمرت الملكة باستعمال نواتج
 حفر البحيرة في ردم السد على النهر • وعندما أصبح الحوض جاهزاً
 أمرت بجلب الحجارة وإكساء حوافه • وهكذا قامت هذه الملكة بكلا
 العملين - جعلت النهر متعرجاً كثيراً وحولت كل الأماكن المحفورة
 الى مجمعات مائية - ليس لأن كثرة التعرجات تجعل النهر أكثر
 بطئاً في جريانه فحسب بل وكذلك لجعل الطريق النهري الى بابل

متعرجاً ، وأخيراً لاجبار الرحالة بعد إبحارهم في النهر على القيام
بالتفاف حول البحيرة عن طريق البر .

لقد تم تنفيذ هذه الأعمال في ذلك الجزء من البلاد الذي تمر
منه أكثر المرات وأقصر الطرق من ميديا . إن الهدف من هذه
الاجراءات هو خلق الصعوبات أمام الميدين في دخولهم البلاد عن
طريق العلاقات التجارية وعدم السماح لهم باستيضاح حال الأمور في
البلاد بدقة .

لقد بنت الملكة هذه المنشآت (في وجه الميدين) من التربة
المحفورة من المجمع المائي . بالإضافة لذلك فإنها استفادت من هذه
الأعمال لأغراض استثنائية أخرى . لقد كانت المدينة مكونة من نصفين
يعبرهما النهر . ففي عهد الملوك السابقين كان من أجل
الانتقال في المدينة من قسم لآخر يتم بواسطة المراكب
والسفن ولم يكن ذلك على ماأظن سهلاً . لقد اهتمت نيتوكريس بذلك
أيضاً وهاكم ما تركته للذكرى أيضاً بعد أن تم حفر المجمع المائي
للبحيرة ، فقد أمرت بقطع صخور كبيرة ، وبعد تحضير هذه الصخور
أمرت نيتوكريس بتحويل مجرى النهر كلياً الى المجمع ومع امتلاء
البحيرة كان المجرى القديم للنهر يجف تدريجياً ، بعد ذلك أعطت
نيتوكريس أوامرها بتحسين ضفتي النهر على طول محور المدينة ،
وكذلك المجاري المفتوحة من بوابات السور الى النهر وإكساء
ذلك بالطوب المشوي بذات الطريقة التي شيدت بها أسوار المدينة وبعد
ذلك وفي وسط المدينة تقريباً أمرت ببناء جسر من الصخور المقطعة
(وقد تم ربط هذه الصخور ببعضها بواسطة أحزمة من الحديد
والتوتياء) وكانوا في النهار يفرشون الجسر بالواح مربعة الشكل حيث

يسر البابليون عليها ليعبروا النهر وفي الليل كانوا يرفعونها ليقللوا من حركة المارة كي تخف أعمال الشغب والسرقعة . وبعد أن تم بناء الجسر وامتلأت البحيرة بالماء أصدرت الملكة أوامرها بإعادة الفرات من البحيرة الى مجراه القديم . وهكذا تحولت البحيرة الى مجمع مائي بالشكل الذي أريد له ، وتم بناء الجسر لسكان المدينة .

كما أمرت الملكة ببناء مدفن لها فوق البوابات في أكثر مناطق المدينة ازدحاماً بالسكان . (وكان يقع المدفن فوق البوابات تماماً) وحضرت عليه الكتابة التالية : « اذا رأى أي من الملوك البابليين الذين يأتوا من بعدي أنه بحاجة الى النقود فليفتح هذا المدفن وليأخذ من النقود قدر مايشاء . ولكن ألا يفتحه عبثاً دون حاجة اليها والأفضل من هذا وذاك ألا يفتح المدفن إطلاقاً » .

وبقي هذا المدفن دون مساس الى أن انتقلت السلطة الملكية الى يدي داري « داريوس » الذي فتح المدفن لكنه لم يلق أية نقود هناك فقد شاهد جثة الميت فقط وكتابة تقول : « لو لم تكن لهذه الدرجة من البخل لما فتحت مدفن الموتى » . تلكم مايتحدثون به عن هذه الملكة .

واقدم شن « كبير كورش » الحرب ضد ابن هذه المرأة « وكان يدعى مثل أبيه لاينيتون وكان ملكاً لآشور) وفي كل مرة يخرج فيها الملك المعظم الى الحملات كان يجب معه من البيت زاده من الخبز ولحم الضان وكذلك ماء من نهر خواسب النابع من مدينة سوس (النهر الوحيد الذي كان الملك يشرب من مياهه) فقد كانت تلحق بالملك دائماً أينما توجه مجموعة من العربات ذات الأربعة عجلات والمشدودة الى البغال محملة بالمياه المغلية من نهر خواسب في أوان فضية .

وعندما تحرك كير نحو بابل وحين وصوله نهر غيند الذي ينبع من جبال الماتين ويصب في نهر دجلة أراد كير أن يعبر هذا النهر (غيند) المستعمل في الملاحة النهرية • ومن العجالة في الأمر قفز أحد خيوله المقدسة البيضاء الى النهر ليعبره ، إلا أن مياهه ابتلعت هذا الفرس وأخذته في مجراها بعيداً ، حينها غضب كير على وقاحة هذا النهر غضباً شديداً وقطع على نفسه عهداً بأن يجعله صغيراً للدرجة ان النساء ستمكن من عبوره دون أن تبتل ركبهن • وتتجة لذلك الخطر المحدق أجل كير مؤقتاً حملته على بابل • فنشر قواته على ضفاف النهر بعد أن قسمها الى قسمين وطلب من جنوده تحديد مواقع ١٨٠ قناة مستقيمة كالسهم وبكافة الاتجاهات على كلا الطرفين ومؤدية الى النهر ، ثم وزع الجنود وأمر بالحفر • وتوفر اليد العاملة الكثيرة العدد تم انجاز ذلك العمل بسرعة ومع هذا استمر العمل طوال الصيف كله وبذلك قهر كير نهر غيند مقسماً إياه الى ٣٦٠ قناة •

وعندما حل الربيع ثانية قام الملك بحملته على بابل من جديدخرج البابليون من المدينة بقواتهم وانتظروا كير • وحينما اقترب الملك من المدينة انقض البابليون عليهم ودارت بينهم معركة طاحنة ، اندحر على إثرها البابليون والتجؤوا الى المدينة • لقد كان البابليون يعلمون قبل ذلك بوقت كاف بأن كير الآن لن يقف مكتوف الأيدي : لقد رأوا بأن هذا الملك الفارسي يحارب شعباً بعد الآخر ، لذلك تمونوا بالمواد الغذائية بكميات كبيرة تكفيهم لسنوات عديدة ولم يعيروا الانتباه لأي نوع من الحصار • وفي هذه الأثناء تبين كير ان الأمر في وضع صعب جداً ، إذ أنه قد مرت فترة طويلة من الزمن ولم

يجد الحصار أي تقع ، حينها قرر كبير وضع قسم من قواته في ذلك المكان الذي يدخل النهر من خلاله الى المدينة ، أما القسم الآخر فوضعه في أسفل المجرى عند مخرج النهر من المدينة ثم أصدر أوامره الى الجنود : بأنه عندما يروا بأن المياه قد قلت واصبح خوضها ممكناً يجب أن يمشوا مع المجرى الى أن يدخلوا المدينة أما هو فتراجع مع قسم من القوات غير النظامية (المنسقة) وحين وصوله الى المجمع المائي الآنف الذكر عمل بالنهر تقريباً ماقامت به الملكة البابلية في حينها ، لقد حول مجرى النهر بواسطة القناة المحفورة سابقاً الى البحيرة كانت هى المجمع المائي وبهذه الصورة أصبح المجرى القديم للنهر ممكن الخوض • وبعد أن انخفض مستوى المياه في النهر كثيراً إذ أنها لم تصل الركبة دخل الفرس الى بابل عن طريق هذا المجرى •

لو أن البابليين علموا سلفاً بحيل كبير أو أنهم لاحظوا أفعاله في حينها ، طبعاً لما سمحوا للفرس بالاختراق الى المدينة فحسب ، بل أبادوا حتماً العدو بشكل كامل • • إذ انه كان بمقدورهم إغلاق كل البوابات المؤدية الى مجرى النهر وبمحاصرة الفرس من جانبي النهر كان يمكن إيقاعهم في الشرك حتماً • إلا ان الفرس في هذه الأثناء كانوا قد هاجموا بابل فجأة • لقد كانت مدينة بابل كبيرة جداً بحيث أن سكانها المحليين الساكنين في مركز المدينة لم يعلموا بأن العدو قد احتل ضواحي مدينتهم • في تلك الأثناء وبمناسبة العيد كانوا يرقصون ويرحون الى أن علموا بوضعهم المزري وهكذا تم الاستيلاء للمرة الأولى على بابل •

كم هي غنية بلاد بابل ، أستطيع تبيان ذلك بوضوح من خلال أمثلة متعددة ولكنني سأكتفي بالمثل الآتي • لقد كانت البلاد الواقعة

تحت سلطة الملك كبير بأكمها بالإضافة لعادة الهبة ملزمة بإعالة الملك وقواته .

لقد كانت الوكالة التي سماها الفرس بالطغيان من أغنى المهن في بابل على الاطلاق فقد كان الوكيل (★) الذي قدم له الملك هذا المجال في الادارة يجمع كل يوم كثيراً من الفضة . كان يربي عدداً كبيراً من الكلاب الهندية الأصل والتي تخصص لاطعامها أربع مجتمعات سكانية تعيش في السهل حيث كانت تعفى على إثر ذلك من بقية الأعمال . هكذا كان سلطان بلاد بابل ثرياً جداً .

لقد كانت بلاد بابل مجزأة بالأقنية كلها . وكانت أكبر هذه الأقنية تستعمل في الملاحة باتجاه جنوب غرب البلاد إذ كانت تجري من نهر الفرات وتصب في نهر دجلة الذي تربعت عليه مدينة نين . وعلى علمي أن هذه الأرض تنتج من بين كل بلدان المعمورة أطيب ثمار الديمترا (★) (آلهة الخصوبة) ، وعلى العكس من ذلك الأشجار المثمرة حيث أنها لا تنمو هناك إطلاقاً ، لا أشجار التين ولا الكرز ولا ينمو حتى الزيتون . أما ثمار الديمترا فإن الأرض تنتجها بغزارة عالية فالمحصول يصل الى مائتي ضعف وفي السنوات الجيدة الى ثلاثمائة ضعف أما أوراق القمح والشعير فيصل عرضها الى أربع أصابع لعرض أربع أصابع وكذلك يصل ارتفاع السمس إلى الأشجار العالية ، كل ذلك أعرفه جيداً لكنني لن أتحدث عنه .

أنا أعلم كم سيكون حديثي عن محاصيل الحبوب مدهشاً للذين

(*) ما يقابل رجل البوليس حالياً - المترجم

(*) صنف من البطيخ يتميز بنكهة خاصة وحلاوة زائدة - المترجم

لم يكونوا مرة ما في بابل ، إن البابليين لا يستعملون أبداً زيت الزيتون فهم يستعملون زيت السمسم فقط • تنمو أشجار النخيل هناك في كل مكان من السهول وهي في غالبيتها مشمرة كما كانوا يصنعون من القمح الرومي الخبز والخمر والدبس • ويزرع البابليون النخيل بنفس الطريقة التي يزرعون بها أشجار التين •

أما لباس البابليين فاليكم كيف يرتدي البابلي على جسده جلباباً من الكتان يصل حتى قدميه وفوقه آخر من الصوف ثم يرمي فوقه رداءً أبيضاً رقيقاً • أما حذاءه فكان يشبه نعلا بيوتياً • كان البابليون يعتقدون رباطاً على رؤوسهم ذوات الشعر المترسل الطويل ، ويدهنون كل جسمهم بالراتنج ، كما كان كل بابلي يلبس خاتماً ويحمل بيده عكازاً مصنوعاً بشكل فني حفر عليه شكل تفاحة أو وردة أو نسراً أو ما شابه ذلك وكان من غير الدارج حمل عكازاً غير محفورة عليه صورة ما •

هكذا كان الشكل الخارجي للبابليين أما عن العادات والتقاليد فاليكم ما سأرويه الآن •

وأكثر العادات عقلانية لديهم — وعلى حد علمي وجدت لدى شعوب أخرى — هي العادة التالية : في يوم محدد من أيام السنة كانوا يقومون في كل قرية بما يلي : يدعون كل الفتيات اللواتي بلغن سن الزواج يجمعونهن في ساحة واحدة ثم يحطن بهن الشبان ويأخذ المنادي بعرض كل فتاة أولاً أجمل الفتيات على الإطلاق يبدأ بأجملهن ، إذ كانت تعرض أولاً أجمل الفتيات على الإطلاق وعندما يتم بيعها بتقود كثيرة يأتي دور من تليها بالجمال (أكانت الفتيات تزف للزواج بيعاً) ، فكان الشبان البابليون الأغنياء يرفعون

بالمزاد ثمن الفتيات كثيرا ليحصلوا على أجملهن ، أما الشبان المنحدرون من عامة الشعب الذين لم يتمنوا الجمال بشيء فكانوا يحصلون على الفتيات غير الجميلات بالإضافة لدفع النقود . وبعد أن يتم بيع الجيلات يأمر المنادي بعرض الفتيات عديمة الجمال بأقل ثمن للزواج . وهكذا لم يكن للمرء أن يزوج ابنته كيفما شاء كما لم يسمح بأخذ الفتاة الى بيت الزوجة دون وجود كفيل ، و فقط عندما كان الكفيل يقرر أن الشاب شاري الفتاة يرغب بالعيش معها فعلا حينذاك كان يسمح له باصطحابها الى بيت الزوجة . وعندما كان لا يتم الاتفاق بين الشاب والفتاة كانت النقود ترد الى أصحابها قانوناً . خلاصة القول كان الشبان يقدون من القرى المجاورة لشراء زوجات لهم . كان البابليون يكفنون موتاهم بالنحاس أما مراسيم الدفن لديهم فكانت واحدة كما هي لدى المصريين القدماء .

أما أقبح العادات لدى البابليين فكانت أنه لكل امرأة بابلية الحق بأن تجلس مرة واحدة في حياتها في معبد أفروديت وتقدم جسدها مقابل النقود لكل غريب غابر . وكثير من النساء اللواتي يفتخرن بغناهن أكن يعتبرن من غير المناسب لهن الاختلاط بجموع النساء الأخريات ، فكن يأتين في عربات مغلقة يرافقهن جمع من الخدم وتنزلن بمحاذاة المعبد . أما غالبية النساء كانت تتصرف كما يلي : مجاميع من النساء تجلس في ساحة معبد أفروديت حيث كن يربطن الأشرطة على رؤوسهن ، بعضهن يدخل وبعضهن يخرج ، وكانت الأروقة المستقيمة والموزعة باتجاهات مختلفة تفصل تجمع النساء المنتظرات كما كان العابرون يسرون في هذه الأروقة ليختار كل منهم لنفسه امرأة .

وكانت المرأة الجالسة في المعبد لا تستطيع العودة الى البيت ما لم يرم أحد العابرين لها بقطعة من النقود الى طرف ثوبها ثم يتصل بها خلف أروقة المعبد المقدس . وعندما يرمي لها النقود كان عليه أن يقول لها : « أدعوك الى خدمة الآلهة ميليت » إذ كان الآشوريون يطلقون اسم ميليت على الآلهة أفردويت . وكان الدفع يمكن أن يتم بأقل النقود ولم يكن يسمح للنساء برفضها حيث أن هذه النقود اكانت مقدسة وعلى المرأة أن تلحق بمن رمى لها بالنقود دون أي تدمير وبعد الانتهاء من تقديم الواجب المقدس للآلهة اكان يمكن لها أن تذهب الى البيت . فالجماليات والرشيقات منهن كن يخرجن الى البيت بسرعة وبغير الجميلات ، ينتظرن طويلا حتى يتمكن من تنفيذ هذه العادة ، أما الأخريات فكن يبقين في المعبد ثلاث الى أربع سنوات .

هكذا كانت العادات لدى البابليين . بين هؤلاء البابليين يوجد ثلاث قبائل تتغذى على السمك حصراً . كانوا يقددون السمك المصطاد ثم يضعونه في حجر الرحي ويطحنونه بالمدق بعد ذلك ينخلونه على منخل من الشاش ويخلطونه بالعجين المحضر مسبقاً ثم يخبزونه » .

ويكتب هيرودوت فيما بعد بأن : « البابليين وبقية بلاد آشور كانوا يدفعون ألف طالاتاً من الفضة لشراء خمسمئة فتى مخصياً .

ففي أثناء حملة الاسطول الفارسي على جزيرة ساموس فام البابليون بانتفاضة محكمة التنظيم إبان حكم المجوسي ومؤامرة السبعة وطوال هذه الفترة العتمة كان البابليون يتحضرون للحصار وقاموا بعد ذلك كما أعتقد سراً .

وعند العلم بالاتفاضة زج الملك الفارسي بكل قواته ضد
البابليين ، وعند اقترابه من مدينة بابل لجأ الملك الى فرض الحصار
عليها • أما البابليون فلم يقلقهم الحصار أبداً ، فكانوا يقفون على
أسنان السور ويصرخون هازئين متصنعين بكلمات مهينة للملك الفارسي
وقواته ، أحدهم قال : أيها الفرس لماذا أتمت جالسين هنا دون أي
عمل ، عاطلين باطلين ؟ انقلعوا الى بيوتكم • لن تأخذوا مدينتنا إلا
عندما يضع النغل مهراً « هكذا نادى أحد البابليين بكل ثقة لأن
النغل لا يضع مهراً أبداً •

لقد مر على ذلك عام كامل وسبعة شهور ووضجر الملك داري
(داريوس) الذي جاء بعد كير (كورش) وكذلك قواته من عدم
تمكنه من احتلال بابل بالرغم من استخدامهم لكافة أشكال المكر

وبالمناسبة هذه لجأ الملك الى الحيلة ، التي كاد كير أن يحتل
بابل إلا أن البابليين قاموا بحراسة يقظة دائمة ولم يستطيع الملك من
خداعهم • وأخيراً ، وفي الشهر العشرين من الحصار لاحت زووير -
وهو أحد القادة العسكريين لدى داري - فكرة مدهشة • لقد
وضعت إحدى نغاله مهراً وعندما أعلموا زووير بذلك ، لم يكن ليرغب
بتصديق النبأ ، ولما رأى المهر بأم عينه ، منع كل الذين رأوه من التكام
عن ذلك وأخذ يفكر بخدعة ما • لقد كان يفكر بما قاله البابلي منذ
الأيام الأولى للحصار ، بأن احتلال المدينة سيتم فقط عندما يضع
النغل مهراً • وفكر زووير بأنه الآن بالضبط حان الوقت وفق هذا
التنبؤ أن تقع مدينة بابل : إذ أن البابلي قد نطق بنبوءه هذه بايحاء
إلهي وكذلك عنده أيضاً « بارادة إلهية » وضع النغل مهراً • وهكذا

قرر زوبير بأن بابل من الآن فصاعداً مهددة بالدمار • فذهب الى داري وسأله هل هو من الأهمية احتلال بابل وعندما أكد له داري أهمية ذلك راح زوبير يفكر كيف له تحقيق هذه المأثرة وتسليم المدينة الى يدي داري ، إذ أن الفرس يمجدون قبل كل شيء مثل هذه المآثر الشجاعة • لقد اقتنع زوبير بأنه يستطيع تحقيق هذا الهدف بطريقة واحدة فقط وهي بالضبط أن يشوه نفسه ويفر الى الأعداء • حينها وبكل قلب بارد شوه نفسه بشكل فظيع : فلقد قطع أنفه وأذنيه وقص شعره بلا انتظام وضرب جسمه بالسياط ووقف امام داري • أما داري فقد اعتراه الذعر عندما شاهد هذا الرجل المحترم مشوهاً بذلك الشكل ، فقفز الملك من عرشه وصرخ سائلاً من ولماذا شوهه بهذا الشكل • فأجاب زوبير : « لا يوجد من دونك رجل في الدنيا له السلطة بأن يتصرف معي بهذه الطريقة لم يفعل ذلك أحد يا صاحب السمو ، أنا الذي شوهت نفسي بنفسي ، لأنه من الآن فصاعداً أنا الذي سأتعالى على الفرس فقط » • ورد الملك عليه قائلاً : « أيا تعيس الحظ ، أنت تحاول تجميل فعلتك الشنيعة هذه مؤكداً بذلك بأنك بفضاعة شوهت نفسك من أجل المحاصرين ، ولكن يا غبي ، هل سيستسلم الأعداء نزولاً لما فعلته بنفسك من تشويه ؟ ألم تقصد صوابك بعد لما فطعت بنفسك ؟ » • ثم أجاب زوبير على تساؤلات الملك قائلاً : « لو بحث لك بما أفكر به ، لما سمحت لي بأن أفعل ما فعلته بنفسي لذلك تصرفت بهذا الشكل بمسئولية خاصة • وهكذا إذا أنت لم تبخل علينا بالمساعدة سنأخذ بابل • أنا منذ هذه الساعة سأهرب الى المدينة وسأشرح لهم بأنك أنت الذي شوهتني بهذا الشكل وأظن أنهم سيصدقونني وسيضعونني رئيساً لقواتهم • أما أنت فستضع في اليوم

العاشر من فراري عند بوابات سميرأמיד ألف إنسان من قواتك التي لا يهتك فقدانها •

وفي اليوم السابع بعد ذلك ضع ألفي رجلاً آخرين على ما يدعى ببوابات نينا ، ثم عليك الانتظار لمدة عشرين يوماً لترسل بعد ذلك أربعة آلاف إنسان عند بوابات كلدو • ويجب ألا تحصل تلك القوات أي سلاح سوى الخناجر لأن الخناجر إذا فقدت ليس لها أهمية وأخيراً وبعد عشرين يوماً آخر عليك إصدار أوامرك لما تبقى من القوات جميعاً لاقتحام الأسوار من جميع الجهات • أما الفرس فيجب أن تضعهم أمام بوابات بيل وكيسي • ولا أشك أبداً أنني بذلك سأحقق ما أثر عظيمة • إذ أن البابليين سيثقون بي لدرجة أنهم لا يسلمونني الدفاع عن المدينة كلها فحسب بل وكذلك مفاتيح البوابات جميعاً - حينها سيكون كما علي ، كذلك على الفرس جميعاً اتمام المهمة حتى النهاية » •

بعد ذلك انطلق زوبير هارباً نحو بوابات بابل ناظراً خلفه باستمرار وكأنه فار حقيقي ، ولما لاحظته الحراس الواقفين فوق الأبراج نزلوا للأسفل مباشرة وفتحوا مصراعي البوابات قليلاً وسألوه من يكون ولماذا قدم • فأجاب بأنه زوبير ويريد الوقوف الى جانبهم ولما سمع البوابون ذلك فتحوا له الباب واقتادوه الى قادتهم وعندما أصبح زوبير أمام هؤلاء القادة راح يتضرع ويشتكي معلناً بأن التشويه الذي في واقع الحال جلبه لنفسه بنفسه انه من صنع الملك داري نه لأنه قدم نصيحة بفك الحصار وسحب القوات حيث لا توجد لدى الملك إمكانية احتلال المدينة « والآن - استطرد قائلاً -

جلبت لكم الخبر ولداري وقواته الموت المحتم • سيدفع الملك مقابل هذه التشويبات ثمناً غالياً • إنني أعرف كل ما يخبئه من أفكار حيل •

هكذا تكلم زوبير أما البابليون الذين رأوا ذلك الرجل الوقور مبتور الأنف ومقطوع الأذنين وتغطي جسده آثار الجلد المدماة من ضرب الشياطين ، وثقوا كلياً أنه يتكلم الحقيقة وأنه جاء إليهم كصديق وحليف • لقد كانوا مستعدين أن يأتمنوه في كل ما يطلب لنفسه فرقة من القوات ولما تسلمها راح ينشط وفق الاتفاق الذي عقد مع داري • ففي اليوم العاشر قاد زوبير فرقته البابلية وحاصر الألف جندي الذين أمر داري بوضعهم في المرة الأولى وأبادهم جميعاً • أما البابليون فوثقوا تماماً بأن كلمة الفارسي لا تنفصم عن أفعاله ، فسروا منه كثيراً وأصبحوا مستعدين لسماعه تماماً • حينذاك انتظر زوبير المدة المشروطة الأخرى وقاد فرقته المنتقاة من البابليين ثائبة وانتصر على الألفين محارب من طرف داري •

ونتيجة لهذه المأثرة الثانية راح البابليون يثنون عليه المديح وأصبح اسمه على كل شفة ولسان • أما زوبير بعد انتظاره للفترة المحددة قاد فرقته الى المكان المعهود وحاصر القوات الفارسية مرة أخرى وأباد أربعة آلاف إنسان • والآن وبعد مأثرة كهذه ، حصل زوبير على مراده ، فلقد عين قائداً عسكرياً عاماً وأمراً للقلعة بكاملها • آتتد أمر داري - وفق ما اشترط عليه - قواته باقتحام أسوار المدينة ، وانسجرت حينها مباشرة نية زوبير الدفينة • انطلق البابليون يصدون هجوم قوات داري على أسوار المدينة ، أما زوبير ذهب وفتح بوابات بيل وكيسي واندفع الفرس الى داخل القلعة • وشاهد قسم من

البابليين ما يجري وراحوا يختبئون في معبد زفيس بيل • أما الباقي فلم يدر بذلك فظلوا في أماكنهم حتى علموا بالخيانة •

هكذا احتلت مدينة بابل في المرة الثانية • وباحتلال بابل أمر داري قبل كل شيء بهدم الأسوار وكل البوابات وذلك ما لم يفعله كير عندما احتل لأول مرة مدينة بابل • وبعد ذلك أمر بصب ثلاثة آلاف شخص من مشاهير المدينة • وسح لبقية الناس بالعيش فيها • ولتوفير الزوجات للبابليين ليتكاثروا وينجبوا أجيالا أخرى (حيث أن البابليين قتلوا زوجاتهم ليقننوا في المواد الغذائية المخزنة) قام داري بما يلي : فقد أمر القبائل المجاورة بأن ترسل نساءها الى بابل • فقد طلب من كل قبيلة عدداً معيناً من النساء حيث بلغ مجموع ما جلب الى بابل ما يقارب خمسين ألفاً من النساء • ومن هاتيك النساء جاءت الأجيال الجديدة للبابليين •

وحسب رأي داري أنه لم يأت أحد لا من قبل ولا من بعد يتصف بالحدافة التي اتصف بها زويرير الأكبر (الذي لا يستطيع أحد من الفرس أن يقارن نفسه به) • أما داري — كما يروى — فقد تحدث أنه كان يفضل أن يرى زويرير دون هذه التشويهات على أن يحتل عشرين بابل أخرى • فلقد أحاط الملك زويرير بتقدير عظيم ، إذ كان يرسل له كل سنة الهدايا التي تعتبر في بلاد فارس مشرفة جداً وكرمه بتشريفات أخرى • لقد كان لزويرير ولد اسمه ميفاباذ قاد الفرس في حروب في بلاد مصر ضد الاثينيين وحلفائهم » •

هكذا كتب « شيخ التاريخ » العالم الأغرقي هيرودوت عن مدينة بابل وعن سكانها وعاداتهم وتقاليدهم •

عمقت رواية هيرودوت معارفنا عن البابليين ومدنيتهم («بوابات الالهة» الشهيرة) كما أنها وضحت معطيات الآثرين والعلماء الذين رمموا أبنية هذه المدينة مستندين غالباً على الأبحاث الأثرية وأحياناً مكملين استنتاجاتهم بتصورات موضوعية غنية • ويقدم كل ذلك — جملة وتفصيلاً — إمكانية الحصول على لوحة أكثر استكمالاً لأقدم مدينة في التاريخ •

حداائق نبوخذنصر المعلقة وزوجناه امينا وسمير اميدا

من لم يسمع أو لم يقرأ عن عجائب الدنيا السبع ؟ وتدعى إحدى هذه العجائب حداائق سمير أميدا المعلقة التي يعرفونها إما كملكة لبابل أو كزوجة لملك نبوخذنصر • أما الواقع فهو غير ذلك تماماً • ففي عام ٦٠٥ ق.م دمر كل من كياكسر ملك ميديا و نابو بالاصار ملك بابل دولة آشور وفيما بعد اتفقا على توطيد تحالفهما العسكري قدر الامكان وجعله أكثر استقراراً ومتانة وديمومة • ومن أجل تحقيق هذه الغاية قرر كلا الملكين ربط علاقتهما السياسية والعسكرية والدبلوماسية بصلات قرابة زوجية لولديهما (أميتا ابنة الملك كياكسر ونبوخذنصر ابن الملك نابو بالاصر وبعد ان تم الزواج انتقلت أميتا الى بابل عاصمة الدولة البابلية • وفيما بعد أخذت تشتاق لموطنها بشدة الى مياه أنهاره الباردة المتدفقة العذبة وجباله وغاباته الظليلة • وعندما أصبح نبوخذنصر بعد موت أبيه ملكاً لبابل علم بنسنتالجميا (★) زوجته العزيزة فحاول التفريغ عنها بالهدايا والأعياد وحفلات الاستقبال • وفي يوم من الأيام خطرت بباله فكرة ايجاد مرج شبيهه بالذي كان عند أمينا

(*) مرض نفسي سببه الشوق والحنين الى الوطن — المترجم

في الوطن • فأمر باستدعاء كبير البنائين والمهندسين في مسلكته وطلب إليه البدء بأسرع وقت ببناء « ميديا الصغرى » في بابل • وفعلاً تم البدء بالسرعة الكلية بأعمال بناء مشروع « ميديا الصغرى » التي عرفت بالتاريخ كإحدى عجائب الدنيا السبع باسم جنائن سمير آميدا أو حدائق سمير آميدا المعلقة •

وبلغت المساحة العامة لهذه الحدائق - ٢٠٠٠ متراً مربعاً تقريباً • وكانت تتألف هذه الحدائق من أربع مدرجات ، رفعت على دعائم (أعمدة) طول محيطها الدائري ٧٠ سم وتباعدت عن بعضها البعض لمسافة مترين • لقد وضعت هذه المدرجات على تل اصطناعي • كما ردم كل مدرج منها بطبقة سميكة من التربة الخصبة وغرس فيها مختلف أنواع الأشجار التي وفرت الجو الرطب والسكينة • وفي أعلى هذا المشروع تم بناء مسكن ، كجناح خاص يمكن لأميثا أن تستريح فيه وتتأمل منه المرج المحيط بها •

كما بنى على المدرج الأخير للحدائق برج حيث وضعت فيها آلات لجبر المياه اللازمة لري مازرع من أزهار وأشجار • وكانت تجر المياه من نهر الفرات وكى لا تتسرب من المدرجات وضع تحت طبقة التربة الزراعية صفيحة من الرصاص •

فقد كتب بيرس المؤرخ البابلي بيروس ، بأن الملك نبوخذنصر بنى مرتفعات صخرية وأعطائها شكل الجبال وغرس فيها مختلف أنواع الأشجار مكوناً بذلك ما يشبه حدائق معلقة وذلك كي لا تضجر زوجته التي نشأت في جبال ميديا ولا تتوق إلى طبيعة بلادها الأصلية •

ولم تكن حدائق نبوخذنصر وأمينتا المعلقة ، منشأة معزولة،
 وجب ارتيادها بشكل رسمي وخاص بل كانت جزءاً من مجموعة القصر
 ولذلك يجب النظر إليها كاستمرارية للمجموعة المعمارية لمجمل القصر
 الملكي . وقد قدم المؤرخ إ. كلينغل - براندت « من ألمانيا
 الديمقراطية » وصفاً هاماً لهذه الحدائق المعلقة : « تضم المجموعة
 الملكية منشأة أخرى متميزة بشكل مطلق وفريدة من نوعها هي
 الجنائن المعلقة الشهيرة . فقد بنيت في شمال وشرقي القصر متاخمة
 للصور وبالقرب من بوابة الآلهة عشتار . إنها تمثل أربع عشرة
 حجرة طولانية ومتماثلة تماماً واقعة على جانبي الممر الذي يخترقها .
 وتعتبر هذه المنشأة المبنية من الطوب والحجر المنحوت والمحمولة على
 أعمدة اسطوانية حرة من النماذج الأولى للبناء في التاريخ
 وقد بنى في إحدى هذه الحجج بئراً مكوناً من حفرة مربعة مركزية
 وعلى أطرافه حفر طولانية ، وعلى ما يبدو كانت هناك قد ركبت
 آلة لجر المياه وضخها للأعلى في المدرجات المبنية على الأعمدة المذكورة .
 كما أحاط هذا البناء سلم حجري امتد نحو الأعلى وخرجت آخر درجة
 منه إلى أعلى سور القلعة ، بجانب مدخل معبد الآلهة عشتار . أما
 المدرجات فكانت قد بنيت من قوالب الطوب ذات الأبعاد المختلفة ثم
 كسيت بطبقة من التربة الزراعية ، لتتمكن النباتات والأشجار من النمو
 عليها . فقد أمر الملك بإشاد هذا الصرح الاصطناعي على شكل
 حدائق مدرجة لصالح زوجته التي كانت من منشأ جبلي ، كي تستطيع
 التمتع بالهواء العليل في ظل الأشجار الوارفة . كما استخدمت الحجرات
 الواقعة تحت المدرجات بشكل ناجح كاستودعات باردة لحفظ المؤن » .
 انقضت قرون ، والذكرى عن موقع الحدائق المعلقة ما برحت

تجذب الباحثين وهما قد تكلمت التنقيبات بالنجاح وتسكن علماء الآثار من العثور على إحدى عجائب الدنيا السبع • لقد تبين أن البناء الضخم للمجموعة المعمارية هي تحت تل بابل الكبير ، والذي اعتبروه معبد الإله مردوخ ، إلا أن المعابد كانت تبنى بحيث تطل زواياها على الجهات الأربعة للطبيعة ، لكن هذا البناء كانت تواجهه المساحات على الجهات الأربعة المذكورة • وفي أعوام ١٨٨٣ - ١٨٨٤ م أجرى ج. رسام تنقيبات أثرية في بابل وتوصل الى استنتاج بأن ما يقع تحت التل ليس معبد الإله مردوخ أبداً وعندما رفع العمال طبقات التربة عن هذا التل رأى العالم بأن ما يقع تحت التل هو مصطبة من قوالب الطوب منحدره باستمرار من طرفيها نحو ضفة نهر الفرات ، أما القسم الخلفي من هذا البناء فكان عبارة عن جدار استنادي •

أخذ رسام يدرس جدوى هذا البناء فتوصل الى أنه بناء حدائق سمير أميدا المعلقة الفخمة •

وبالرغم من أنه عرف الآن من الذي بنى هذه الأبنية ولمن بنيت إلا أنه لا يسعنا إلا أن نتساءل عن أسباب علاقة هذه الحدائق باسم سمير أميدا • وبنظرنا يوجد لذلك سيمان • الأول - أن سمير أميدا كانت بابلية الأصل وتزوجت من الملك الاشوري شمشي أداد الخامس وبقيت محبوبه الشعب ، والسبب الثاني - هو أن سمير أميدا بعد أن أصبحت ملكة ثم وصت ابنها القاصر (الحدث) بالعرش أخذت تمارس نشاطاً عمرانياً مكشفاً ، لذا من الممكن تماماً بأن ذكرها حفظت في تسمية الحدائق المعلقة ذلك الصرح الفخم في بابل • فمن هي سمير أميدا في واقع الأمر ؟ ولماذا حيكت عنها هذه

الكمية من الأساطير ؟ وهل كانت شخصية تاريخية أم أنها أسطورية؟
سنحاول الآن الاجابة عن هذه الأسئلة وغيرها .

غالباً ما تصادف اسم الملكة الآشورية في الشرقين الأدنى ،
والأوسط حيث يطلق على التسميات المحلية للفنادق ودور السينما ،
والحدائق بشكل واسع في الرقعة الممتدة من شواطئ البحر الأبيض
المتوسط حتى أفغانستان . وفي (الاتحاد السوفياتي) على شرف سمير
أميدا أطلق هذا الاسم على قرية تقع بالقرب من موقع مرصديوراكان
الفلكي في أرمينيا . ومثل هذا التجاور ، يحمل معان رمزية سامية .
إذ أنه في بيوراكان تم التوصل إلى اكتشافات فلكية عظيمة في عصرنا
كما أن الرصف القفلوفي (★) للقلعة الصامدة هنا أصبح الكلمة الأخيرة
الناطقة عن بناء المنشآت الدفاعية في العصور الغابرة والتي تنسب إلى
سمير أميدا أيضاً .

وهناك الكثير من الحكايا عن سمير أميدا ، سنورد بعضها .
لم يكن بين كل ملوك الدنيا من تجراً على مقارنة نفسه بالملك نين
مؤسس الدولة الآشورية . لقد حكم مجمل آسيا الصغرى وأرمينيا
وميديا كما قهر الدول المجاورة على البحر الأسود وبحر قزوين بما
في ذلك أسقوثيا الشمالية وإيران الحالية وشبه الجزيرة العربية .
وأصبحت حينذاك مدينة نينوى عاصمة للدولة الآشورية .

وكما يقال ، أنه من بين حاشية البلاط كان يوجد قائد عسكري
سجاع اسمه وان أو وائيس الذي كانت زوجته سمير أميدا الرائعة

(★) هو البناء بالقطع الكبيرة من الصخر دون ملاط للتماسك
فيما بينها - المترجم - .

الجمال ، إذ أنها كانت ابنة الآلهة الآشورية ديركيتو وقد ولدت بالقرب من مدينة اسكالون (عسقلان - المترجم) وقام بإرضاعها سرب من الحمام البرية •

ففي أحد الأيام عثر الرعاة في البادية على طفلة صغيرة فأخذوها إلى سماسو ناظر قطعان الملك والذي تبناها ورباها كابنة له وفي إحدى الصدف التقى القائد الملكي وان بها فجأة وأعجب بها كثيرا فتزوجها • لقد أثارت سمير أميدا إعجاب الجميع بذكائها وجرأتها وجمالها وفتت الملك الآشوري تين بهائها فأخذها من وان لنفسه ، أما الأخير فأنهاى حياته بيده حزناً على ذلك • لقد أصبحت سمير أميدا ملكة آشورية وبعد وفاة زوجها راحت تدبر شؤون البلاد بنفسها بالرغم من وجود ابنها - الوريث الشرعي للعرش الملكي • لقد بنت مدينة الملوك بابل ذات الحدائق المعلقة والأسوار المنيعة والأبراج وكذلك الجسر الرائع على نهر الفرات والمعبد العظيم لاله بيلو • لقد أمرت بفتح سبع ممرات في جبال زغروس كي تمد طريقاً مريحة الى ميديا حيث تم تأسيس العاصمة إكبتان • كما تم جلب المياه بواسطة الاتفاق الى القصر الملكي من البحيرات البعيدة • وفي الجبال وعلى جلود رأسي كبير ذو ثلاثة قمم وبالقرب من المدينة القديمة بيخيستون أمرت سمير أميدا بنحت نصب كامل لها •

لقد فاقت الحملات العسكرية التي قامت بها سمير أميدا انتصارات الملك تين • فلم تحتل مصر وأثيوبيا وجزءاً من ليبيا فحسب بل وكذلك قامت بتنظيم حملة ضد بلاد الهند إلا أن هذه الحملة لم تتوج بالنصر؛ حيث تحطمت قوات سمير أميدا العسكرية على أيدي الجيش

الهندي ، فانسحبت سمير أميدا بعد أن تكبدت خسائر فادحة .
وبعد العودة الى الديار لم تراود الملكة أحلام الحملات العسكرية بعد
فحالك ابنها نيني (نينوس) المبعد عن العرش مؤامرة ضدها ، وحين
علمت بذلك تذكرت سمير أميدا النبوءة القديمة والتي تقول على
أنه عندما يعادي الابن أمه الحقيقية يعني ذلك أن الآلهة الخالدة
تدعوها إليها وعلى البشر أن يقدموا لها التحية والاجلال كما يقدمونها
لبقية الآلهة .

وتنص الرواية على أنها بمحض إرادتها منحت السلطة الملكية
لنينوس أما هي فتحولت إلى يمامة بيضاء وغادرت القصر مع سرب من
الحمائم . ومدتلك الأزمنة يذكرها الآشوريون كآلهة والحمائم اكطيور
مقدسة . أما الرواية الثانية فيقدمها الباحث ف . تشيريفانسكي
في أوائل القرن العشرين في كتابه « الملكة الغابرة » (عصر سمير
إميدا) فسندمها لكم بأسلوبنا .

بعد أن أصبحت سمير أميدا ملكة لبلاد بابل قررت تنصيب ابنها
نينياس (نينوس) ملكاً على آشور كي تنفرغ هي لاحتلال الأسواق
والطرق التجارية للبلاد ، وقد اختارت الهند هدفاً لذلك ، فقررت
القيام بالحملة عليها براً وبحراً . فقد كان اليوم الذي تحرك فيه الجيش
البابلي ضد الهند مسراً ومجزئاً معاً . فهو مسراً لأن البابليين ظنوا أن
سمير أميدا ستحتل الهند ومجزئاً لأنهم لم يكونوا واثقين بالنصر .

لقد خرجت سمير أميدا إلى الجيش في عربة تجرها ست جياد
تلتهب عدتها بريقاً من الذهب المزدانة به وعلى أطراف العربة تدلت
القرب المملوءة بالمياه المغلية وجعب النبال والحرايب ، كما رافقتها
من جانبي العربة حراس بلباس من جلود الفهود وسار خلفها السعاة

والكتبة والمنتبئون والكهنة والخدم • أما الجنود فساروا بعتادهم الفردي فقط دون كبوش الصدم وآلات ذلك الأسوار والسلاهم والجبال فكان في حوزتهم فقط السيوف والخناجر والأقواس مع النبال كما حملوا معهم أيضاً بعض الماء المغلي واللبنه والأرغفة المخبوزة باللبنه • وفي طريقها الى الهند تسلمت سمير أميدا رسالة إعلامية - من رابومار القائد العام للجيش - يعلمها فيها بأن قسماً من سفن الأسطول المتوجه بجرأ نحو الهند قد تحطمت إثر عاصفة بحرية ، إلا أن رابومار أعطى أوامره بمتابعة الابحار بغض النظر عن الخسائر الحاصلة • وكان علي رابومار حين وصوله الى الهند ، أن يبدأ فوراً باقامة معسكر للجنود كي يكون جاهزاً لاستقبال سمير أميدا القادمة براً •

وفي أثناء ذلك انهضت أمطار استوائية غزيرة أعاقت مسير الجنود إلى الأمام • وقبل وصولهم إلى المعسكر بعدة تحويلات استقبل رابومار موكب سمير أميدا والقسم الآخر من الجيش التابع له • وحدثته أثناء ذلك عن العلاميين الذين عينوا أدلاء طريق لها تبين أنهم خونة حيث أنهم اقتادوها إلى صحراء قاحلة لا حياة فيها أبداً • وقد حدث ذلك لأن الملك العيلامي تقدم للزواج منها أما هي فرفضت ذلك ، عندها أمر أولاده بأن يجروا قوات سمير أميدا الى الصحراء حيث الموت المحتم لهم •

إلا أنها تمكنت من إنقاذ جنودها وجلبهم الى ضفاف نهر الهند الكبير •

واستمر ملك العلاميين بانتقامه من سمير أميدا وبعث رسالة الى ابنها نينوس في نينوى ، وعرض عليه فيها الصداقة والتحالف والزواج من أخته مقابل أن يعلن الحرب على والدته سمير أميدا •

وافق نينوس على ذلك وجر قواته لحصار بابل ولكنه قبل أن يحاصر المدينة أرسل اليها مبعوثاً شخصياً يطلب إليهم بتسليم المدينة وجمع السلاح دون أي قتال وأن يقسموا على الطاعة الأبدية لآشور . كما أنه أصر على طرد سمير أميدا من البلاد وأن يسلموه امصير را بومار ويقسموا له نخوة كبيرة .

لكن المجلس الشعبي في بابل رفض له ذلك ، حينذاك بدأ نينوس حصاره للمدينة . إلا أنه لم يستطع السيطرة عليها غفلة ، فراح الآشوريون يضربون حولها حصاراً طويلاً الأمد . لكن ظهور سمير أميدا القادمة من الهند فجأة جعل نينوس يرفع الحصار عن المدينة ويسحب قواته بعيداً .

وكانت عودة سمير أميدا من الهند مرتبطة بالكوارث التي حدثت في نهر الهند إذ أن الأمطار الغزيرة وذوبان الثلوج الكثيفة من الجبال رفعت مستوى المياه في النهر عالياً ، فأطاحت بقسم من سفن البابليين الراسية فيه ، وكما استقبل السكان الهنود سمير أميدا كعدو غاز . وأجج العداء أكثر امراء الهنود الذين تمكنوا خلال شهرين من قدوم سمير أميدا الى ضفاف نهر الهند من تأسيس جيش كبير جداً .

فقد جمعوا في مكان ما عدداً كبيراً من القبيلة الحربية التي شددت الى ظهورها سلالات كبيرة جلس في داخلها المقاتلون الهنود . ففي الهجوم الأول على معسكر سمير اميدا شارك ثلاثمائة فيل حربي فكانت المعركة ضارية . فقد حاول الشجعان من البابليين بتر خرطوم القبيلة ، إلا أن المقاتلين المختبئين في السلالات كانوا يقتلوتهم بالخناجر الثقيلة . لقد أخافت القبيلة المقاتلين البابليين وهدمت وسحقت كل المعسكر وراح مقاتلوا سمير أميدا يفرون من ساحة القتال .

فلا يبق بجوار سميرأميدا يقاتل إلا المرافقين الشخصيين لها وفي هذه الأثناء أخذ يقترب من مضرب سميرأميدا فيل عملاق يحمل أمهر الرماة الجالسين في برج عال يحمله على ظهره ، كانت القرون الضخمة لهذا الفيل العملاق مغطاة بالذهب ورقبته ملبسة بدرع واق ، ولم تكن تفلح بجسمه لا المزاريق ولا النبال ، فعندما اقترب هذا الفيل من مضرب سميرأميدا فاتته له تورتان رابومار وبت خرطوميه بالسيف فهاج الفيل راكضاً وهبط الى الهاوية هو والمقاتلين الهنود الذين كانوا يحملهم •

استغل رابومار الفوضى التي وقع فيها المهاجمون فرفع سميرأميدا على ذراعيه ووصل بها بسلام الى مركبه • إلا أن الجيش البابلي حطم بعضه وتشتت بعضه الآخر • وعند المساء أخذ الذين بقوا في عداد الأحياء يتجمعون ويعودون إلى مراكزهم •

لقد اعتبر رابومار أن سبب هزيمة الجيش البابلي هم العيلاميون فقرر الانتقام منهم ، فقسم ما تبقى من قوة اسطولة الى قسمين وأرسل قسماً من المراكب الى بلاد عيلام والقسم الآخر الى بابل •

وصلت فصائل البابليين الى معسكر الملك العيلامي الذي حاصرت قواته مع قوات نينوس مدينة بابل • لقد دخلوا الى مضربه بالذات بعد أن انهو مقاومة حراسه وأخذوه أسيراً بعد أن فقاوا عينيه • لقد طالب البابليون من العيلاميين فك الحصار عن بابل والعودة إلى أوطانهم مهددين إياهم - في خلاف هذه الحال - يجر ملكهم الأسير، فخوفاً على ذلك انسحب العيلاميون إلى بلادهم •

أما نينوس فلم يهدأ له بال لأن بابل تحكمها امرأة هي زوجة

والده سابقاً والآن هي حبيبة التورتان رابومار الفينيقي مخصب
السلطة في بابل • لقد قرر مواصلة الحرب وأمر بإغراق بابل بمياه
النهر • ورداً على ذلك أمرت سميرأميدا بحفر أقبية صرف معاكسة
إلا أنه لم ينهوا هذا العمل حتى كانت المياه الغاشمة قد اقتحمت المدينة
جارفة كل ما تصادفه في طريقها •

لقد بعثت المياه سفن التورتان رابومار فأغرقت بعضها وسأقت
بعضها الآخر إلى البحر • وفي خضم هذا الطوفان المرعب استشهد
رابومار بذاته • وحاولت الجاريات نقل سمير أميدا إلى قمة
زيقورات (★) ، إلا أنها رفضت ذلك وفي هذه اللحظة ضربت قصر سمير
أميدا موجة عارمة من المياه رافقها صوت رعد هادر هدمت القصر
وأخذت الملكة معها وهكذا فقدت حياتها في خضم تصارع الأمواج •
لكن الشعب لم يرغب في تصديق خبر موتها واعتبر أنها في اللحظة
الأخيرة تحولت إلى يمامة جميلة وطارت إلى السماء لتتخلد إلى الأبد •
وبعد ذلك دخلت القوات الآشورية بقيادة نينوس إلى بابل،
حيث أقسم هذا الأخير على تفانيه للشعب وأعلن الوحدة بين آشور
وبابل •

والرواية التالية عن سمير أميدا يوردها العالم الأرمني المشهور
م • خورينسكي وفيها يقول بأن سمير أميدا كانت قد وقعت في حب
الملك الأرمني آرا الجميل • فبعثت إليه رسلاً تدعوه عن طريقهم للإقامة
في بلاد آشور والزواج منها وان يصبح فيما بعد ملكاً لآشور • إلا أن

(*) وهي برج مكرس للطقوس الروحية يتألف من ٣-٧ دورات
تتصل ببعضها بواسطة سلالم ومشارف خاصة - المترجم - •

الرسل تلقوا رداً سلبياً على ذلك • عندئذ غضبت سميرأميدا وقررت الوصول إليه حرباً • وفي إحدى المعارك استشهد آرا الجميل فحزنت عليه سميرأميدا ولم يكن لحزنها حدود فطلبت من سحرتها إعادة الحياة له من جديد ولكن ذلك كان من دون جدوى •

وبعد موت آرا الجميل أضفت سميرأميدا حبها على مجمل أرمينيا وقررت أن تبني لنفسها هناك مدينة لتأتيها في كل صيف كي تستعجم في تلك البقاع الرائعة •

لم تعجب نينوس ابن سميرأميدا تصرفات أمه (في البدء - حبها لآرا الجميل ، ثم لمؤسس المملكة الميديية زردشت) فقد حاول اقناعها واستلام السلطة منها إلا أنه لم يوفق في ذلك •

وفي هذه الأثناء نشأ بين سميرأميدا وزردشت جدال شديد تطور فيما بعد الى حرب حقيقية هزمت فيها سميرأميدا وراحت تتراجع فقرر نينوس القضاء على أمه لكنها حين علمت بذلك سلته السلطة بمحض إرادتها وتركته لشأنه •

هذه بعض الروايات الأسطورية عن سميرأميدا ، فهل كان هناك في الواقع سميرأميدا ؟ لقد تميزت مرحلة حكم ملوك أورارتو (القرن التاسع - الثامن قبل الميلاد) بحروب متواصلة ضد بلاد آشور • فمنذ عام ٨١٢ الى ٨٠٧ ق م حكمت البلاد أم الملك الاشوري أداد نيراري الثالث والذي كان له حينذاك من ٦٥ سنوات من العمر • وكانوا يسمونها شامورامات • ولا زال العلماء حتى الوقت الحاضر لا يمكنهم التوصل الى استنتاج موحد حول ترجمة هذا الاسم شامورامات ساميراميس ، سميرأميدا • فعلاً ما يترجمونه بـ « الاسم الأعلى » أو « اليمامة » أو « سيدة القصر » • الخ

لقد تعرفت شعوب أورارتو ولمدة تسع قرون متتالية على منجزات الحضارة الآشورية في مجالات الفن العسكري وبناء المدن والقلاع والأقنية وعلى الثقافة الآشورية بأكملها . لقد تركت العظمة والقوة والغنى وبريق بلاط الدولة الآشورية أثراً عميقاً لدى سكان أورارتو ، وترك لديهم انطباعاً خاصاً ذلك الوضع الذي تبين فيه أن البلاد التي تحاربوا معها كانت تقودها امرأة ملزمة بجمانها ، وذكائها ودهائها العسكري . ففي إبان حكمها تم القيام بعدة بعثات عسكرية الى أورارتو وميديا مما زاد من انتشار شهرة سمير أميدا وبلاد آشور . وكذلك اجتاحت أراضي دولة أورارتو أسوة بمن سبقها من الملوك الآشوريين . كما تجدر الإشارة الى أن فترة حكم سمير أميدا تميزت بنشاط عمراني واسع . فقد تم إشادة مجموعة من القلاع وفتح الطرق والأقنية واخضوضرت مدن عديدة . ولم يتخلف ملوك أورارتو عن سمير أميدا معتمدين على التوسع العمراني في بلادهم ، وعلى سبيل المثال فقد بنى مينوا ملك أورارتو سلسلة من التحصينات على مشارف توشبي عاصمة دولته ، وأنهى بناء قلعة وان - أقام تحصينات منيعة على الحدود الشمالية للبلاد وحفر القناة الشهيرة التي وفرت مياه الشرب للعاصمة وقد سميت هذه القناة باسم قناة شميرام (سمير أميدا) ويعتبر م . خورينسكي أن هذه القناة قد تم حفرها في عهد الملكة سمير أميدا ، ويؤكد الأكاديمي بيوتروفسكي أنها حُفرت من قبل مينوا ملك أورارتو وليست من قبل سمير أميدا . إلا أن الرواية الشعبية تنسبها للملكة سمير أميدا أيضاً . ومن المحتمل تماماً بأن التحصينات الموجودة في قرية شميرام في أرمينيا هي من منجزات الملك مينوا كما أنها منسوبة أيضاً للملكة سمير أميدا .

لقد أخذت شخصية إحدى أولى النساء الحكامات والتي قادت أعظم دولة في القدم تنمو عن طريق الحكايات والأساطير ونقل الوقائع إذ أن أساس كل هذه الروايات هو ضمن مجمل النماذج والتغييرات والاحتمالات •

لقد أبقت شخصية سميرأميدا أثراً عميقاً في الثقافة الروحية لشعوب كثيرة على وجه الكرة الأرضية كالروس والفرنسيين والعرب والأتراك وغيرهم • إذ أن هذه الشخصية ألهمت ولا زالت تلهم الكثير من الكتاب والمؤرخين والفلاسفة والموسيقيين والفنانين في إبداعاتهم الفنية المختلفة • ومثال مؤلفي هذه الإبداعات هم العلماء كيتسي ، هيرودوت ، تيودور الصقلي ، سترابون ، م • خورينسكي والموسيقيين مثل غليوك، روسين والفيلسوف فولتر والفنان غورجينو وغيرهم •

ومن المفيد الإشارة الى أنه انتشرت في روسيا حتى أوائل القرن الخامس عشر مخطوطة هي : « الاسكندرية ، رواية عن اسكندر المقدوني » كانت بطلتها سميرأميدا • وكان لهذه الرواية صدى واسعاً لدى جمهور القراء آنذاك •



عندما يحين موعد رأس السنة

لقد كتب أوفيد ذات مرة متسائلاً : « عجباً ، لماذا يكون رأس السنة في فترة البرد ؟ أليس من الأفضل أن يكون في الربيع الجميل ؟ » • وهل كان يحتفل بالسنة الجديدة شتاء في كانون الثاني دائماً ؟ كلا ليس دائماً ، ففي روما القديمة مثلاً كان يحتفل به حتى السنة

٤٥ ق م في الأول من آذار • أما الميديون فقد احتفلوا بالسنة الجديدة (رأس السنة) في ٢١ آذار وفي روسيا احتفل به في أيلول منذ سنة ١٣٤٢ وحتى ١٦٧١ م ولكن من أين وصل الاحتفال برأس السنة الى أوروبا في أيلول وآذار ؟ لقد وصلها ذلك من بلاد ما بين النهرين • ففي كل سنة تبدأ هنا في ٢١ آذار كمحصلة للاعتدال الربيعي زيادة مياه نهر دجلة وبعد اسبوعين من ذلك زيادة مياه نهر الفرات • وقد بدأت كل الأعمال الزراعية في بلاد ما بين النهرين في هذا الموعد • فقد استقبل سكان بلاد ما بين النهرين هذا اليوم بالفعاليات الاحتفالية والتسكرية والغناء والرقص • وانتقل هذا الاحتفال كاحتفال ببداية السنة في آذار - نيسان الى اليهود الأسرى لدى الملك البابلي نبوخذنصر ومنهم الى الاغريق وعبر هؤلاء الى شعوب أوروبا الغربية • ففي شمال بلاد ما بين النهرين احتفل ببداية السنة الجديدة في الخريف (ايلول) في بداية جمع المحاصيل الزراعية • ومن المحتمل أن هذا العيد الخريفي انتقل عبر الأسقوتيين والاغريق إلى بيزنطة ومنها الى روسيا •

وتنسب التقاليد الاحتفالية بعيد رأس السنة ، حسب رأي العلماء الى الألف الثالث قبل الميلاد وبدؤوا يحتفلون به أولاً في بلاد ما بين النهرين •

فقد استمر الاحتفال بهذا العيد مدة اثني عشر يوماً في نيسان (والواقع في ٢١ آذار حتى ٢ نيسان ميلادياً) • هكذا كان يبدأ العيد في أول الاعتدال الربيعي ، أي في بداية الأعمال الزراعية ، وكما اعتقد البابليون في بداية مرحلة تسلم مردوخ (إله السماء الصافية) مقاليد الأمور في الحياة • لقد كانت هذه الفترة تمثل لهم مرحلة

انتصار القوى البناءة الجديدة والآلهة على قوى الشر والدمار والموت .
لقد اعتبرت مجمل أيام الاحتفال أياماً مقدسة يمنع فيها تأنيب
الأطفال - معاينة العيد ، والقيام بالأعمال ودعوة المحاكم . ونحن
نعتمد كما هي الحال لدى العالم الألماني غ . فينكلر المختص بالتاريخ
الاشوري وكما مدد في إحدى اللوحات الفخارية بأن هذه الأيام
كانت « . . . أيام الحرية اللامحدودة ، حين يكون النظام العالمي
بأجمعه مقلوباً على رأسه . العبد يتحول الى سيد » .

لم تكن الاحتفالات في بابل لتبدأ مباشرة في بداية الأيام
الاثني عشر ، بل كانت الأيام الأربعة الأولى منها بمثابة أيام للتدريب
والتحضير . ففي هذه الأيام كان يقام في الساحات العامة للندن وفي
المعابد احتفالات لقراءة الملاحم وتمثيل المسرحيات ورواية الأساطير
وتنفيذ بعض الطقوس الدينية . وكانت أكثر الفعاليات شعبية هي
ملاحم عن غلغاميش وتحليق أتانا ، ومعجزات مردوخ ، والسقوط
إلى الجحيم ، وانقاذ عشتار وغيرها .

وفي صباح اليوم الخامس يخرج من معبد يزيد الواقع في مدينة
بارصيا بالقرب من مدينة بابل موكب احتفالي لمباركة تسلم الاله
الأعظم مردوخ زمام الأمور والتعبير عن الخشوع له . فمنذ هذا اليوم
بالذات يعتبر بأن « فتيات العالم الباهي » (الأيام الصافية) تدخل
الى ملكوت السموات . أي منذ بداية الاعتدال المناخي تنكس
استمرارية النصف الصافي من السنة . فقد كتب العالم السوفييتي
د . ريدير عن المشاركين في هذا الموكب الذي يخرج من مدينة بارصيا
بأنهم يرفعون « . . قارباً يعوم به إله القمر أو إله الشمس المحيط
الأرضي . فهو يبدأ أولاً باجتياز القنابة ثم يركب القارب المحمول

على عجلات ويسوقونه في طريق احتفالية كبيرة (تمثل الجزء العلوي من برج الأفلاك) في الساحة المقدسة في بابل « الى ملكوت السموات » . فباسم هذا الكرتفال الاحتفالي ما يزال حتى الآن يسمى العيد الذي تنتهي به السنة القديمة وتبدأ به السنة الجديدة » .
كذلك كتب د . ريدر بأنه « في هذا اليوم بالذات كانوا يقومون بطقوس دينية مختلفة ويمبرون عن هول الإله مردوخ . وكان الهدف من ذلك هو أن قوى ما تكبل مردوخ وتجره الى العالم السفلي (المملكة تحت أرضية - المترجم) الى داخل الجبال ، حيث يستجوب ويعذب حتى يسيل دمه . فتقرر الالهة سارايانيتوم القالمة على غياب زوجها مردوخ البحث عنه فتتهبط الى العالم السفلي مما يضطر حارسه بأن يعيدوه من العالم السفلي الى الحياة ثانية .

ومن الجدير بالذكر أن الأساطير عن هول الإله مردوخ تم استعمالها من قبل واضعي الأنجيل لاطهار هول السيد المسيح أيضاً .
في كتاب الأكاديمي ف ستروفه بأن « أي قارئ للنص الذي أوردناه يتذكر بشكل غير إرادي الرواية الانجيلية عن هول المسيح .

وهناك أيضاً توجد محاكمة له ، تغذيب قاس ، مجرم ما يعدم مع الرب ، و امرأة يرتبط مصيرها به بشكل وثيق » . إن هذه التمثيلات الدينية ذات المنشأ البابلي والتي كانت تقام يوم رأس السنة الجديدة دخلت الى التقاليد المسيحية كتصورات دراماتيكية رئيسة تمثل في مرحلة الفصح ، وعيد الفصح بحد ذاته يصادف عيد رأس السنة عند الاشوريين والبابليين ، وقد رافق المسرحيات الدينية التي مثلت في اليوم الخامس من أيام الاحتفال برأس السنة البكاء والتعجب والتعبير عن حزن جميع الحاضرين على الآله مردوخ الذي ما يزال آتئذ

معتقلا في العالم السفلي • بعد ذلك كان ملوك آشور وبابل يبدأون بطلب المغفرة أمام الآلهة والتكفير لهم عن الذنوب التي اقترفوها في السنة الفائتة • أما في اليوم السادس فكان السادة والعامّة من السكان يسافرون الى المدن الكبيرة وخصوصاً الى نينوى وبابل حيث يقيمون عند أقرباء لهم أو على مشارف القصور والمعابد •

واليوم السابع من السنة الجديدة هو يوم قيامة الاله مردوخ وخروجه من تحت الأرض لقد كان يجري ذلك بمساعدة آلهة أخرى • ففي هذا اليوم كانت تذبح كمية كبيرة من الخنازير إذ أنها كانت تعتبر لدى الاشوريين والبابليين رمزاً لأعداء الآلهة • وفي ليلة اليوم الثامن كان الاشوريين والبابليون يمارسون العرافة المنتهجين عن حظهم في السنة المقبلة • فقد كان يدعى الى كل بيت العرافون والمنجمون والسحرة • وفي صباح اليوم الثامن كان الكهنة في معبد إيساغيا حيث يحفظ في السر تماثيل ذهبي للاله مردوخ مع عرشه يخرجونه الى الشارع المؤدي الى طريق « الموكب الاحتفالي وكانت تدعى بالطريق الاحتفالية على شرف احتفالات رأس السنة هذه والتي كانت تجري في هذا المكان بالضبط • والى جانب تماثيل الإله مردوخ كان يخرج مجموعة من تماثيل الأرباب الأخرى الذين يقطنون معبد إيساغيا • وكانت تنقل جميع الآلهة والآلهات الى معبد آخر « بلاط المصائر » حيث يتلى النشيد الرئيسي الذي يمجّد الاله مردوخ • وعندما كان يصل الاله مردوخ وبرفقته زوجته سريانيتوم الى معبد « بلاط المصائر » كان ينتظره هناك الملك بذاته ، حيث يقف على عتبة المعبد وينتظر متى سيشره الاله مردوخ عن السنة القادمة •

وفي اليوم التاسع من السنة الجديدة ينقل تماثيل مردوخ الى

معبد بابل الرئيسي (بيت أكيثو - دار القرايين) الذي يتبع بالقرب من معبد « بلاط المصائر » ، وهنا يرقد التمثال مدة يومين كاملين ، حيث تجلب القرايين وتقدم العطايا . وهنا كان يحتفل في مساء اليوم العاشر وليلة اليوم الحادي عشر من السنة الجديدة بانتصار مردوخ على تيامات ، حيث تقام المأدبة في المعبد ذاته . ففي ليلة اليوم الحادي عشر كانت البلاد بأجمعها تحتفل بعيد رأس السنة الجديدة . ففي هذه الليلة كانت تحاك الحظوظ وتعد مصائر البشر كذلك في هذه الليلة كما في ليلة اليوم الثامن - حسب اعتقاد البابليين - كانت جميع الآلهة تجتمع مرتبة أمام الإله مردوخ الذي كان يجلس الى مائدة من الذهب في مكان صاحب الرحمة باراكلو . لقد وقفت بقية الآلهة أمامه حانية الرأس خاشعة منتظرة ما سيقوله مردوخ عن مصير كل منها في هذه السنة الجديدة . وفي نهاية اليوم الحادي عشر ينقل تمثال مردوخ الى معبد « بلاط المصائر » ومن هناك الى إيساغيلا . وفي الطريق الى إيساغيلا كانوا يضعون التمثال على القارب الذي عبر القناة به الى الفرات وعلى طول القناة امتدت الطريق المقدسة عين - بورشابو حيث سار بها المشاركون في الموكب الاحتفالي من كهنة بمختلف درجاتهم (سانغو - الكهنة الرئيسيون - ، إنو - كهنة متقدمون باسيسو - الكهنة صاحبو المسحة المقدسة ، ماكو - الكهنة مفسرو الأحلام وأخيراً بارو - الكهنة المتنبئون) وكذلك سكان بابل وضيوفها القادمون للاحتفال بالعيد . وعلى ضفاف نهر الفرات بقي الجميع ينتظر قدوم نابو (ابن الإله مردوخ) على قاربه . بعد ذلك كان الموكب يعود الى معبد إيساغيلا حيث كان يجب إيداع تمثال الإله مردوخ . كما كان يحاول الملك أيضاً الدخول الى المعبد إلا أن الكاهن الأكبر كان يعترض سبيله مباشرة .

وقد كتب العالم الروسي تواريفف : « كان ينزع من الملك التاج والصولجان ولوازم ملكية أخرى وتوضع على صينية من رصاص وتقدم للاله • ثم يبدأ الكاهن الأعلى بضرب الملك الراكع على ركبتيه أمام المحراب المقدس وجلده بالسوط • فإذا بكى الملك فكان يعتقد بأن الحكم في السنة القادمة سيكون رؤوفاً وإن لم يبك فإن سلطته لن تستمر ويجب إيقافها • بعد ممارسة هذه الطقوس كان يدخل الملك الى المحراب أمام مردوخ ويتوجه اليه بالصلوات والوعود بأن يكون رهن إشارته • وكان يرد الكاهن الأعظم الى الملك ويعده بمساعدة مردوخ له وتقويته للنفوذ الملكي • وفي نهاية هذه المراسيم كانت تعاد للملك عدته ، فيتلمس الملك يد مردوخ في إيساغلا وبذلك كانت تبارك سلطته الملكية في السنة المقبلة • وإذا لم يقه الملك بكل هذه الطقوس ، كان يفقد تسميته أكملك على مدار السنة القادمة كلها وكان يدعى بالحاكم •

وفي هذا اليوم واليوم الثاني عشر كان يتكلم في الساحات والشوارع الخطباء والقراء والفنانون والمغنون والموسيقيون • والأكثر كان الموسيقيون والمغنون إذ كان عددهم في كل معبد لا يقل عن سبعة أشخاص وكانت المعابد في بابل ونيوى تحصى بالعشرات كما كان على جميع المغنين حضور الاحتفال باليوم الأخير من عيد رأس السنة الجديدة • كانوا يعزفون ويعنون مع إيقاعات وعزف الزمار والطبول والدف والصنج والعود ذي الاحدى عشر وترًا والقيشارة • وكان يختتم اليوم الثاني عشر « بزفاف » الاله مردوخ للالهة ساربانيتوم ، أما الملك فكان يعقد هذا الزواج ومعه الكاهن الأعظم ويباركانه •

لقد مضت آلاف السنين على الاحتفال بعيد رأس السنة في بابل وتبنت هذا الاحتفال شعوب أخرى في أوروبا وآسيا • لقد فقد هذا العيد الكثير من مراسيمه إلا أن فكرته بحد ذاتها بقيت تنتعش حتى الآن • ففي دول أمريكا اللاتينية لا زالوا يقومون بالكرنفالات سنوياً • حتى أن كلمة « كرنفال » بحد ذاتها هي الترجمة الحرفية للعبارة البابلية (سفينة البحر) •

ويصاحب هذه الكرنفالات كما كان رأس السنة الجديدة في بابل الرقص والحفلات الدينية والتنكرية وغيرها من الألعاب • ويعتقد العلماء أن وصول هذا العيد الى أوروبا وأمريكا اللاتينية قد تم عن طريق روما القديمة • وكما كان يجري في بابل يجري الآن في مختلف الدول حيث تزين شجرة النخيل أو السرو أو أي شجرة أخرى تمثل قدوم الزمن الحديث ، والسعادة المتجددة •

هكذا ومن بلاد بابل البعيدة ومنذ آلاف السنين الغابرة انتقلت هذه الفكرة إلى الشعوب الأخرى التي عادة لا يراودها التفكير

مراجعة الطبيب للتداوي

بذلك •

لقد لاحظ هيرودوت أثناء ترحاله في بلاد ما بين النهرين طريقة هامة لعلاج المرضى ، الذين صادفهم إبان ذلك • عندما كان الطبيب لا يستطيع انقاذ المريض الذي راجعه أو لم يتسكن من إيجاد طريقة لعلاجه كانوا ينقلونه الى ساحة السوق حيث يراه المارة ويقدمون له النصائح للعلاج • فقد حدثنا هيرودوت عن هذه الطريقة الغريبة في العلاج قائلاً : « ... بعد ذلك يقدم المارة النصائح للمريض ويشرحون له كيف أنهم تخلصوا من مثل هذه العلة ، أو رأوا خلاص

الآخرين منها * وكان يمنع المرور من جانب المريض بصمت ، وكل من يمر بجانبه يجب أن يسأله عن العلة التي أصابته » .

إن هذه الطريقة كانت موجودة منذ القدم لدى الاشوريين والبابليين وكانوا يلجؤون إليها في الحالات المستعصية جداً إذ كان الأطباء يقفون لا حول لهم ولا قوة في معالجة المرضى * بالرغم - للتنبؤ - أن مستوى الطب كان عال جداً ، لو أخذنا بعين الاعتبار بأن الحديث يجري عن ألفي سنة قبل الميلاد * عندما أصدر الملك البابلي حمورابي قوانينه الشهيرة والمعروفة باسم « شريعة حمورابي » فقد جاء في قوانين حمورابي مواد تحدد النظام الأساسي لمزاولة مهنة الطب في بابل ، مما يدل - دون أدنى شك - على أن الطب في مرحلة حكمه كان قد وصل الى مستوى رفيع * كما أبدى حمورابي اهتماماً كبيراً بالأطباء - الجراحين *

وهكذا ، يمكن أن نتصور الى أي درجة كانت تقدر معارف الأطباء الذين أمضوا سنوات عديدة من حياتهم للتعليم في المدارس الطبية المتخصصة ، وكيف خاطروا كثيراً في إجراء العمليات ، إذ أنه كان يعاقب على موت المريض بشدة حتى درجة قطع اليد * كما لم ينس حمورابي التنبؤ عن ذلك في قوانينه الشهيرة * ففي المادة - ٢١٨ - يكتب ما يلي : « إذا سبب الطبيب وهو يفتح بسكين برونزية جسد مريض ما الموت لهذا الانسان ، أو وهو يزيل الماء الأزرق « كاتاراكتا » من عين مريض ما بسكين برونزية تسبب في إعطال عين هذا الانسان ، فيجب قطع يده » .

لقد لعبت المدرستان الطبيتان المتخصصةتان في أوروك وبارصيبا دوراً عظيم الشأن في تهيئة الأطباء في بلاد بابل * هاتان المدرستان

وغيرهما من المدارس الأخرى كانت مفتوحة ومعتمدة على حساب الدولة . وكان يستخدم في تدريس الطلاب وتخصص الأطباء كتب وكراريس ومراجع طبية كما كانت تصدر موسوعات طبية خاصة ، مما أتاح في تلك الأزمنة البعيدة الامكانية للأطباء الآشوريين - البابليين في تصنيف علوم تحديد الأعراض والأسباب والتشخيص ، والتنبؤ بالأمراض وعلاجها (سيمتوما تالوجيا الأئيولوجيا والدياغنوزتيكا والبروغنوز) .

لقد منع رسمياً في بلاد آشور وبابل فتح الجثة لغرض دراسة علم تصنيف الأعضاء (أتوميا) لدى الانسان ، إلا أن الأطباء هناك أوجدوا لنفسهم طريقة أخرى لزيادة المعارف في تخصصهم ، فقد كانوا يذهبون الى ساحة الحرب حيث تمكنوا من دراسة اتوميا الانسان على جثث القتلى وفي الوقت ذاته قاموا بعلاج الجرحى واجراء العمليات الجراحية لهم وتضميد الجروح وغيرها . وهكذا ولدت تدريجياً الجراحة الميدانية (الطب العسكري) . وكان للأدوية المستخرجة من الأعشاب والمرالات ومواد الطعام والخضار والفواكه انتشاراً واسعاً هناك حيث بلغت كمية الأدوية المستخرجة من الأعشاب المثبات .

وبهدف التداوي استقدمت أنواع مختلفة من النباتات بما في ذلك النادرة منها . كما جلبت أنواع أخرى ليس من الدول المجاورة فحسب بل ومن المسافات البعيدة جداً . أما الأنواع المحلية الأخرى فقد زرعت في حواكير خاصة . وكانت الأدوية المحضرة تمنح للعريض بوصفات طبية خاصة .

كما أعار الأطباء الآشوريون - البابليون اهتماماً كبيراً بأمراض

الحمية ، فقد كانوا يصفون لمرضاهم المحتاجين لطعام الحمية الفواكه كالنفاخ والأجاص ، والخضار كالبصل والثوم والشمندر والجزر والحنطة الرومية وكذلك مختلف أنواع السموم والعصير والشراب • والأدوية الأكثر رواجاً كانت الزيوت وسحب الفواكه وشراب الخمائر والدبس وشراب مستخلص الشعير وغيرها • ومما سبق ذكره نرى أن الوصفة الدوائية المعاصرة تعود بجذورها الى عمق آلاف السنين • وبالإضافة للنباتات استخدم في تصنيع الأدوية مختلف أنواع الأسماك النهرية والبحرية ، ودم الحيوانات ، والحليب والقشطة واللحم والدهن وعظام الحيوانات والبيض والطيور وعسل النحل والأحجار الكريمة والجص والكلس والكبريت والشب والنحاس والأملاح المعدنية والقصدير والصدويم •

وكان يعتبر الأطباء البابليون أن أحد أسباب المرض هو نشاط الأرواح الشريرة

أما ما يخص الجن التي يزرع المرض في نفوس الناس فكانت تطرد بواسطة التعاويذ والجمال السحرية وصنع الأيقونات والتماثيل لها •

ويورد العالم السوفييتي س • توكوريف إحدى هذه التعاويذ التي تقول : هم سبعة ، هم سبعة
في هاوية تحت الأرض هم سبعة
في جوف الأرض ، نبتوا من الهاوية
ليسوا من الجنس المذكور ولا المؤنث
هم أعاصير مدمرة وزوبعة
لا يأخذون نساء ولا يلدون أطفالاً مرضعة

لا يعرفون الرحمة ولا الشفقة
ولا يصنعون الى صلوات الشفاعة •

وإن لم يجد كل ذلك فعلاً ، يتوجه الطبيب أو الكاهن أو حتى المريض بذاته الى آلهة الشفاء • ومن بينها غالباً ما يذكر اسم إله النار غيرو الذي كان يطهر بلهبه الانسان ويطرد منه المرض والجن والآلهة غولاً - ام الانسانية والآلهة باو - الطبيب الأعظم والتي وهبت الحياة وعالجت الأنس بلمسة من يديها والآلهة عشتار - آلهة الخلق والولادة والشفاء • كما لم تنس عادة ذكر أسماء آلهة أخرى مثل مردوخ وزوجته ساربانيتوم ، وكذلك الآلهة توسكو ونيغيرسوا ونابو وشماش وسينا الذين كان يجب عليهم أن يقوموا بالتضرع ، والابتهاال للاله أنو ليرسل العلاج ولينعم بالشفاء •

غير أن ذلك هو عمل الأرباب بالآلهة • أما الأطباء فكان عليهم في نهاية المطاف حل معضلات دنيوية كمعالجة المرضى • ولهذه الغاية كان لدى الأطباء الآشوريين والبابليين عدد غير قليل من الوسائل والأدوات مثل : المشارط والمنشار الطبي والملاقظ والعدسات الطبية للذين كان بصرهم ضعيف والابر العلاجية ومبارد صغيرة وشاش وجبائر جاهزة وتدخين الكدمات والضماد ... الخ •

وقد مورس بشكل واسع في الطب الآشوري - البابلي تدليك الأرجل والصدر والظهر والقسم العجزي ودهن العضلات بمراهم مختلفة • وإذا كان ذلك لا يجدي فعلاً ، كان الطبيب ينصح المريض بممارسة التمارين الرياضية •

لقد جلبت المهارة للأطباء البابليين صيتاً واسع الانتشار في كل المشرق القديم • فقد كانوا يدعون الى بلاد مجاورة • وقد رافق

الأطباء البابليين دائماً في بلاد آشور وبابل الى مصر والمملكة الحثية وسورية وفينيقيا إله الطب نينغيشزيدا وهو على شكل شعبان ملتف على صولجان إن رمز الطب هذا هو أقدم من الرمز الاغريقي بسالا يقل عن ١٥٠٠ سنة كاملة .

من المعلوم أنه بعد سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م تحت ضربات الملك الفارسي كير (من سلالة الأخمينيين) توالى على احتلال هذه **مالذي حل بالبابليين ؟**

المدينة ومجمل بلاد بابل مختلف الغزاة الذين استروا في بلاد الرافدين حقبة طويلة من الزمن . وحل اسكندر المقدوني والسلوقيون محل الأخمينيين ، ثم جاء الأرشاكيون وتلاههم الساسانيون ثم أزيحت السلالة الساسانية على يد العرب المسلمين الذين سكنوا بلاد الرافدين منذ القرن السابع الميلادي . لقد اضمحل البابليون تدريجياً سواء بسبب الحروب أو الامتزاج مع الأجناس الأخرى إلا أنهم لم يبادوا عن وجه الأرض ويعتبر العلماء أن معتنقي مذهب ماندي (★) العرفاني في العراق هم أحفاد البابليين القدماء .

ويتفق الباحثون أساساً في هذا الموضوع حول دخول عناصر كثيرة من ديانة الاشوريين - البابليين وآثار عديدة لثقافتهم في تعاليم

(●) المانديون هم أصحاب مذهب ديني ظهر على ضفاف الفرات وتتشابه وجهه نظره مع كثير من المذاهب المسيحية في العرفانية والتنسك . ووفقاً لتعاليم الماندية إن وجود الانسان مهتد من قوى الشر التي حجبتها قوى الخلق النيرة وأحد حاملي النور الى العالم هو ماندا دغالي (وباسمه سمي هذا المذهب) ويعني جوهر الحياة . ويقدم المانديون يوحننا العمدان كرسول بين الطريق الى مملكة النور - المترجم .

يعتقدون أنه يجب اعتبار المانديين من أحفاد البابليين القدماء، ويتمتع
الرئيس الروحي لهذا المذهب (الكاهن الأول) بسلطة دينية وديوية
كبيرة على أبناء قومه ويقودهم من خلال الكهنة .

والسمة الرئيسية لهذه الديانة هي عبادة النجوم ، حيث يحتفلون
بأغلب أعيادهم ليلاً على ضوء النجوم التي يسمونها « النور الأول
أو النور الأزلي أو الاله بحد ذاته » .

وفي أثناء الصلاة يتجه المانديون نحو نجم القطب وينفون الوهية
، يسوع المسيح ويعتبرونه رسولا كاذباً ويفتخرون بأن إلههم المقدس
أنوش قد كشف أمره . كما أنهم يؤمنون بأن أنوش قد ظهر على
الأرض أثناء حكم الملك بيلاطس وقد شفى المرضى وأبصر العميان
وأقام الموتى من قبورهم وبعد ذلك ذهب الى الجنة حيث يبقى حتى
يوم الاخرة حينئذ يعود لينقذ الأناس الذين وقعوا في الخطيئة .

وفي الوقت ذاته يقدس المانديون يوحنا المعمدان أيضاً ويعتبرونه
بظريتهم الأول والكهنة هم ممثلونه على الأرض . وقد دونت
التعاليم الأساسية لديانة المانديين في عشر كتب وأقدمها كتاب
سيدر (★★) الرب وسيدر يحيى وهو كتاب يوحنا المعمدان مع
الأناشيد والترانيم ، وكتاب كولاستا وكتاب ديوان وهو خاص
بالترايل . كما يوجد بين هذه الكتب العشرة كتاب عن الفلك وكتاب
للصلوات والأناشيد والطقوس وغيرها .

وفي سيدر ربا (نجم الرب) ترد قصة « العالم منذ خلقه
وحتى ٧٠٠٠ سبعة آلاف من عصرنا » . ويؤكد هذا الكتاب أنه

في البدء كانت المعمورة مكونة من عالم النور وعالم الظلمة وقد عاشت في عالم الظلمة المغمور بالمياه السوداء الروح الشريرة (الجنية روخا) وفي أحد الأيام زار عالم الظلمة هايل (ابن جوهر الحياة) الذي عبر هذه المياه السوداء وسيطر على قواها وفيدها بسلاسل ثقيلة • وقد ولدت الجنية من هايل ابناً دعوه أور وظهر لدى أور وأمه اثنا عشر كوكباً ومجموعة نجمية (زودياك) • وبعد ذلك ظهر من عالم النور مخلوق باسم أباتور الذي أمره هايل بتحويل المياه السوداء الى جماد وقد شاركت روخا في ذلك أيضاً • وهكذا وفق تعاليم ديانة المانديين تم خالق هذا العالم •

أما هايب فقد جعل أبناء روخا شمساً وقمرأ وكواكباً أخرى • بعد ذلك صنع جسد آدم الذي نثت هايل فيه الروح من خزينة الحياة • وذلك ممكن لاناس مختارين فقط ، أما الانسان العادي فيجد خلاصة في خدمة شعبه • والاصغاء الى الكهنة والايام بعبادات وتقاليد عشيرته فحسب • ويحاول الكهنة تعزيز هذه الفكرة في أوساط المؤمنين كي لا تتاح لهم الفرصة للاختلاط بالشعوب الأخرى ومن ثم فقدان مصدر عيشتهم • وكما نرى من هذا المثال أيضاً أن العلاقة بين المانديين البسطاء وبين كهنتهم هي نفس العلاقة بين الأغنياء والفقراء •

وتتشابه معابدهم في كل مكان إذ أنها تصنع من القصب بعرض أربعة أمتار وطول خمسة أمتار دون سقف كي تتسنى لهم رؤية السماء • وتطلي الجدران بالطين وتفتح فيها نافذتان احدهما الى الشرق والأخرى الى الغرب وباب من الجهة الجنوبية • وفي وسط المعبد يبني مذبح من الغضار والى جانب هذا البناء يحفر مسبح

للانغستال • وكما تم ذكره يحتفل بالأعياد هنا ليلا على ضوء النجوم •
واليكم كيف يحتفل المانديون بعيدهم الرئيسي « بانشو » كما يصف
ذلك المبشر الأمريكي • سويمر :

« قرابة منتصف الليل يتجه عباد النجوم رجالا ونساء الى ضفة
النهر حيث يوجد المعبد الذي بني لتوه وهنا يدخل واحداهم تلو
الآخر الى هذا الكوخ الصغير من الجهة الجنوبية للمعبد ويرتدون
فوق المستنقعات « الرستا » وهو لباس أبيض مقدس ويتجهون نحو
الأماكن الخالية ويجلسون على الأرض أمام المعبد ويحيون الموجودين
بكلمة « فليباركك الرب » ويجاب لهم « بركات الرب عليك أيضاً »
هكذا يجلسون خاشعين ساكتين وأحدهم بجانب الآخر صابرين
ينتظرون خروج موكب الكهنة •

ويقف أمام مدخل المعبد كاهنان في يد كل منهما فانوس ، لا
يغضان الطرف عن الدب الأكبر منتظرين اللحظة التي يأخذ فيها
الوضعية التي تشبر الى منتصف الليل فيرفع كل من الكاهنين فانوسه
مشيراً الى حائل ذلك •

وبعد دقائق يبدأ الاحتفال الذي ينتظره المؤمنون فيخرج الموكب
الروحي يتقدمه أربع شمامسة يتلوهم أربع قساوسة في تخلص كل
منهم خاتم من الذهب وفي أيديهم عكاز مصنوع من شجر الزيتون
على شكل صليب ثم يخرج هؤلاء القساوسة الكاهن الأول المختار
من قبل زملائه والذي يكون قد تنازل كلياً عن كل ملذات الدنيا
ويخرج خلفه أربع شمامسة آخرين - أحدهم يحمل العكاز الأكبر أو
الصليب الأكبر غانزيرو والآخر يحمل الكتاب العظيم سيددربا والثالث
قفصاً يحوي على حمامتين والرابع يجلب قدرًا من حبوب القمح ،
والسهمس • ويتحرك الموكب بين صفوف المصلين •

يزيح الكاهنان الواقفان على مدخل المعبد ستارة الباب ويندفع
الموكب الى الداخل ثم يوضع الكتاب المقدس سيدرربا على المذبح
ويأخذ الكاهن الأكبر حمامة حية من الشساس ويرفع يديه باتجاه
نجم القطب مطلقاً إياها مع كلمات : « باسم الحي القيوم فليبارك النور
البدائي ، النور الأولي ، صاحب الخلق الالهي » .

بعد ذلك يقف كل المصلين خلف الستارة بلباسهم الأبيض ثم
يهبطون راكعين أمام نجم القطب الذي تأملوه ساكتين وعندما
تنتهي المراسم الدينية يقف الكاهن الأكبر في المعبد وينحر الكباش
وينتظر حتى يسيل كل دمه ثم يوزع لحمه على جميع الموجودين في
الكنيسة . ويجب أن تنتهي كل التراتيل قبل أن تبرز أشعة الشمس
في السماء » .

أن يصبح المرء كاهناً ذلك أمر صعب جداً ، إذ يجب عليه أن
أن يتدرب على ذلك مدة ١٢ سنة وأن يبرهن على نقاوة دمه حتى
ثلاث أجيال قبله - خصوصاً أن الكرسي الروحي يتناقل من جيل
لآخر في الأسر ذاتها . وتمتد سيامة الكاهن الأكبر عدة أيام وتترافق
بمجموعة من المراسم التي يدخل في عدادها تعمييد المسام في النهر
عدة مرات وكذلك تعمييد موتاه بشكل رمزي وذلك يعني التنازل
الكلي عن ملذات الدنيا . ومن الجدير بالذكر أن الوجوه الروحية
لدى المنديين يمكن أن يكونوا من النساء أيضاً كما كان لدى البابليين
القدامى .

ويتمسك المانديون بدقة متناهية في سكناهم وكل مجالات حياتهم
بالتعاليم والمراسم المنقولة لهم من قرون عابدة غابرة ، وتعتبر مخالفتها
بالنسبة لهم خطيئة عظيمة ، إذ أنه جاء في الكتب المقدسة قوله :

« ينقذ روحه ذاك الذي يحافظ على ولائه لعادات وتقاليد المشاعة »
لذلك يقطن المانديون بشكل دائم على ضفاف الأنهار ، كي يتمكنوا
من القيام بالاغتسال بعدد المرات المكتوبة لديهم في المياه الجارية •
إنهم لا يأكلون لحم البقر وإشيران والجواميس والخيل إطلاقاً •

أ كذلك حافظ المانديون على مدى قرون عديدة على طقوس دفن
ابوتى فهم يودعون الميت ووجهه نحو نجم القطب ويلفونه بثوب أبيض
ويضعونه في قف كبير مصنوع من أعصان الصفصاف • والفقير منهم
يقوم بإطعام الحضور مرة واحدة بعد الدفن • أما الأغنياء منهم فيقومون
بذلك في اليوم الثالث أيضاً والسابع والخامس عشر والثلاثين والخامس
والأربعين وفي اليوم الستين للوفاة •

أما ما يخص العادات المتبعة في احتفالات الزواج لدى المانديين
فما زال كما كان عليه منذ آلاف السنين • حيث يرسل الشاب وفداً
للخطوبة الى أهل الفتاة • فيتفقون على المهر وفي اليوم التالي تذهب
قربيات الخاطب الى الخطيبة ويجدلن في شعرها ثلاث نقود ذهبية ويلبسنها
الخواتم الفضية والذهبية ويدهن يديها بالقرمز ويعمس قدميها في
الحنة •

لقد كان البابليون القدامى يقومون بمثل هذه الشعائر ومن
الممكن جداً أن ما لديهم الآن من عادات وتقاليد متوارثة فهي تأخذ
بداياتها من تلك الأزمنة الغابرة بالذات • والعرس لديهم يمتد ثمانية
أيام كاملة بمشاركة الكهنة ومع وجوب غسل العروس والعريس في
النهر دون ريب •

من المدهش أنه الى أي درجة حافظ المانديون على طقوسهم وعاداتهم
دون أي مساس • لقد حافظوا على لغتهم أيضاً التي قلما تأثرت باللغات
الأخرى المحيطة بهم • فني تجمعاتهم يتكلم المانديون بهذه اللغة فقط

رغم أنهم يعرفون اللغة العربية بطلاقة • وتعتبر المناطق الجنوبية في العراق ومناطق نهر كارون في إيران هي الأراضي الأساسية لسكانهم وإقامتهم الآن والتي يصل تعدادهم فيها الى ستين ألف نسمة • ويشتهر المانديون كصاغة مبدعين ونجارين ماهرين وبنائي سفن وجبانين متفنين أي أنهم يمارسون إتقان كل ما أشتهر به البابليون القدامى • وبعد الكوارث والتقلبات التاريخية وبعد بضع آلاف من السنين خلت ستقوط بابل صد هذا التجمع الصغير « المانديون » المتبقي من البابليين حملات الغازين بحراً محافظاً بذلك على جزء معين من ميراثه القديم وحاملاً إياه مع تحديثات طليقة الى أيامنا الحاضرة •

– المكتشفون الأوائل لمدينة بابل – المدينة المنسية من قبل الالهة والبشر :

تذكرون أننا كنا غالباً ما نقارن التوراة بالواقع ونبين أن واضعيها اقتبسوا الكثير من الحكايا من الشعوب المختلفة • والآن نرغب بأن نبدأ لكم هذه الفقرة من الكتاب بنبوءات الرسل التوراتيين والتي – كما يؤكدون – كانت تصيب دائماً • ولناخذ نبوءة ايشاعيا عن الهالك الشامل والأبدي لبابل ، حيث يقول : « بابل هي زينة الملكة وفخر الكلدانيين وستهلك بقدرة الرب كما هلكت سادوم (★)

(*) سادوم – هي احدى المدن الخمسة التي أحرقتها النار التي نزلت من السماء بسبب خطيئة أهلها العظيمة . وهي مضرب الأمثال ، كما أن الخطيئة السادوية (السادية) اخذت تسميتها من كلمة سادوم . تهدمت هذه المدينة نتيجة البراكين والزلازل التي اجتاحتها وتقع انقاضها تحت المياه في جنوب بحر الميت – المترجم •

وعامورة (★★) لن تسكن أبداً ولن يكون فيها أي جنس من الأجناس ولن ينصب
العربان مضاربهم ولن يستريح الرعيان بقطعانهم فيها . بل شرعى
فيها وحوش الصحراء وستملأ بيوتها البوم وستسكنها النعام وستجول
فيها الحيوانات العبراء ستضج قصورهم بعواء ابن آوى وملاهيهم
بالبضباع .

إلا أن البشر أخذوا يفكرون بطريقة أخرى ، فراح العراقيون
يبعثون المدينة من الأطلال ويحولونها الى مدينة متحفية والى إحدى
كبريات المدن السياحية في الشرق العربي . ولذلك وعلى مسافة مئة
كيلو متراً الى الجنوب من مدينة بغداد الحالية وبالقرب من مدينة
الحلة . بدأت أعمال الترميم لاعادة الحياة لمدينة بابل الأسطورية
والتي كانت تعتبر المركز السياسي والثقافي والاقتصادي لدولة بابل
إحدى أقدم دول العالم . لقد عاش في هذه المدينة وفق تقديرات
العلماء ما يقارب مئة ألف نسمة . ويخطط لاعادة تشييد الحدائق المعلقة
وبوابة الآلهة عشتار ومعبد مردوخ وبرج بابل الشهير والمسرح اليوناني
المبنى على عهد اسكندر المقدوني . ويستخدم الباحثون في ترميم
هذه الابداعات معطيات المؤرخين القدامى أمثال هيرودوت الذي يخبرنا
بدقة عن أن ارتفاع برج بابل بلغ سبعين متراً ، ولكي تبدأ هذه
الأعمال كان لا بد من اكتشاف بابل وتحديد موقعها بدقة ورسم
حدودها ، مما لزم لذلك عشرات السنين . إذ أنه بعد نقل عاصمة
السلوقيين من بابل الى سلوقية أخذت المدينة القديمة تتضاءل بسرعة

(*) عامورة - اسم كنعاني معناه غرق - وهي بلدة في غور
الأردن دمرها ملك عيلام ، ثم تدمرت نهائياً بسبب غضب الله
عليها من الفساد الذي وجد بين أهلها . ويظن انها غمرت
بمياه بحر الميت عند وادي العسال - المترجم .

وتتحول الى خراب شامل . وقد ساعدت السلالات الفارسية ،
كالأرشاخيين والساسانيين وكذلك الغزوات العربية المتعاقبة على بابل
في القرن السابع الميلادي على اضمحلال كل ذكرى عن مدينة بابل تدريجياً
وأخيراً حلت تلك اللحظة التي نسي فيها كثير من الناس أين كانت
تقع مدينة بابل ولم يبق سوى التوراة التي « تجلدها بالسيان »
وتذكرها باحتمالات مختلفة دون أي حياء في التعبير عن ذلك .

وتعتبر مدينة بابل حسب آراء واضعي التوراة مدينة « ضياع
العالم » حيث تمت « البلبلة » وكذلك بالعكس عدل الكثيرون من
أجل نشر المعلومات الحقيقية عن بابل وسكانها مثال ذلك « السائح »
العظيم في الأزمنة الغابرة « شيخ التاريخ » هيرودوت وكذلك سترابون
وتيودور الصقلي وغيرهم .

ولكن بغض النظر عن كل ذلك راحت ذكراها تضحل شيئاً ،
فشيئاً ولم يبق منها على مشارف القرن العشرين سوى قرية صغيرة .
ففي عام ١١٦٥ م زار الجواله الاسباني ب . التوديللي هذه
المنطقة وكتب بأن بابل هي أطلال مدينة مهدمة على مساحة ستين
كيلو متراً مربعاً . إذ تقع هناك أطلال قصر نبوخذنصر . وفي بداية
القرن البنابع عشر الميلادي وصل الى هذه الأطلال الرحالة والتاجر
الايطالي ب . فاللي وجلب معه الى إيطاليا رقيمتا فخارية مكتوبة
بالخط المسماري إلا أن أول وصف لأطلال بابل وضعه وكيل الشركة
البريطانية أوست - هند في بغداد السير ك . ريج .

كما عمل في هذه الأماكن الرسام الانكليزي المشهور ر . بورتر
الذي وضع خلال سنوات ١٨١٧ - ١٨٢٠ م رسومات عديدة عن
أطلال بابل القديمة .

وقد لفتت مواد كل من ك . ريج و . ر . بورتر انتباه مكتشف

نينوى عاصمة بلاد آشور الباحث العريق غ. لبيارد ، الذي قام سنة ١٨٥٠ بحفر عدة أماكن في تلال الأراضي الواقعة ضمن حدود بلاد بابل القديمة . إلا أن غ. لبيارد لم يعثر هنا لا على التماثيل ولا على النقوش الأثرية ، كما كان يتوقع بل عثر العمال فقط على « رقيعات فخارية » وأشكال نصبية وأختام الخ .

أوقف غ. لبيارد المصاب بخيبة أمل أعماله التنقيبية وحل محله منقبون ألمان وأعظمهم كان العالم ر. كولدفييه .

ففي البداية قام ر. كولدفييه برحلة استكشافية الى تلك المنطقة واليكم ما يكتب عن ذلك إ. كلينغل - براندت : « إثر عودته الى برلين مباشرة دعا كولدفييه للقيام بحفريات في تلال بابل حيث عثر هو كما عثر لبيارد من قبله على أجزاء من نقوش مطية بالحرف تعتبر حسب رأيه زينة لبناء هام ومما كان له تأثير مباشر على القيام بالحفريات أيضاً ان أهمية اسم هذه المدينة أخذت تجذب اهتماماً أكثر فأكثر . فكان أن أخذ مجمع الاستشراق الألماني المؤسس قبل ذلك الوقت بفترة قصيرة على نفقة بعض الوجوه والشخصيات الاجتماعية وكذلك الصندوق الامبراطوري على عاتقه مهمة تمويل التنقيبات وأوكلت الى روبرت كولدفييه رئاسة هذه البعثة وفي آذار سنة ١٨٩٩ توجه مع فالتر اندريه ومعاونين آخرين الى منطقة العمل .

وبعد انطلاقهم من حاب اجتازوا مع القوافل البادية السورية متجهين نحو مدينة بغداد . وفي تلك الأزمئة كان على المتقين أن يتعلموا بالإضافة لاختصاصهم فن ركوب الخيل واستعمال الأسلحة النارية ، إذ أنهم كثيراً ما كانوا يصطدمون مع محاربين من البدو الرحل » . وقد ترك لنا ف. اندريه في مذكراته وصفاً مسلياً لهذه الرحلة

التي طالت ستاً وعشرين يوماً : « لقد تحركت قافلتنا المؤلفة من ٣٠ دابة تقريباً في مسيرها وكانت الأجراس الكبيرة المعلقة في رقاب البغال تصدر ضجيجاً مزعجاً للغاية • لقد ركبنا البغال طوال النهار وعند الساعة السابعة مساءً والوقت ليلاً ممطراً وصلنا بأوساخنا الى الخان (دار للاستراحة) حيث كانت المياه متوفرة • ففي غرفة ذات جدران طينية فرشنا قراشنا السياحي ونمنا بشكل جيد • وفي الصباح حيث الظلام كان ما يزال يخيم لم يكن باستطاعتنا فك عقد البغال والخيل المربوطة وفي التاسع من شباط تحركنا نحو دير حيفا بمحاذاة الأراضي السهلية وفي أثناء الليل كان الصقيع يغطي الأراضي كلياً وفي إحدى المرات انخفضت درجة الحرارة الى ٤ - ٥ درجات مئوية تحت الصفر وبكلمة ، كانت الفروقات الحرارية بين الليل والنهار تصل حتى ٢٠° » •

بعد اجتياز جملة من الصعوبات وصل أعضاء البعثة بسلام الى بغداد وبعد عدة أيام من الاستراحة هنا توجهوا الى بابل الواقعة على بعد يقارب مئة كيلو متراً ، ولزم لاجتياز هذه المسافة مدة ثلاثة أيام أخرى •

كان ر • كولديفيه مهندساً معمارياً وقد وصل الى بابل وهو ذو خبرة وتجربة بالتنقيبات إذ انه شارك في دراسة المعبد الاغريقي القديم وفي عدد من البعثات الأثرية الى الشرق الأوسط • إلا أنه هنا في بابل عثر على عمل يكفيه مدى حياته • وتحت قيادة كولديفيه بعثت في مدينة بابل الحياة الجديدة ، وهكذا تكللت الأطلال وراحت تبوح لنا بأسرارها •

لقد بدأت الحفريات من أحد المعابد والمسمى بمعبد القصر والذي كان يسدل الستار على جزء من المنشآت الدفاعية وكذلك قصر نبوخذنصر

(من طرف البرجين الشمالي والجنوبي معاً) • وكانت الكميات الهائلة من حطام القرميد المغطى بالنقوش تدل على أنه في هذا المكان كانت تشمخ في يوم ما بناية رسمية عامة • وفي ٥ نيسان ١٨٩٩ كتب كولديفية بهذا الصدد لأحد أصدقائه : « لا زلت أحفر أربعة عشر يوماً متوالية وقد تمكنت من هذا المشروع كلياً أنت تعلم بأنني اقترحت بدء الحفريات من القصر لقرميده المنقوش والآن عثرت عليها •

يتألف القصر من برجين مستديرين وقد زين الشمالي منهما بالنقوش ، لقد بدأت العمل منه ، إذ أنه محاط بجدار ذو قياسات ضخمة • وقد بني الوجه الخارجي له من القرميد المشوي والمبني بالاسفلت وقد ملئ الجدار من داخله بالرمل النهري ، وقد كانت سماكة الواجهة الخارجية لجدار القرميد نحو سبعة أمتار تقريباً وسماكة الرمل المردوم لا زالت حتى الآن بحدود عشرة أمتار • وبالتالي كانت سماكة الجدار تزيد عن ستة عشرة متراً تقريباً ، وحتى الآن لم أصادف في حياتي مثل ذلك أبداً » •

وقد لاقى الباحثون من الصعوبات في بابل ما لم يلقوه في مكان آخر مطلقاً وقد وصفها كولديفية بتعبير صادق جداً : « إذا كان كثير من الأطلال الاتيكية مغطاة بأكوام من الحطام والأوساخ والتي يصل ارتفاعها من مترين الى ثلاثة أمتار وأحياناً الى ستة أمتار فان ما يجري هنا هو إزالة أكداش الحجارة بارتفاع اثني عشر متراً وأربعة وعشرين متراً • إن سعة انتشار الحطام تساوي تماماً لمجمل هذه المساحة الشاسعة والتي كأنها لم تسكن أبداً » •

ولقد كتب إ. أكليغيل — براندت بأن المنقبون قد كوفئوا على جهودهم باكتشافهم لتماثيل أثرية رائعة • « بعضها كان معروف من خلال التوراة أو من خلال وصف المؤلفين القدامى ، أما العثور على

البعض الآخر فكان مفاجأة تامة . ومن بين هذه المنشآت الشهيرة التي لفتت انتباه العالم وأثارت الاهتمام لدى الجميع كانت الحدائق المعلقة وبرج بابل الشهير . وفي النتيجة لم ينقب عن ما بناه الملوك كالمعابد والقصور والحصن فحسب بل وكذلك الأحياء السكنية مما ساعد على تكوين تصور واضح عن حياة سكان العاصمة . لقد عثروا فيها على أدوات الاستعمال المنزلي والزينة وغيرها وكذلك على مئات المدافن مما يقدم صورة عن طقوس الدفن وكيف أن أولئك الناس كانوا يحضرون لأنفسهم الإقامة في المدافن . لقد نقب ر . كولديفية بشكل رئيسي بابل عهد نبوخذنصر الثاني أي القرن السادس قبل الميلاد في مرحلة العظمة والمقدرة الكبرى لهذه المدينة وفي مجرى التنقيبات تمت دراسة طبقات في بعض الأماكن أقدم من ذلك بكثير تعود الى الألف الثاني قبل الميلاد إلا أن المياه الجوفية أعاقت التنقيب عنها بشكل مفصل . لذلك نستطيع الحكم على مرحلة حمورابي فقط على أساس الاكتشافات المتفرقة التي تمت بالصدفة .

لقد توقفت التنقيبات الألمانية فجأة في العراق بسبب التدخل الانكليزي أثناء الحرب العالمية الأولى ومن المساحة الشاسعة للمدينة كانت قد تمت حتى ذلك الوقت دراسة الأماكن الهامة فقط . وبعد الحرب العالمية الثانية قامت مؤسسة حفظ الآثار العراقية بإجراء بعض التنقيبات في بابل وكذلك ترميم المباني الرئيسية المكتشفة . لذلك لا زالت مدينة بابل حتى اليوم تجتذب الكثير من الزوار ولا بد من تقديم الجهود الطويلة الأمد والاعتمادات المالية الكبيرة حتى يتم تنقيب مجمل المدينة .»

لقد كانت المدينة الداخلية أي ذلك القسم الواقع ضمن سور المدينة هو القديم فيها وكان يقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات وهو

بشكل مربع غير منتظم طول ضلعه بحدود الكيلو مترين أما القسم الأقدم من المدينة فكان يقع في الجزء الشرقي منها • وقد أشاد التحصينات هنا الملكان نابو بالاصار ونبوخذنصر في مرحلة ٦٢٥ وحتى ٥٦٢ ق م فقد وسعوا المدينة باضطراد حتى وصلت مساحتها الى دائرة بقطر ٨٠ كم مثل هذه المساحة كانت تتسع لمدينتي لندن وباريس في بداية القرن العشرين •

ولا شك أن الاكتشاف الرئيسي الذي قام به ر • كولديفية هو القصر كما يسميه العرب المحليون وهو تل ذو تحصينات واسمه إميغور بيل وناميتي بيل وله حاجز ترابي كبير كانت تسير عليه المواكب حيث تقع بوابة الآلهة عشتار • وفي تل القصر عشر كولديفية تحث طبقات الرمل والحصى على قصور حمورابي وخلفائه • والى الجنوب من هذا التل تم العثور على قصر الملك البابلي نبوخذنصر وقد تم بناؤه من الطوب غير المشوي وقد قال نبوخذنصر في المخطوطة الموجودة في هذا القصر : « لقد وضعت أنا يدي حتى أبني قصراً لتقييم عظمتي في بابل » وبالإضافة لهذا القصر كان نبوخذنصر قد بني قصراً آخر وقد بناه وفق مخطوطته خلال خمسة عشر يوماً فقط •

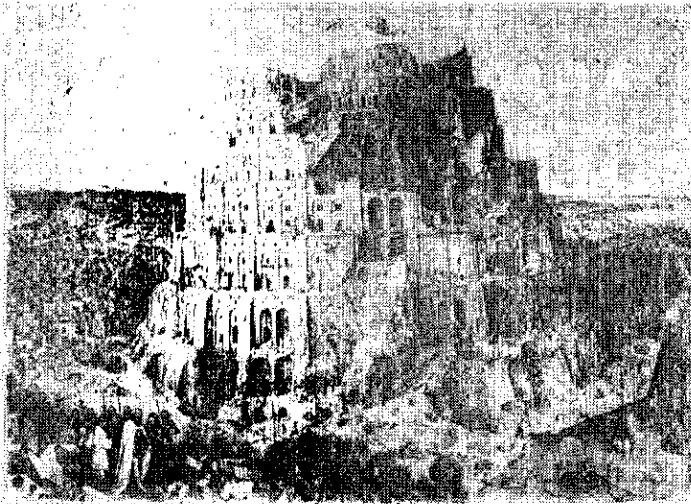
كما عثر المنقبون في الجزء الشمالي من المدينة على قصر ثالث إلا أنه صيفي حيث كانت تقع الحدائق المعلقة ذات الشهرة العالمية الواسعة وكذلك قام المنقبون بالحفريات الى الجنوب من تل القصر في المكان المسمى بتل عمران بن علي • وقد اكتشف كولديفية هنا سنة ١٩٠٠ م معبد بابل الرئيسي (إيساغيلو) لقد تم بناء هذا الحرم القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد وهدمه الملك الآشوري سنحريب •

وقد أعاد نابو بالاصار ونبوخذنصر بناء إيساغيلو مرة أخرى • كما كانت تقع بالقرب من الحرم أيضاً الزيقورات وهي برج مدرج ذو سبع

طوابق • كان يصل ارتفاعها الى مئة متر • إن هذه الزيقورات هي برج
بابل الشهير • كما عثر الباحثون في أساسات هذا البرج على كتابة
مسمارية تقول بأن هذا البرج قد بني لتصل قمته الى السماء •

بالاضافة لذلك عثر كولديفية في بابل على « رقيمات مسمارية »
عديدة تحمل رسائل وكتب ووثائق دبلوماسية وقرارات مختلفة ومقولات
وأساطير كثيرة •

وبهذا الشكل اتشمل كولديفية وزملاؤه مدينة بابل من العدم
ووضعوا مقدمات مناسبة للدراسة اللاحقة لثقافة وحياة مدينة عظيمة
العراقية • فقد برهنوا كذلك على أن تنبؤات التوراة لم تتم وأن بقدر
البشر بواسطة عملهم الواعي دحض تنبؤات العهد القديم • كما يتم
حالياً على أيدي العمال العراقيين انبعث المدينة العريقة بابل ، التي
تنبأ لها نبي التوراة ايشعيا بالهلاك ولكن لم يتم ذلك •



الباب الخامس

الامبراطورية الاشورية - بلاد الاله آشور

لقد أخضع فراورت لسيطرته شعوباً كثيرة حتى شن أخيراً الحرب على الأشوريين على أولئك الأشوريين بالبط الذين عاشوا في نينوى وسيطروا فيما قبل على الجميع .
(هيرودوت : التاريخ في تسع كتب)

كيف اكتشف الأوروبيون بلاد آشور

لقد عرف الأوروبيون بلاد آشور قديماً • وتشهد على ذلك المعطيات المتوفرة لدى مؤرخي وجواله العصر القديم • ويسكن العثور على مواد متعددة عن هذه البلاد لدى الكسندر المقدوني الذي حصل عليها أثناء حملته العسكرية على بلاد ما بين النهرين • كما توجد شواهد عديدة لدى هيرودوت (٤٩٠ - ٤٨٠ - ٤٢٥ قبل الميلاد) الذي زار بلاد آشور بعد ١٥٠ سنة خلت سقوطها • ولقد قام بوصف لباس وعادات وتقاليده ومهن الأشوريين •

وهناك مؤرخ إغريقي آخر هو السياسي والقائد العسكري كسينوفونت (حوالي ٤٣٠ - ٣٥٥ - ٣٥٤ ق م) المشارك في حملة كبير الأصغر ضد أرتوكسيركس الثاني (وهو ملك فارسي من سلالة الأخمينيين) فقد كان كسينوفونت أحد القادة الذين أمروا أمروا بانسحاب عشرة آلاف مقاتل من المرتزقة الإغريق من ضواحي مدينة بابل والتمركز في أراضي بلاد آشور للتربص بميديا • فلقد قابل السكان الأشوريين في مدينتي كلخو ونيوى وسمى هاتين المدينتين بأسماء لاريسا وميزوبيل (*) على التوالي •

(*) وتعني بالآغريقية : لاريسا أي الروح التي تبارك البيت والعائلة
أما ميزوبيل أي بين الشطين - المترجم

ففي أثناء حملة الكسندر المقدوني الشهيرة على بلاد الرافدين القديمة ضد الملك الفارسي داري الثالث (داريوس الثالث) هجرت معركة دامية عند غاغاميليا بالقرب من مدينة أربايلو .
 وفي وصفه لحملة الكسندر العظيم كتب المؤرخ الأغرقي إرياذ « ٩٥ - ١٧٥ م » واصفاً حملة الكسندر العظيم بأنه بعد أن عبر نهر دجلة وأراح جيوشه « ٠٠٠ زحف من خلال بلاد آشور ، وكانت على يمينه جبال الهوردي وعلى يساره نهر دجلة » .
 وبعد احتلاله لبلاد الرافدين أخذ الكسندر المقدوني يبنى المنشآت المائية ويرمم القديمة منها مستخدماً بذلك عمل الآشوريين بشكل قسري .

كما وصف العالم الاغرقي الجغرافي والمؤرخ المشهور سترابون (٦٤ - ٦٣ ق م٠ وحتى ٢٢ - ٢٤ ميلادية) عاصمة الآشوريين القديمة مدينة آشور . ففي عمله (الجغرافيا) في ١٧ كتاب أشار الى أن سكان هذه المدينة أعيدوا الى هناك بعد احتلال بلاد الرافدين من قبل الملك الفارسي كير الأول فهم الذين أعادوا ترميم معابد الإله آشور وسجدوا له .

وتجول المؤرخ الاغرقي ديودور الصقلي (حوالي ٩٠ الى ٢١ ق م٠) كثيرا وكانت حصيلة تجواله وملاحظاته مؤلف « المكتبة التاريخية » . وقد تألف هذا العمل من أربعين كتاباً وصلنا منها كما ان الكتب من الأول وحتى الخامس ومن الحادي عشر وحتى الثاني والعشرين . وما تبقى وصلتنا مجزأة . فقد وضع ديودور المقام في كتبه هذه تاريخ الشرق القديم واليونان وروما منذ أقدم العصور وحتى القرن الأول قبل الميلاد . وتحتل المعلومات عن حياة الملكة الاشورية سميرأميدا وعن الحروف المسماية « الاشورية » على

الرقيمات الفخارية مكاناً واسعاً في مؤلفه هذا ، فهذه المعلومات وغيرها من معلومات الفلاسفة والكتاب والشعراء الاغريق وفيما بعد الرومان الغدامي عرّفت عالم العصور القديمة على بلاد اشور .

ومن بين الأوروبيين عمل العلماء والكتاب والشعراء الروس كثيراً على نشر المعارف عن بلاد اشور وما بين النهرين . ومع ذلك فإن مساهمة الروس في أبحاث بلاد الرافدين القديمة تكاد لا يذكرها أحد وإذا ذكرت فبإجاز شديد . لذلك رأينا من المفيد ذكر ما قدمه الباحثون الروس في دراستهم لبلاد ما بين النهرين . وجدير بالذكر بأن مؤلفاتهم المكتوبة عن الحضارات القديمة ظهرت قبل مؤلفات الأوروبيين الغربيين .

فلنأخذ على سبيل المثال الرواية المنسوبة لزمان حكم فلاديمير أمير دولة كييف - روس . فكما هو معروف بأن فلاديمير قبل أن يأخذ الأرثوذكسية من بيزنطة معتقاً لدولته ، فكر ملياً ووزن كل الأمور التي هي « مع » أو « ضد » ذلك . فأرسل سفراء إلى دول عديدة من العالم بهدف دراسة الديانات لاعتناق إحداها والتي هي أكثر مناسبة لروسيا . ومن بين الدول والمدن التي زارها السفراء الروس كانت بلاد الرافدين ومصر وروما وأورشليم وبابل . كذلك أرسل القيصر الكسبي ميخائيلوفيتش في مرحلة حكمه سنوات (١٦٢٩ - ١٦٧٦ م) إلى دول المشرق ناسك « غار ثالوث سيرغي (★) » .

(*) غار ثالوث سيرغي - كان دير للناسكين في مدينة سوزدال (حالياً) وتبعد مسافة ٧٠ كم شمال مدينة موسكو . أسسه

سيرغي رادونيجسكي في أواسط القرن الرابع عشر ميلاداً . لعب دوراً هاماً في الحياة السياسية لروسيا بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر الميلادي والآن هو المقر الرئيسي لطريقة الكنيسة الروسية الأرثوذكسية وفيه تقع الاكاديمية الروحية والدرسة الثانوية الدينية - المترجم

• سوخانوف للتعرف على المعابد المسيحية • ففي عام ١٦٤٩ م غادر
• سوخانوف موسكو متجهاً الى الشرق ، زار مجموعة من الدول
الشرقية من بينها بلاد الرافدين • وفي أثناء رحلته كتب مذكراته
اليومية « بروسكينارية » حيث تكلم للاجيال القادمة من بعده بأنه
رأى في هذه البلاد ما أثار مشاعره وأعجابه • وتحدث بدهشة كبيرة
عن الجبال والغابات والأنهار في الأرض • ويكتب عن نهر الفرات
بأن هذا النهر يجري وسط ضفاف عالية وشديدة الانحدار كما أن
مياهه غزيرة جداً •

كذلك رأى هذه البلاد إنسان روسي آخر وهو ف • دوروخين
الذي وصلها دون إرادته بل كأسير لدى الأتراك وهو « ابن العائلة
الحاكمة » لمدينة يلتسا • لقد وقع في الأسر سنة ١٦٦٠ إبان الحرب
مع الأتراك ، وبقي في الأسر طويلاً - مدة ١٧ عاماً - وبوصفه أسيراً
مطارداً من مكان لآخر تمكن من رؤية كل الامبراطورية العثمانية بما
فيها بلاد ما بين النهرين التي كانت تعتبر إحدى محافظاتها « ولاياتها » •
كما انتشرت في الفترة الممتدة ما بين القرنين السابع عشر والثامن
عشر الميلاديين اعداد كثيرة من كتب « الكسموغرافيا » وكان أضخم
هذه الكتب بعنوان « كسموغرافية العالم والدول العظمى » حيث كرست
المقدمة وهي بعنوان « عن الدولة البابلية » - لبلاد ما بين النهرين
والحضارة الآشورية - البابلية •

كذلك كان لأعمال العالم الروسي البروفيسور بريوزين ١٨١٨
- ١٨٩٦ م المدرس في جامعة قازان ومن ثم في جامعة بتربورغ
تأثيراً واسعاً على التعريف بالحضارة الآشورية • فقد صدر له
في أعوام ١٨٤٩ - ١٨٥٢ عمل « جولة في الشرق » ، حيث يصف
فيه عشوره على رقيمت مسمارية وبدراسته لها يصل الى استنتاج

مفاده : « إن الرقيمات المسمارية مقارنة بقدمها وتنوعها وأهمية أماكن العثور عليها ونظراً لأهميتها التاريخية فإنها تحتل المكانة الأولى من بين التحف الشرقية بأجملها » •

لقد شغف بربوزين كثيراً بفك رموز الكتابة المسمارية وكتب عمل « النقوش المسمارية في المنظومة الثانية » • ويعتبر العلماء هذا العمل من أهم الأعمال في فك الأحرف المسمارية •

لقد زار بيريوزين دور شاروكين - قصر سرغون الثاني حيث تقع الآن قرية خورساباد • كما أنه أصبحت مكتشفات العالم الأثري الفرنسي ب • بوتام معروفة الآن ويعرض الكثير منها للمشاهدة • لقد درسها بيريوزين بعق وتوصل الى استنتاج أن : « هذه التكوينات تنطق بحيوية لصالح الفن الاشوري، حيث حفرت هنا انتصارات المحارب الشهير بن رفيع المستوى يزهو على جدران مدينة بيرسيوليس حتى لو أن رخاوة الحجر الموصل يسهل العمل فيها ، وقد نقشت على بعض القلاع كتابات مسمارية مختلفة وعلى ما يبدو أنها تعني أسماء تلك القلاع لذلك إن إمكانية قراءة الأحرف المسمارية الآشورية تعتبر محتملة جداً » •

لقد اعتبر العلماء الروس أن المسمارية تخبىء في جوفها ثراء ضخماً وأسراراً كبيرة قادرة على أن تكشف للبشر ماضيهم وهذا يعني الفهم الجيد للحاضر والمستقبل • ومن بين هؤلاء العلماء يسكن تسمية ف • ديتيل « ١٨١٦ - ١٨٤٨ م » بروفيسور اللغة التركية في جامعة بتربورغ • لقد قام هذا العالم برحلات عديدة الى بلاد إيران وسورية وتركيا وفلسطين ومصر والى دول أفريقية أخرى • كما قضى فترة طويلة في بلاد ما بين النهرين • في مواقع مدينة نينوى (الموصل - حالياً) ودرر شاروكين المكتشفة من قبل ب بوتام •

وهنا كان من أوائل الرحالة الذين شاهدوا غنى الملك الآشوري سرغون الثاني. فقد راح يدرسها واقترح على العالم الأثري الفرنسي بأن اكتشافه لا ينسب للعاصمة نينوى بل لمدينة ما غيرها . إلا أن بوتنا لم يتفق معه على ذلك وأعتبر نفسه مكتشف نينوى واتضح أن ديتيل هو أكثر حداقة وأحق ، إذ أن المكتشفات اللاحقة للأثري الانكليزي غ . ليبارد أكدت استنتاجه هذا .

أما توقع ف . ديتيل الآخر كان اشارته الى التلال الواقعة بي محلة نرود على بعد ٤ كم الى الجنوب من مدينة الموصل . فبرأيه أن هذه التلال تخبئ أسراراً أهم من تلك التي اكتشفها بوتنا . ففي ملاحظاته التجوالية كتب ديتيل بأنه كان مندهشاً بالحطام المنتشر على مدار التلال هذه مما دفعه للتنقيب في تل نرود .

هكذا نرى أن العالم الروسي سبق الانكليزي ليبارد بفترة طويلة في اكتشافه لتل نرود ، ذلك التل الذي كانت تقع عليه إحدى أقدم عواصم الدولة الآشورية ألا وهي مدينة كلخو .

وبكل ثقة يمكن وضع اسم ن . ليخاتشوف (١٨٦٢ - ١٩٣٦) في مصاف أولئك الذين عرفوا روسيا وعالم علمائها بإبداعات الشرق وبلاد الرافدين . فمثلا تعتبر أعماله في أصول الكتابة وإشاراتنا مرجعاً هاماً في تأريخ التدوين . لقد جمع أجداده أكبر مكتبة في القرن السابع عشر في روسيا وراح هو يزيد محتوياتها أكثر فأكثر حتى ضمت رقيمات مسمارية (كتب فخارية) . لقد وضعت هذه « الكتب الفخارية » المجلوبة من بلاد ما بين النهرين تحت تصرف (شيخ) الأسيرولوجيا الروسية ن . نيوكولسكي (١٨٤٨ - ١٩١٧) الذي جعل روسيا إحدى المراكز الرئيسية لدراسة التأريخ الآشوري . لقد قام هذا الأخير بعمل ضخم في مجال المقارنة والتناظر في المسمارية

السومرية والكتابة التصويرية ونشر ما يقارب - ٩٠٠ - لوحة
مسمارية في الحسابات الاقتصادية التي تسبب للآلاف الثالث قبل
الميلاد، وبدأ يدرس منابع ظهور الكتابة المسمارية *

ومن بين أعماله يمكن ذكر « النقوش المسمارية فيما وراء
القفقاس » « وثائق الحسابات الاقتصادية في عصور كلدو القديمة
من مجموعات ن * ليخاتشوف » (مهام العلوم الأثرية والتاريخية
الروسية في فلسطين وما بين النهرين وفقاً للأحداث العالمية المعاصرة)
« بابل القديمة » وكثير غيرها *

كما يسكن ذكر العالم الروسي ف * غولينيشف (١٨٥٦ -
١٨٤٧) الذي هاجر الى مصر عام ١٩١٥ وأصبح مدرّساً في جامعة
القاهرة * ومن أهم كتبه « تجربة وضع جداول المعجم الآشوري »
وغيره *

وقد ربطت ف * غولينيشف أواصر صداقة وتعاون وعلاقات
حسنة مع المستشرق الروسي الكبير ب * طورايف (١٨٦٨ -
١٩٢٠) الذي يعتبر مؤسس المدرسة الوطنية لتاريخ وأدب الشرق
القديم * إنه صاحب العمل الخالد كتاب « تاريخ الشرق القديم »
كما أن إحدى اكتشافاته هي استنتاجه بأن سكان نينوى وأشور
لم يبادوا ولم ينتهوا دون أثر يذكر ، لقد كتب بأن « نينوى واشور
لم يمحو عن وجه الأرض كما يروق للبعض الحديث عن ذلك ،
فبالاستناد للمعلومات الأولية لدى كسينوفونت الذي لا يحدد موقع
نينوى في « أواباسيس » يؤكد بأن اشور في حفاظها على تسميتها
أثور كانت إحدى المقاطعات الفارسية ومدينة نينوى ظهرت إبان حكم

الباطرة الرومان بشكل مستعمرة عسكرية Claudiopoli Ninevia
ومن جملة الشعراء الروس الأماجد الذين عرفوا روسيا بالتاريخ

الآشوري - البابلي نذكر ف • بريوسوف (١٨٧٣ - ١٩٢٤م)
صاحب قصيدتي « أسر حدون » و « الراعي الكلداني » هاتان القصيدتان
ترجمتا الى لغات عالمية عديدة نرد بعضاً من إحداهما :

أسر حدون ، نقش آشوري

أنا قائد ملوك الأرض أنا الملك أسر حدون

إليكم أيها السلاطين والقادة أقول : اللويل

في لحظة استلامي السلطة ، خيم فوقنا « سيدون »

سيدون بطحته أرضاً ورميت الحجارة الى البحر

ولمصر أصبح كلامي قانوناً

وأبنت لعيلام مصيرها بنظرة واحدة

وأشدت عرشني الكبير على عظام الأعداء

إليكم أيها السلاطين والقادة أقول أنا : اللويل

فمن سيسبقني ؟ ومن له أن يكون مثلي ؟

فمآثر الناس جميعها هي كظل في حلم عابر

التفكير بالمآثر هو كتسلية طفولية

لقد اجتثت حتى القاع كل المجد الأرضي

وها أنا أقف وحيداً مرتو بالشموخ

أنا قائد ملوك الأرض ، أنا الملك أسر حدون

وهكذا باختصار كان دور العلماء الروس في دراسة بلاد ما بين

النهرين كما كانت هذه حكاية تأثير ثقافة بلاد اشور وبابل على

ثقافة روسيا •

والآن سنتكلم عن العلماء الأورويين كيف اكتشفوا بلاد الرافدين

القديمة • وبودنا قبل كل شيء أن نبدأ ذلك بقصة الايطالي بيترو

ديل فاللي الذي جاء ذكره فيما سبق •

ففي عام ١٦١٤ قام ب . فاللي بزيارة الى دول الشرق بدءاً من تركيا وعبوراً بمصر وإيران وحتى الهند . وأثناء رحلته كان يبعث بالرسائل عن انطباعاته الى أصدقائه ومعارفه وحين عودته الى إيطاليا يصدرها في كتب وثقائية .

وفي عام ١٦١٦ زار فاللي بغداد (المركز السياسي لبلاد ما بين النهرين) وطالت زيارته لها . فهناك تعرف على فتاة آشورية تدعى ماريًا وأحبها حباً جماً وطال في إقناع أهلها للزواج منها . لقد كان أهلها من أتباع الكنيسة الشرقية . إلا أن حياتهما معاً لم تدم طويلاً فقد توفت ماريًا أثناء الوضع ، لقد أحبها بتفان حتى أنه قرر عدم التخلي عنها حتى وهي ميتة فطلب منه دهنت جثتها بالباسم وأخذها معه الى إيطاليا حيث طال طريقه مدة خمس سنوات كاملة .

يعتبر ب . فاللي أحد الأوروبيين الأوائل الذين أشاروا بنقطة الى موقع مدينة بابل وقاموا بعمل ناجح في فك رموز الأحرف المسامرية .

وكما يلاحظ العالم الألماني إ. دالخورف : « تشهد المحاولات المتعددة لاستنباط استنتاجات ما من تكرار بعض الاشارات على أن ب . فاللي - طبعاً بشكل لا إرادي - استخدم طريقة مركبة لفك الرموز ، ونتيجة لرحلته المعرفية ولمساهمته الأخرى اختير هذا الباحث ليكون ضيف الشرف لدى البابا أوربان الثامن في روما .»

وحين عودته الى وطنه أخذ فاللي معه « كتباً فخارية » ، رقيمات ذات كتابة آشورية - بابلية مسامرية . ونشر إحدى هذه النقوش في كتابه وللاستطلاع نرد هنا جزءاً منها : -



إن ب. فاللي يشر الى اللغة التي تعود إليها هذه الكتابة .
وبعد التثبت من مقاييس رموزها فقط . يقدم افتراضاً بأنها شبيهة
بالرموز الأوروبية مفككة الواحدة عن الأخرى وغير متصلة في كلمات
وفي أماكن كثيرة في هذه الكتابة تتكرر مجموعة من الرموز . هذه
النقوش هي أولى النصوص المسماية التي تعرف عليها الأوروبيون
وأشار ب. فاللي بأنه تجب قراءتها من اليسار الى اليمين .

وفي عام ١٦٣٤ م تتعرف أوروبا ثانية على الأحرف المسماية
في النصب الآشورية - البابلية وهي على شكل نصوص مؤلفة
من ثلاث سطور نسخت أثناء رحلة الانكليزي ت. هربرت الى الشرق
الأدنى . لقد نشر هذه النصوص المؤلفة من ثلاثة سطور في كتابه
الذي صدر في لندن . ففيه يحكي هربرت الى جانب انطباعاته عن
مشاهداته هناك بأنه قدم وصفاً لمدينة بغداد ومقاطعات أخرى من
بلاد ما بين النهرين .

لقد كتب ت. هربرت في كتابه بأن الآثار الشرقية تسرق وتهدم
ويجب انقاذها إذا أردنا أن نحافظ عليها للأجيال القادمة .

لقد كان يشجع الولوج بالشرق وبالآثرية الشرقية في ذلك
الزمن بكل السبل . إن اكتشاف بلدان جديدة وشعوب أخرى لم
يلفت انتباه العلماء فحسب بل ورجال السلطة أيضاً ، هذا مما جعل
الملك الدانمركي فريدريك الخامس أن يرسل في عام ١٧٦١ م بعثة
الى الجزيرة العربية والى بلدان مجاورة أخرى . كانت البعثة مؤلفة
من خمسة أشخاص برئاسة ك. نيبور (١٧٣٣ - ١٨١٥) ابن الأسقف
وأب المؤرخ الشهير المقبل ب. نيبور .

بالاضافة له دخل في عداد اللجنة كل من البروفيسور فهاغن
الأخصائي في اللغات الشرقية والطبيب ه. كرامير والفنان والحزفي

غ • باورينفايند والبروفيسور ب • فورسكول الأخصائي في التاريخ الطبيعي •

لقد انطلق أعضاء البعثة هذه في بداية عام ١٧٦٠ من كوبنهاغن بجرأ إلى القسطنطينية ومنها إلى القاهرة فقط في عام ١٧٦٢ وصلوا إلى اليمن التي كانت الهدى الأساسي للرحلة وهنا في مدينة مخا تبدأ سلسلة الحوادث المأساوية لديهم فيتوفى أعضاء البعثة الواحد تلو الآخر ففي ٥ أيار ١٧٦٣ يتوفى البروفيسور هافن وفي ١٠ تموز في مدينة بامير يتبعه البروفيسور فورسكول ثم يليهما بالوفاة الفنان باورنفايند بتاريخ ٢٩ آب أثناء إبحارهم إلى الهند أما أكرامير فيتوفى بتاريخ ١٠ شباط ١٧٦٤ في مدينة بمباي في الهند وبقي نيبور وحيداً • وبغض النظر عن الألم الذي ألم به يقرر كرامير متابعة برنامج البعثة وهو الرحلة من بمباي إلى البصرة المرفأ الجنوبي لبلاد ما بين النهرين ومن ثم الإبحار إلى الدانمرك عبر مرفأء سورية •

ونعشر عليه مرة أخرى في إيران في آذار عام ١٧٦٥ بين أطلال مدينة بيرسينبوليس العاصمة القديمة للملوك الفرس والتي أحرقتها قوات الكسندر المقدوني إنه ينسخ في إيران وفي بلاد ما بين النهرين كل ماهو مدهش من الرقيعات الفخارية السامرية • لقد جمع منها كميات كبيرة فاقت كل ما جمعه العلماء الأوروبيون من قبله •

وبعد سنتين من ذلك يصل ك • نيبور إلى بلاده بسلام ويجلس ليخط كتاباً عن رحلته ويعد عملاً تحضيرياً لنشر مذكرات البروفيسور فورسكول • لقد اختار لكتابه الذي خرج بجزأين في سنوات ١٧٧٤ و ١٧٧٨ عنواناً « مساهدات رحلة في الجزيرة العربية ودول مجاورة أخرى » • أما الجزء الثالث فقد رأى النور بعد وفاته سنة ١٨٣٧ وهو بعنوان « رحلة في سورية وفلسطين » • ففي بعض

النقوش الفخارية المجلوبة الى الدانمرك رأى نيور أنه يوجد ثلاثة أنواع من اخلطوط المسمارية وقد اتضح فيما بعد أن احداها نصوص فارسية وأخرى عيلامية وثالثة آشورية - بابلية ويتشابه النوعان الأولان مع الكتابة الآشورية - البابلية المسمارية كان ذلك اكتشاف عظيم استخدمه فيما بعد العلماء الأسيولوجيون في فك رموز الكتابة المسمارية •

وبعد رحلة نيور وصل الى بلاد ما بين النهرين - وبالأحرى - عمل فيها أسقفاً لدى الطوائف المسيحية الكاثوليكية أحد الاباء الفرنسيين منذ سنة ١٧٨١ وحتى سنة ١٧٨٥ م • حيث جمع الكثير من الرقيعات والاسطوانات وحطام الجرار وأرسل الجيد منها الى فرنسا •

أما الخطوة اللاحقة في تكديس المعلومات في أوروبا عن بلاد الرافدين فقد قام بها « بهلوان الشرق » - كما سموه - الانكليزي ك.ج. ريج وكيل شركة (أوست ايندين كومباني) في بغداد • ففي عام ١٨٢٠ وضع خطة عمل له بالقرب من الموصل على نهر الدجلة وقام باجراء الحفريات والتنقيبات وعثر على الكثير من الرقيعات « والنوحات الفخارية » وغيرها بالاضافة لذلك وضع ريج كتاباً ومذكرات عن بلاد الرافدين •

لقد أيقظت الكتب والمنشورات عن أثريات بلاد الرافدين الحكومات في فرنسا وانكلترا والمانيا وفيما بعد الولايات المتحدة لارسال بعثاتها العلمية الى هناك • وعلى إثر ذلك افتتحت الحكومة الفرنسية في الموصل ملحقة قنصلية وعينت فيها الرحالة المحرب والذي يتقن اللغة العربية ب بوتا الايطالي من تورينو •

كما أن كتب ريج جعلت غ. ليارد الفرنسي الأصل والبريطاني الجنسية أن يقوم برحلة الى بلاد ما بين النهرين ويطلب من السفير

البريطاني لدى الامبراطورية العثمانية تمويل مشاريع التنقيب عن الآثار في بلاد الرافدين .

بعد موت ريج المفاجيء والمأساوي إثر اصابته الكوليرا قامت أرملته بنشر كتبه ، التي ضمنها نسخ يدوية عن النقوش المسنارية . وعندما طالع العالم الفرنسي يو . مول هذه الكتب وصل الى استنتاج دفعه كي يتوجه الى حكومته يطلب بدء التنقيبات الأثرية لمدينة نينوى عاصمة بلاد آشور الواقعة على مسافة غير بعيدة من مدينة الموصل الحالية . إذ أن مقتنيات ريج تدل على أنه قد عثر عليها وبقي حفرها فقط .

لقد كان استنتاج مول ضرورة إرسال بعثة أثرية فرنسية بصورة مستعجلة الى هناك والقيام باكتشاف بلاد آشور لفرنسا . وقد اقترح أن يرأس البعثة الايطالي ب بوتنا الذي كان له سنوات طويلة في فرنسا .

حيث حصل هنا على التعليم العالي وأصبح طبيباً وينهي دفاعه عن أطروحته في دراسة اللغة العربية . وفي أعوام ١٨٣٠ - ١٨٣٣ أصبح ممثلاً دبلوماسياً لفرنسا في مدينة الاسكندرية وفي عام ١٨٣٦ قام برحلة الى اليمن بتكليف من ادارة حديقة النبات الباريسية . وهكذا ، عندما حان الوقت لاختيار من سيرسل الى بلاد الرافدين فالرأي كان موحداً حول ب بوتنا الدبلوماسي المحنك والخبير بالبلدان العربية .

يتجه ب بوتنا مباشرة الى الموصل وبعد فترة وجيزة يكون جاهزاً على رأس عمله في أماكن التنقيب . وبعد عدة أيام من الحفر استباقت لبوتنا المندهن صالات لمجمع سكني كبير ، بالضبط إنّه كما توقع . قصر ملكي ولاشك . لقد كشف الخندق المحفور للعالم الأثري مقطعاً

حجريا منقوشاً على الجدران بـ صور احتفالات رسمية ولأناس راكعين أمام الحاكم • إن وجود صورة الانسان منقوشة على هذه المقاطع هي التي أثارت الدهشة والاعجاب ، ومن الممكن أن يكون هذا الانسان هو الملك •

لقد كان مصوراً بمقطع جانبي ذو لحية كبيرة سوداء مجمدة جميلة وشعور مسترسلة حتى الكتف كذلك كانت مجمدة • وكان عنده كاسية للرأس كبيرة الحجم تشبه التاج إلا أنها كانت بشكل مخروطي • وقد زينت وجهه عينان كبيرتان وفي شحمة أذنيه حلق ينتهي بصليب معقوف ، لقد افترض ب بوتان أن أمامه أحد الملوك الآشوريين ، أما القصر الذي عثر عليه فهو ديوانه في نينوى • هذا مما دفعه لارسال برقية الى أكاديمية العلوم في باريس يعلمهم بأنه اكتشف نينوى • لقد أثارت اخباريات ب • بوتان ضجة كبيرة في عالم العلوم •

لقد لفتت أعمال ب • بوتان وكتب ريج اتباه الحقوقى الشاب اللندني غ • ليارد الى نفسها • وهكذا رفع ليارد أعماله الحقوقية وسافر الى الشرق الأدنى مرتين سنوات ١٨٤٠ و ١٨٤٢ م • وفي عام ١٨٤٥ م بدأ ليارد أعمال التنقيب عن المدينة الأثرية كالكخو (نمرود حالياً) •

لقد كانت العاصمة الثانية لبلاد آشور وتبعد ٤٠ كم جنوب - شرقي دور شارواكين • وفي اليوم الثالث من العمل تحل للعالم ليارد نجاحاً باهراً ، لقد كشف العمال العرب في أعماق التراب عن تمثال أسد بحجم كبير وذو رأس بشري لقد فروا هارين من رعبهم وبصعوبة أقنعهم ليارد ليتابعوا أعمال التنقيب • وهكذا كان بانتظار ليارد سلسلة من النجاحات في عام ١٨٤٦ وكان أولها صخرة من البازلت

الأسود وقد نقشت عليها خطوط مسمارية ولوحات تصويرية كبيرة • أما الاكتشاف الآخر فكان في مدينة كلخو • حيث عثر على مسلة منقوش عليها رسم الملك الآشوري شمشي أداد الخامس الذي حكم في القرن التاسع قبل الميلاد • لقد حمل شمشي أداد الخامس على تاجه صورة القمر (الاله سين) ونجمه الآله عشتار (فينوس) • وعدا ذلك كان على صدره صليب مما أثار دهشة ليارد وزملائه ، إذ انهم يدركون أن الصليب هو رمز الديانة المسيحية وليس رمزاً للوثنية • لقد ضب ليارد هذه الآثار وغيرها بشكل جيد وأرسلها الى المتحف البريطاني في لندن • كل ذلك بعث السعادة الى قلب ليارد إلا أنه يدرك أنه لم يعثر على نينوى لذلك يشتد توقفاً نحو الهدف ، لقد جذبه تل كوينجوك ذلك الركام الضخم بطول يزيد عن ٨٠٠ م وعرض ٥٠٠ م وارتفاع ٣٠ متراً • لقد بدأ التنقيب هنا بالضبط ب • بوتاً الذي حفر خنادق عديدة وغير أماكن الحفر باستمرار ولكن دون جدوى •

باشر ليارد التنقيب في كوينجوك وهو يحمل تجربة التنقيب في كلخو فراح يحفر خنادق عميقة ولم يجعله النجاح ينتظر طويلاً • لم يمضي شهر حتى تمكن من العثور على تسع صالات من قصر ، لقد كانت مواضع اللوحات الصخرية من أشخاص وحيوانات وطيور ومناظر أخرى تشبه ما اكتشفه في كلخو كالتوأم ، حينها كان ليارد أول أوروبياً تظاً قدماه قصر آشور ناصير بعل الثاني وسلمنصر الثالث والآن في كوينجوك أصبح ليارد أول من دخل قصر سنحريب وشمشي أداد الخامس وأشور بانبل • إن الملك الآشوري سنحريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق م) لم يرغب بأن تكون مدينة كلخو عاصمة شور وقرر نقلها الى نينوى • وإبان حكمه تحولت القرية الصغيرة المتواضعة والمليئة

في الألف الخامس قبل الميلاد الى عاصمة لدولة عظمى في العصور
 الغابرة ألا وهي آشور . فقد ضرب حول نينوى سوراً ضخماً بارتفاع
 ٣٠ متراً وبطول ١٣ كيلو متراً وله ١٥ بوابة ، ووضع أمام كل
 منها نصباً لثور مجنح ذو رأس بشري كي يجرسوا الهدوء والأمن
 في مختارته نينوى ، كما أنه اهتم أيضاً بالألا تفرق مياه نهر دجلة
 العاصمة في فصل جريان السيول لذلك قام بتحسين ضفاف النهر
 بقوالب وصخور وحجارة كبيرة ، أما في المدينة فقد أمرر نهو خوسير
 الذي كان يجري في ١٦ قناة متوازية ، فليروي ظملاً السكان والأشجار
 والحدائق بالمياه الجبلية الباردة وألا يغرق المدينة يوماً ما . فقد
 شيدت المدينة وشوارعها وبنيت وفق مخطط خاص موثق من المنك
 نفسه وقد سمى الشارع الرئيسي فيها بالشارع الملكي فقد كان
 عريضاً ومستقيماً زرعت بمحاذاته أشجار كثيرة وكان يؤدي في النهاية
 الى القصر الملكي الذي ضم ٨٠ غرفة باستثناء غرف الخدم .

وهكذا تم اكتشاف نينوى على يدي لبيارد وتلميذه خ . رسام .
 وفي عام ١٨٥١ م يصدر لبيارد كتاباً عن ذكرياته أثناء التنقيب بعنوان
 (نينوى وبقاياها) وفي السنة اللاحقة لاصداره يترجم الى عدة لغات
 عالية .

بالإضافة لذلك يصدر هذا العالم كتباً أخرى مثل (نينوى وبابل)
 المغامرات المبكرة في بلاد فارس وسوزي وبابل . توفي لبيارد سنة
 ١٨٩٤ م عن عمر يناهز ٧٧ سنة وكان من بين مشيعيه تلميذه الآشوري
 الأصل خ . رسام النبي أنهى دراسته في جامعة اكسفورد وعاد الى
 وطنه في بلاد ما بين النهرين الى مدينة الموصل . وهكذا أصبح أول
 آشوري مختص بالتاريخ الآشوري (الأسيولوجيا) وأصبح بإمكانه

قراءة الخطوط المسمارية لذلك يكلفه المتحف البريطاني بتابعة اجراء التنقيبات في اطلال نينوى .

وهنا يضع رسام لنفسه هدف العثور على قصر دورشاروكين :
« دار المواعظ والنصائح » كما سموه حينذاك ، وقلما أثار اهتماماً
للوحات الصخرية والنفائس المصنوعة من الذهب والعاج .

كان عليه العثور على مخبأ الحكمة الآشورية - البابلية القادرة
على كشف أسرار الأزمنة الغابرة لهذه البلاد ، ألا وهي مكتبة آشور
بانيبعل ويبحث عليها فعلاً . وبغض النظر عما كتب على (الكتب الفخارية)
لهذه المكتبة التي ضمت ثلاثين ألف كتاب من تهديد ووعيد وكلام
مثل : (كل من يتجرأ على إخراج هذه الرقيبات ... فليعاقبه آشور
بكرهيته وكذلك يبلت ، أما اسمه ونخلفاؤه فليطوهم النسيان في
هذه البلاد) . وهكذا يدخل نخ . رسام هذه المكتبة قبل غيره سنة
١٨٥٤ .

لم يكن رسام رجلاً شكوكاً إلا أنه كانت تتنابه دائماً فكرة آشور
بانيبعل بالتحذير من إخراج الرقيبات وإخلاء مكتبته كلياً . ومع ذلك
كان يرسل باستمرار شحنات من « الكتب الفخارية » الى المتحف
البريطاني . وفيما بعد ، ولما أصبح دبلوماسياً انكليزياً لدى الامبراطورية
الأثيوبية أمضى أربع سنوات طوال في سجن هذه البلاد لأنه طلب
من الامبراطور الأثيوبي اخلاء سبيل الجنود الانكليز الأسرى لديه ،
حينها تذكر باستمرار كلام آشور بانيبعل .

يدعى رسام بعهد خروجه من السجن للعمل في المتحف البريطاني
بصفة حافظ . وهناك يفكر بالكتابة عن مشاركته في التنقيبات الأثرية
في بلاد الرافدين . ويتحقق حلمه هذا سنة ١٨٩٧ ويخرج كتابه
« آشورية وأرض نمرود » الى النور .

مدن بلاد آشور وكنوزها

لقد ضمت مدن بلاد آشور كنوزاً فريدة من نوعها ، صنعتها أيدي الكادحين الآشوريين أعداد عديدة من العبيد . واستثمر الملوك الآشوريون الحربيون شعبهم وأسراهم أشجع استثمار في بناء القصور والطرق والجسور لتمجيد فخامتهم وتخليد اسمهم . لقد عمل آلاف من الفنانين والنحاتين والحجارين والحرفيين وصانعي السجاد والزجاج والسلاح والحدادين والتجارين ليل نهار ليلبوا طلبات البلاط الملكي ومن أجل لقمة خبزهم . لقد ظن الملوك أنهم يقولون منقوشين في الصخر والمرمر وفي اللوحات الى الأبد وأنه لن تتكلم الأجيال القادمة إلا عنهم فقط .

ولكن ، من خلد نفسه هم أولئك العاملون المهرة في بلاد آشور وتذكرهم حصراً عندما تتمتع برؤية نصب رائع لحضارة تلك الدولة القديمة . وتساعدنا الاكتشافات الأثرية أكثر في التعرف بعمق وتنوع على ما خلقته أيدي أولئك المهرة في العواصم الأربع لدولة آشور القديمة وأولها وأقدمها هي مدينة آشور وبعدها كلخوث ثم نينوى وأخيراً دورشاروكين . بهذا الترتيب بالضبط تناقل الملوك عواصم البلاد .

ولكي نقوم برحلتنا في هذه العواصم بنجاح سننطلق من أطلال مدينة نينوى (الموصل - حالياً) مع جريان نهر دجلة الى الأسفل وبعد ١٠٠ كم تقرب من موقع أول عواصم بلاد آشور ، وإذا نظرنا الى خريطة بلاد ما بين النهرين فإنه يمكن التبين من أن موقع مدينة آشور أكثر جنوباً من العواصم الأخرى لأشور وتقع على نهر دجلة أيضاً .

مدينة آشور (قلعة شركت - حالياً)

إن هذه المدينة هي مهد الشعب الآشوري وقد سميت بهذا الاسم على شرف الإله آشور ، وإن سكان هذه المدينة هم الساميون القادمون الى هنا من شبه الجزيرة العربية ومن سورية وأقاموا هنا وراحوا يعبدون الإله آشور وباسمه سمووا بالآشوريين (آثورايه) .
لقد بنيت هذه المدينة على تل صخري وعلى الضفة اليمنى لنهر دجلة الى الأسفل قليلاً من التقائه بنهر الزاب الأكبر وهنا في هذه المدينة أشاد الساميون المعابد لالههم آشور .

ويرجع أحد النقوش المسمارية لهذه المدينة الى مرحلة حكم الملك الآشوري شمشي أداد الأول الذي عاش حتى سنة ١٨٣٥ ق م تقريباً والذي يسمي نفسه فيه بـ « ملك العالم » . وهنا يتكلم عن انتصاراته في بلاد لبنان الواقعة على شاطئ البحر العظيم (البحر الأبيض المتوسط - حالياً) .

وبوقفة على أطلال مدينة آشور على أن نساهم - ولو ذهنياً - في تلك الأعمال التي قام بها الآثاريون بما فيهم غ . ليارد . إن هذا التقصص الحي سيساعدنا في تصور الصعوبات التي صادفها أولئك العاملون هنا . لقد قام ليارد وزملاؤه ومرافقوه بأعمال مضيئة ، وخطرة ولكن بنفس الوقت هامة جداً للعلم . وبعد ليارد تابع أعمال التنقيب هنا كل من نخ . رسام والعالم الأثري الألماني ف . أندريه ، والأخير يصف لنا الصعوبات الجمة التي صادفها القادمون الى مدينة آشور من العلماء والعمال .

وبغض النظر عن الظروف اللاإنسانية تابع ف . أندريه الأعمال المباشرة بها من قبله وحفر مدينة آشور وعثر على قصور جديدة

للملوك الاشوريين . لقد كانت هذه القصور مكسية بالواح من المرمر ذات مقاييس كبيرة ملونة بالأحمر - الأرجواني وزواياها مقلمة بالأبيض والأسود ، ونشاهد على هذه الألواح إبداع مخلوقات ذات رؤوس نسور وبشر . ومع ذلك فإن الرؤوس البشرية مزينة بالقرون على شرف الشهر الفتي الذي اعتبر مقدساً ، وبين يدي أحد هذه المخلوقات يقف جدي الماعز .

لقد تسكن أندرية من قراءة الكتابة المسامرية وحاول ترجمتها وقد قرأ إحدى هذه الكتابات المنقوشة على عمود والعائدة لمرحلة حكم الملك الاشوري تقلت - نينورت الأول وتعني (أملي هو أن أكون سيد الأرض) . وعلى هذا العمود أيضاً وجدت نقوش لأشخاص يحملون بأيديهم رايات وطارات ليست ذات أربعة أشعة بل ذات ثمانية .

وبعد ذلك عشر في مدينة أشور على أضرحة للدفن ، كانت هذه غرفاً بطول ٧ أمتار وعرض كذلك وذات أسقف مقنطرة لارتفاع ٤ أمتار وعلى الجدران عملت رفوف لوضع الفوائس .

وفي أحد الأضرحة تم العثور على تابوت حجري مخرب ، ومسروق ويحتمل أن يكون ضريح ملكي مع تابوت ملكي (مفجر) بواسطة إشعال النار عليه ثم إطفائها بالماء البارد وبالفروق الحرارية (يتفجر) الحجر ثم يذهب التابوت من كل ما فيه . لقد أرسل أندرية بقايا هذا التابوت الى برلين حيث أعيد تركيبه . لقد بلغ وزنه ١٨ طناً وطوله يقارب ٤ أمتار وارتفاعه مترين ، وعندما تم ترميم هذا التابوت تسكن علماء الأسيرولوجيا من قراءة اسم الملك صاحب هذا التابوت . لقد كانت الحروف تقول : (قصر أشور ناصر بل ملك الكون وملك أشور وابن أداد نيراري ملك الكون) . بالإضافة لذلك عشر ف . أندرية

على زيقورت وهو البرج المدرج مع البناء المتواصل حتى نهر دجلة ذاته .

كما تم العثور على ضفاف دجلة على مرسى كانت ترسي فيها القوارب المقدسة الكبيرة التي كانت تحمل المصلين وتمثيل الآلهة المستخدمة في احتفالات عيد رأس السنة الجديدة . كما اكتشف أندريه بأن (مساحة قدرها ١٦ ألف متراً مربعاً في أرض حجرية حفرت فيها بايعاز من الملك سنحريب حفراً عميقة وصلت فيما بعد بأقنية جوفية وبعد ذلك ردمت كل هذه المساحة بتربة جيدة للزراعة وغرست بالأشجار التي توفرت لها رطوبة غزيرة من الأقنية الجوفية (وهو ما يعرف الآن بالري بالتنقيط تحت التربة - المترجم) ، كما نم تحضير مدخل المعبد ورواقه بهذه الطريقة أيضاً .

والأهم من كل ذلك كان - من وجهة نظر علماء الآثار - المعبد القديم المكرس للآلهة عشتار .

كلخو (نمرود حالياً)

تم تأسيس العاصمة الآشورية كلخو على أيدي الملك آشور ناصر بعل (٨٨٥ - ٨٦٠ ق م) لقد نقلها من مدينة آشور الى هنا في هذا المكان حيث تقع الى الشمال من العاصمة الأولى لبلاد آشور بما يقارب - ٦٠ - كيلو متراً .

لقد أوعز الملك آشور ناصر بعل ببناء القصور والمعابد والزيقورات والمنازل السكنية وتسييد الطرق وأقنية الصرف في العاصمة الجديدة . كما قرر سليمانصر الثالث (٨٦٠ - ٨٢٥ ق م) خليفة آشور ناصر بعل إشادة قصره الخاص في مدينة كلخو وقد اشتهر بالقصر الرئيسي . لقد رممه وأعاد بناءه بشكل كامل تقريباً أحد الملوك الآتين فيما بعد وهو تقاتل بلاصر الثالث « ٧٤٥ - ٧٢٧ ق م » . وفي الجزء

الجنوبي الغربي من المدينة بنى الملك الآشوري أسرخدون (٦٨١ - ٦٦٨ ق م) قصره الذي استعمل في بنائه مواد بناء من قصور أخرى في كلخو .

لقد كان غ . ليبارد أول الأوروبيين - كما تم الحديث أعلاه - الذين بدأوا التنقيب في كلخو . لقد عثر على سبع قصور ولكن أهمها للمؤرخين وعلماء الآثار كان قصر آشور ناصر بعل . ومن بين ما عثر عليه كان هناك اللوحات الحجرية والمسلات والكؤوس البرونزية ونصل السهام كما عثر على كأس مطعمة بالعاج وعلى مرآة ومواد أخرى . ولكن أهم اكتشافاته كانت الشيران المجنحة والأسود التي كانت تقف عند مداخل القصر الملكي بشابة الحرس . لقد عثر ليبارد في هذا القصر على ١٣ زوجاً من هؤلاء الحراس . ويصف ليبارد في كتبه طريقة نقل هذه الأنصاب كما شاهدها مرسومة على اللوحات الحجرية . فهكذا كانت الأسود أيضاً توضع على قاعدة خشبية أو على عربة ويجرها العيال بجبل الى القارب الذي كان ينتظرهم في نهر دجلة . وفي أثناء التنقيب كان هناك حديث تناقلته أجيال السكان المحليين فيما بينها عن حجر أسود ضخم . وكم كان مدهشاً عندما اتشبه العمال العرب من بين الأتقاض إذ تبين أنه بازلت أسود قائم ارتفاعه يزيد عن المترين مزيّن بشكل رائع ومكسّي بالكتابة المسمارية . وبعد سنتين قرأ العلماء الرموز المسمارية عليه واتضح أنها نصوص عن انتصارات الملك الآشوري سلمنصر الذي حكم البلاد في القرن التاسع قبل الميلاد .

وتلت هذا الاكتشاف اكتشافات أخرى للقصور والمعابد والزيقورات . وتعددت المعروضات ادرجة لم تتسع معها المتاحف البريطانية لها ، لذلك قرر المتحف البريطاني على ليبارد إيقاف العمل

هناك مؤقتاً وقد دام هذا التوقف مدة ٢٥ سنة .

وبعد ليبارد عمل في كلخو الآثاريون الألمان الذين حلوا فيما بعد محل الانكليز كلياً . ومن بين هؤلاء يمكن تمييز م . ميللون لقد راح يتقب عن القصر الشمالي الغربي حيث عثر على مسلة آشور فاصريعل الثاني مع تصوير للملك ذاته ونقش مسماري كبير عليها ، حيث يتحدث هذا النقش عن الاحتفالات المكرسة لافتتاح هذا القصر عام ٨٧٩ ق م . وقد شارك في الموكب الاحتفالي على شرف هذا الافتتاح ٧٠ ألف شخص من دول عديدة في العالم نزلوا ضيوفاً لدى سكان هذه المدينة والبالغ تعدادهم آنذاك - ٨٦ - ألف نسمة ، لقد كانت إحدى أضخم المدن في العالم لذلك الوقت .

وفي القسم الشرقي من القصر عثر ميللون على (كتاب مشمع) مؤلف من ١٥ (صفحة) ، جمعت بجديلة ذهبية لقد كانت حواف (الكتاب) مصانة بالخشب المطعم بالعاج وعلى (الغلاف) كتب اسم سرغون الثاني ، أما النص بحد ذاته فقد ضم بضعة آلاف من السطور . في هذا القسم من القصر تم العثور على مجموعة من المصنوعات العاجية مثل رأس امرأة ظريفة سميت بالمونوليزا الآشورية وهي بمقاييس ١٦ × ١٣ر٣ سم ويرجع العلماء تاريخها الى عام ٧٠٠ قبل الميلاد .

وفيما بعد عثر الانكليز هناك على اسطواناتين من العاج حيث صورت عليها لبوة ثائرة تمزق افريقياً ، يبلغ ارتفاع كل من هاتين الاسطواتين ١٠ سم وقد طليت بالذهب وطعمتا بألوان أخرى . وفي القصر الشمالي الغربي عثر أيضاً على الأرشيف الملكي ، ومعبد الاله نابو ومعبد الاله نينورتا وعلى رصيف نهري ودور سكنية عديدة .

كما عثرت البعثة الانكليزية هنا عن آوان برونزية وسلاح وعلى مخزن للوحات الفخارية ، حيث جمع الاحتياطي منها وكذلك عثرت البعثة على مخزن الملك الأشوري سلمنصر الثالث الذي كان يحوي السلاح والعربات والفنائم الحربية .

لقد سمى الآثاريون المخزن المكتشف بـ « طابية سلمنصر » ، فقد كان على شكل مستطيل بأبعاد ٣٠٠ × ٢٠٠ مترا . بالإضافة لذلك فقد تم العثور في هذا القصر على صالة العرش وقد بني فيها مدرج للعرش المحاط بلوحات حجرية بصور لشعوب سورية وبابل وهم يقدمون الأتاوة .

وفي الصالة المجاورة عثر العلماء على لوحات مرسومة على النصف السفلي للجدار وعليها شخصية الملك الاشوري وفوق هذه الشخصية رسمت صفيحة دائرية مجنحة . كما عثرت البعثة الانكليزية على آلاف من الاسطوانات التي زينت برسوم بارزة ومحفورة لحيوانات وأناس وغير ذلك وكان الكثير منها بحاجة للترميم لذلك رامت بضع مئات منها مباشرة .

نينوى (الموصل – حالياً)

والآن نعيد النظر مجدداً الى مصور بلاد الرافدين . اكانت مدينة نينوى تقع على الضفة اليسرى المقابلة لمدينة الموصل الحالية لنهر دجلة . لقد أصبحت عاصمة للامبراطورية الآشورية إبان حكم الملك سرغون الثاني . وكالعادة في مثل هذه الأحوال تبدأ أعمال بناء القصور والمعابد والأبراج الزيقورات ودور السكن وأسوار المدينة الدفاعية من جديد . فقد أحيطت المدينة بحصن ضخم منيع وأقيم على جوانب الأسوار ردم عال وحفرت من الجهة الشرقية للسور خنادق عميقة .

... ويقع تل كوينجوك الذي يضم القصر الملكي في الجهة الغربية للمدينة وقريب من النهر •

والى الجنوب من هذا المكان وبحدود كيلو مترين تقريباً يقع التل الآخر حيث يقع مخزن القوات الآشورية ويسمى هذا التل باسم تل نبي يونس الوارد ذكره في التوراة على أنه زار مدينة نينوى في زمانه •

لقد عثر المنقبون الأثريون هنا على عدة بوابات بما فيها بوابة الإله نيرغال وشمش اللتين رمتا الآن لاستقبال السياح •

وأثناء عمل بعثة غ • ليارد سنة ١٨٤٧ م تمكن من اكتشاف قصر سنحريب إلا أنه كان مخرباً جداً نتيجة الحريق الذي ألم به إبان سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق م • وكما كانت فرحة هذا العالم الباحث كبيرة عندما تأكد أن الكثير من موجودات هذا القصر لم يصبه الخراب • فمثلاً عثر في الصالة رقم ٧١ على الكثير من التماثيل وحصل على أكثر من ألفي لوح فني ولقي كمية كبيرة جداً من (الكتب الفخارية) الموجودة في مكتبة الملك الآشوري سنحريب •

لقد حدد ليارد حفرياته في تل كوينجوك وبدأ الحفر في تل نبي يونس وعثر العمال فيه على لوحات تحمل توابع الملوك الآشوريين أداد نيراري وسنحريب وأسرحدون •

ومن بعده عثر خ • رسام في تل كوينجوك على القصر الشمالي الغربي لآشور بانيعل وتماثيل تصور (صيد الأسود) ، والأهم من ذلك تمكن من تنقيب النصف الثاني لمكتبة سنحريب (النصف الأول لها كان يقع في تل نبي يونس وقد سميت باسم جامعها آشور بانيعل) • لقد كانت هذه الاكتشافات هي اكتشافات العصر • والتي تعتبر بسعية مقاطع النص عن طوفان العالم والذي اكتشفه ج • سميث

زينة المجموعات الأثرية التي اكتشفها علماء القرن التاسع الميلادي .

دور شاروكين (خورس آباد - حالياً)

لقد كان لاكتشاف المكتبة في مدينة نينوى أهمية عظيمة للمعلوم إذ عثر في هذه المكتبة على آلاف (الكتب الفخارية) في مختلف مجالات العلوم (الرياضيات والفلك والطب والجغرافية وغيرها) كما وجدت موسوعات ومعاجم باللغات الآشورية البابلية والسومرية . إن هذه المعاجم المعكوسة وحدها مكنت العلماء من فهم اللغة السومرية وتذوق أدبها الواسع .

كذلك يبقى هذا الاكتشاف ثميناً لأنه يحوي على تلك المبادئ في فهرسة المكاتب ، التي أصبحت أساساً لفهرسة وتبويب المكاتب الحديثة حتى في أيامنا المعاصرة في العالم أجمع على مبدأ أقسام العلوم ثم تسميات المؤلف .

لم يهدأ الملك الآشوري سرغون الثاني الذي عاش في مدينة كلخو ولم يركن له بال من عظمة وانتصارات أسلافه ، لذلك فكر ببناء عاصمة ثانية هي مدينة نينوى ، لكنه لم يكن ليتوقف عند ذلك بل قرر نقل مقره الى مكان يبعد ٢٠ كيلو متراً شمال شرقي نينوى وذو تسمية شاعرية « وادي الربيعين » ، إلا أنه عاش في هذا المكان أناس غيره ، لكن سرغون الثاني راح يتصرف بالأرض معوضاً إياهم بشكل يرضيهم وفرزت لهم أراض ليقطنوها ، لقد أراد من ذلك الثواب للالهة كي تحرس له عاصمته من الأعداء الى الأبد . وقد سمي العاصمة الجديدة بالحصن أو قلعة سرغون (دور شاروكين) أي قلعة الملك الحقيقي .

لقد أحيط مقر سرغون الثاني بسور عرضه ٢٥ متراً مبني من قوالب الطوب . لقد كان للمدينة سبع بوابات مزينة بتماثيل لهاكل

ثيران وأسود مجنحة ولها كل آلهة وشخصية العملاق الآشوري غلغاميش ، وكانت هذه البوابات مجوفة تضم غرفاً مخصصة لاسراحة حراس المدينة ، وبالقرب من مركز السور الشمالي الشرقي كانت تقع قاعدة ضخمة بنيت من قوالب الطوب (الكريبيج) وبلغ ارتفاعها ١٥ متراً . لقد بني على هذه القاعدة - الأساس قصر الملك وثلاث معابد صغيرة وزيقوروت كبير . وقد حصل أن سرغون الثاني لم يشاهد نهاية أعمال البناء في مدينته ، ففضى نجه تاركاً استكمال أعمال البناء لخلفائه . إلا أن وريثه سنحريب لم يرفض متابعة هذا العمل فحسب بل وقرر إعادة عاصمة الدولة الآشورية الى المدينة القديمة نينوى مرة ثانية .

وفي ٢٥ أيار سنة ١٨٤٢ م وصل المنقب الفرنسي ب. بوتان الى الموصل وكان يعتبر أن مدينة نينوى تقع على تل كيونجيك - إلا أنه لم يعثر عليها لأن الحفريات التي أجراها لم تكن عميقة واستمرت الأعمال حتى ربيع ١٩٤٣ م .

وفي هذه الأثناء يصل إليه أحد الفلاحين المحليين الذي علم بأعمال التنقيب فراح يقص على ب. بوتان بأنه بالقرب من قرية خورساباد حيث يقطن مع عائلته مع باقي أهل القرية يشاهدون باستمرار أحجاراً غريبة الشكل مخططة بالكتابة السامرية . فما كان على بوتان إلا أن يذهب مع الفلاح الى خورساباد الواقعة على مسافة ٢٠ كم الى الشمال من الموصل ، وما أن غرس معول المنقبين في التراب الذي أشار إليه الفلاح حتى استبان لوح من المرمر وكلما تعمق في الحفر كلما خرجت له ألواح جديدة ثم استدعى عمال ، من كوينجيك وقام بحفريات واسعة النطاق في خورساباد . فالآن تأكد أنه اكتشف نينوى عاصمة الدولة الآشورية . وفيما بعد كتب بوتان خمس كتب عن

اكتشافاته حيث يؤكد فيها أن المدينة التي اكتشفها هي نينوى وهكذا سمي كتابه (النصب التذكارية في نينوى ، اكتشاف ووصف بوتنا) . وفي الواقع أنه اكتشف عاصمة أخرى لبلاد آشور وهي دور شاروكين التي بناها الملك الاشوري سرغون الثاني . وهناك في دور شاروكين ، اكتشف بوتنا أسوداً وثيراًناً مجنحة ذات مقاييس ضخمة قرر إرسالها الى متحف اللوفر في باريس ، لكن التماثيل العملاقة المنشورة الى أجزاء غرقت في مياه دجلة الجارفة ولا زالت حتى الآن راسية في قاع النهر .

ويكتب العالم الألماني إ. تسيرين من برلين الغربية في كتابه (التلال التوراتية) ما يلي : (ففي عام ١٨٥٢ كلفت الحكومة الفرنسية مواطنها فيكتور بلاس بمتابعة أعمال التنقيب في خورساباد . إلا أنه أثناء نقل تماثيل عملاقة صخرية عبر نهر دجلة حصلت مأساة أخرى . إذ أنه في نهاية الطريق وعند المرفأ الأخير تقريباً تعرضت القوارب لهجوم من قبل جماعات معادية من البدو وأغرقت في النهر والآن لا زالت حمولاتها راسية في الطمي عند مصب النهر . لقد تمكن قاربان فقط من التخلص من الهجوم ، وبذلك تكون قد وصلت الى باريس في عام ١٩٥٦ م كمية ضئيلة من اللقى الأثرية النادرة) .

وفي عام ١٩٢٨ م باشرت البعثة الأمريكية برئاسة كل من كبير ولاود متتابعة الحفريات في خورساباد . وبخصوص المكتشفات في دور شاروكين يلاحظ إ. تسيرين بأن : (المجمع العظيم للقصور والمعابد التي تضم أكثر من ٢٠٠ غرفة و ٣٠ قصراً قد ارتفع على مدرج اصطناعي معمول بشكل متعامد مع سور المدينة وبمقدار ١٤ متراً أعلى من مدينة الملوكة الآشوريين ومدينة الجنود والحرفيين . لقد توج كل هذا المجمع برج رباعي ضخم ذو قبب بسبع درجات وجدران مزينة

بقوالب مغطاة بالمينا بسبع ألوان كذلك ، ولا زالت هذه الألوان موجودة على حطام هذه القوالب حتى الآن وكانت درجات البرج السبعة ملونة على التوالي : بالأبيض والأسود والأحمر والبرتقالي والفضي والأحمر الذهبي . لقد بلغت أعماق أساس البرج من إكل جانب ٤٣ متراً وبلغ ارتفاع كل درجة ٦ أمتار والارتفاع الكلي للبرج ٤٢ متراً .

لقد كان السلم العريض والمزدوج ومداخل المواكب تقود إلى مقر الملك مباشرة . وكانت البوابات الكبيرة تقوم مقام المدخل الوحيد للبرج ، حيث ارتفعت علي جانبيها أبراج رباعية ووقفت أمامها تماثيل ثيران ضخمة عملاقة برؤوس بشرية تحدد بثبات إلى كل من يدخل مقبرة فيه تأثيرات سحرية معينة ، وأمام كل برج حراسة كان يقف تسان إنسان يقبض بيده اليسرى أسداً . كما كان يلي هذين التمثالين نصبان لثورين برأسين بشريين . وبالقرب من البوابة الأولى كانت تقع مباني خدم الحاشية الملكية والحراسة . لقد عثر العلماء الأمريكيون هناك سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٣ على قائمة بأسماء الملوك الآشوريين تحوي على أسماء ١٠٧ ملوك مع الإشارة لمدة حكم كل منهم .

إن هذه القائمة الملكية تمتد منذ نشوء الدولة الآشورية وحتى القرن الثامن قبل الميلاد . وبعض النظر عن أن هذه القائمة لا تحمل تواريخاً (مشابهة لما هو لدينا الآن) فإنها تحل أهمية كبرى لدراسة تاريخ بلاد الرافدين .

وفي القسم الأول من البوابة الاحتفالية كانت تقع مجموعة المعابد ذات المذابح الثلاث . وأحد هذه المذابح كان مكرساً لإله القمر (سين) ، حيث كان منجله القمري (هلاله) يشبه قرن الثور

ومن هنا اقتبس تصور الثيران ذات الأجنحة الضخمة • أما الرأس البشري فيشهد على أن رب الثيران لذلك الوقت كان قد اتخذ لنفسه صورة إنسان •

أما المذبح الثاني فكان مخصصاً للالهة نيتال (عقيلة) إله القمر، حيث مثاوها في المدفن السماوي بنجمة الصباح التي سماها الاغريق والرومان باسم فينوس (أفردويت) (★) •

والمعبد الثالث كان مخصصاً لإله الشمس «شامش» وكان المذبح هنا يضم مذابح أصغر حجماً مخصصة لأرباب مختلفة •

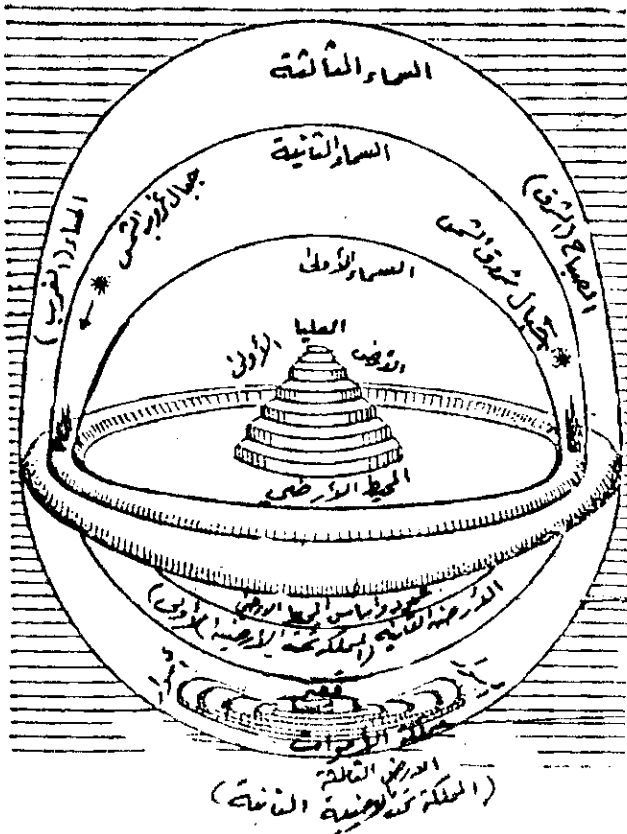
وكان للمعابد الرئيسة لاله القمر والزهرة والشمس — هذه الآلهة الأكثر اعتباراً من بين آلهة مذهب ألوهية الكون لدى الآشوريين — البابليين القدامى الذي يعتبر أن القمر ظهر أولاً على شكل الأب والشمس على صورة الابن وكوكب الزهرة على صورة الزوجة أو الابنة — ردهات واسعة تقع بعدها غرف كبيرة حفرت فيها فجوات عالية كانت تحوي — على ما يبدو — على تماثيل رائعة للالهة ونخف البوابة الاحتفالية وبين مجموعة المعابد هذه كان قد توضع القصر الملكي ، حيث كانت تؤدي إليه بوابة مزدانة بالنقوش الثرية • وكانت قد مست الزاوية الشمالية الغربية للقصر بناية خاصة ، كانت على الأغلب تقوم مقام صالة العرش المخصصة للاستقبالات •

لقد عثر العلماء في دور شاروكين على ٦ آلاف متراً مربعاً من ألواح المرمر لو وضعت على خط مستقيم — كما حسبها العلماء — لبلغ طوله ٢ كم تماماً •

لقد بدأ القصر الملكي فخماً جداً ، حيث طليت جدرانه بدهانات

(*) نينوس — تعني باليونانية كوكب الزهرة — المترجم •

المحيط السماوي



خزفية ملونة بالأزرق والأخضر والأصفر • وكثير من الكريبح كان منقوش عليه صور لحيوانات وطيور وأشجار ، وكانت هذه رموز عبادة في الديانة الآشورية - البابلية وكانت القاعات التي كان الملك يستقبل الدبلوماسيين والوزراء والشخصيات الرسمية والضيوف كبيرة المقاييس عالية وواسعة • وكان يقع في القصر مخزن للأسلحة ومستودع للباس والأغذية كما كانت أغلب القاعات تضم مكتبات فيها كتب حول مختلف أنواع المعرفة •

حكام اتجاهات العالم الرابع

بعد أن تعلم الباحثون قراءة « الرقيمات الفخارية » ، راحوا يدرسون اللغة والأدب والتاريخ ويهتمون بمعرفة الوطن الأول للآشوريين الذين ينسبون الى العائلة السامية •

ويبقى السؤال عن الوطن الأول للآشوريين مفتوحاً في العلوم التاريخية • فبعضهم يعتبر بأن الوطن الأول لهم هو شمال أفريقيا وبعضهم الآخر يشير الى شبه الجزيرة العربية •

ويصر مؤيدو المقولة الأولى بأنه منذ عشرة آلاف سنة تقريباً تغير اتجاه الرياح القادمة من المحيط الأطلنطي والمحسلة بمياه الأمطار الغزيرة الى مناطق أفريقيا الشمالية ، وبدأ يذبل تدريجياً الغطاء النباتي والغابات وتزول الأنهار والمراعي الضرورية لتربية الماشية •

هذا مما اضطرهم أن يهجروا أماكن إقامتهم منذ القدم بحثاً عن الكلاً والمرعى ويعبروا عبر برزخ يجمع - كما يعتقد - قارتي أفريقيا وآسيا الى شبه الجزيرة العربية •

لقد تغير المناخ هنا أيضاً ولم تعد المراعي تفي بحاجة القطعان مما جعل العوائل السامية الرعوية تغادر هذه الأماكن الى الشمال في الصحراء السورية ومنها الى بلاد ما بين الرافدين •

لقد قطنوا هذه البلاد الممتدة من مناطق نيبور والى الشمال حتى مدينة سامراء الحالية . كانت هذه المنطقة تدعى آنذاك « بلاد أكاد » وبذلك سمي كل الساميين الذين استوطنوا هذه المنطقة بالأكاديين ، نسبة للمدينة الرئيسة والعاصمة أكاد .

إلا أن الساميين لم يستقروا في بلاد أكاد فقط بل هاجر منهم الى جنوب وشمال بلاد الرافدين . ففي الشمال وفي المنطقة المحصورة بين هري دجلة والزاب الأدنى من جهة وجبال زاغروس من جهة أخرى أسسوا ممالكهم وبنوا مدنهم وكانت مدينة أشور أكبر مدنها . لقد جلب الآشوريون معهم من بلاد أكاد الى أشور كثيراً من المآثر ولأساطير والعادات والتقاليد .

وكانت إحدى هذه العادات والتقاليد هو أن الملوك الآشوريين سموا أنفسهم حكام الجهات الأربعة للعالم (الشمال ، الجنوب ، الشرق ، الغرب) وهذا ما فعله سرغون الأول (الأكادي) .

ومن الممكن تماماً أنه في هذه الأزمنة تأكدت ونالت تطوراً لاحقاً موضوعة السيادة على العالم والتي ولدت على أرضية تفكير الحكم المطلق ، « الخارج عن نطاق شعب واحد وبلاد واحدة والمبنى على توجهات شمولية عامة » هذا ما كتبه طوراييف عن ذلك .

وفي نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد بدأ حكام بلاد آشور يستلمون السلطة بالوراثة واهتموا بشكل أساسي بمسائل الدين . لقد كانت سلطتهم السياسية ضعيفة وكان مجلس الشيوخ هو الذي يقود البلاد عملياً ، فكان كل عضو فيه يقود البلاد سنة كاملة ثم يليه في السنة القادمة عضو آخر . . . وهكذا . إلا أن الحكام الورثة عيش أقليمي — أبوروا الخنوع لدورهم الضعيف في أمور الدولة فاستأثروا بالسلطة واغتصبوها تدريجياً . وراح

حكاه بلاد آشور يشنون الحملات الحربية على جنوب بلاد الرافدين
وشمالها وغربها . ولكن وصول حمورابي الى السلطة في بابل وضع
نهاية لهذه الحملات العدوانية لدى الآشوريين . وأكثر من ذلك
وقعت بلاد آشور في المرحلة اللاحقة تحت سلطة بابل والحيثيين .
والكاسيين .

وعززت بلاد آشور موافقها إبان حكم الملك آشور أو باليت
(القرن الخامس عشر قبل الميلاد) ومن بعده سمي خلفاؤه أنفسهم
بحكام آشور . ففي القرن الثالث عشر قبل الميلاد بدأ الملك الآشوري
سليمصر الأول الحرب ضد الميتانيين والحيثيين ، تلك الشعوب القاطنة
أراضي تركيا الحالية ، ووصل غرباً الى شواطئ البحر الأبيض
المتوسط واحتل القسم الشمالي لبلاد فينيقيا .

ولكن حملات الملوك الآشوريين الاحتلالية توقفت إثر ظهور
قبائل الآراميين الرعوية القادمة من شبه الجزيرة العربية ، والتي قطعت
سورية وبلاد الرافدين وراحت تغزو الآشوريين وتنهب مدنهم ،
وقراهم ، موقعة بهم سلسلة من الخسائر الفادحة . إلا أن الآراميين
لم يتمكنوا من القضاء على الدولة الآشورية كلياً بل راحت هذه
الأخيرة تستعيد قوتها ثانية في أواسط القرن العاشر قبل الميلاد وأسست
أحد أقوى الجيوش وأكثرها تسليحاً حيث وصل تعداده في القرن
التاسع عشر قبل الميلاد الى ١٢٠ ألف محارب . وقد كتب العالم السوفيتي
د . ريدر عن القوة العسكرية لبلاد آشور مايلي : « بالإضافة للعربات
الحربية راح الآشوريون يستخدمون سلاح الفرسان الذين لا يسكن
الاستغناء عنهم في مطاردة العدو المكسور . لقد كان الإقبال الى
السلاح الجديد في بلاد آشور (في بداية الألف الأول قبل الميلاد)
أسرع بكثير عما كان في البلاد المجاورة لها . كما كان لديهم قوات

خاصة بمد الجسور المؤقتة عبر الأقنية والأنهار ، تلك الجسور المصنوعة من ألواح الخشب الممدودة على القراب المنفوخة بالهواء . كما نال الآشوريون كذلك شهرة واسعة في محاصرة قلاع العدو وتدميرها ، حيث كانوا يدمرون الحصن والأبراج بكبوشهم (★) التي كانوا يسوقونها الى الأسوار تحت غطاء من التروس كما أن الآشوريين هم أول من استخدم في التاريخ البشري اسلحة ذلك الأسوار والقذف (والتي سماها الاغريق فيما بعد بالمنجنيق الباليستي) . وعلى اعتبار أن المواد المتفجرة لم تكن معروفة آنذاك ، فقد كانت النواة الحجرية ذات الثقوب المملوءة بالاسفلت المغلي تقذف بواسطة عجلات تحرك بقوة أحزمة جاذبية تانف (بزم) وتنفك بشكل سريع .

ومما كان يبعث الدهشة العميقة لدى الشعوب القديمة هو التنظيم الدقيق والمدروس للفصائل الحربية في القوات الآشورية . كما كان تقيد المحاربين الآشوريين بالديسليين العسكري لايضاهى إطلاقاً » .

بمثل هذا الجيش استطاع الملوك الآشوريون من إعادة احتلال الأراضي التي فقدت فيما مضى ، فقد احتلوا مجمل شمال بلاد الرافدين وبعد ذلك بدأوا حملاتهم ضد سورية وفينيقيا ومناطق أخرى . وقد أبدت مملكة دمشق وعاصمتها دمشق مقاومة متميزة في وجه الآشوريين حيث أن دمشق دعت دولاً أخرى للتخالف معها ، واشترك جميعهم في مقاومة طويلة الأمد للملك الآشوري سلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق م) .

(*) الكبوش - آلات حربية قديمة تستخدم لصدم ولدك القلاع وكان الآشوريون أول من ابتدعها - المترجم

إلا أن الدبلوماسية الآشورية تمكنت من شق صفوف التجمع المعادي للآشوريين وإخضاع الدول الداخلة فيه منفردة كل على حدة . وبعد الانتصار على مملكة دمشق وحلفائها وجه سلمنصر الثالث السلاح ضد بابل والشعوب القاطنة خلف جبال زاغروس وفي إيران وإلى الشمال في أورارتو .

لقد حصلت سياسة الغزو العسكري على نفحة قوة جديدة إبان حكم الملك الآشوري تقلت بالأصار الثالث الذي وصل إلى السلطة نتيجة انقلاب حكومي . فقد قام تقلت بالأصار الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) . بمجموعة من الإصلاحات العسكرية والاقتصادية والإدارية ، وجعل الجهاز الحكومي طيعاً وجمع كل السلطات بيده .

لقد بنى تقلت بالأصار الثالث دولة آشور قوية ، ليقوم بمجموعة حملات عسكرية ناجحة ضد أورارتو مضعفاً بذلك الجارة الشمالية لبلاد آشور . كما ألحق سلسلة من الخسائر الماحقة بالدويلات الأرامية في سورية ، وأقر السيادة الآشورية على فينيقيا وفلسطين ، هذا مما جعل تقلت بالأصار أن يشرف على شواطئ البحر الأبيض المتوسط . ويخضع له ملك دجلة وأمير بيل وملك إسرائيل . لقد اعترف اليهود وأهل غزة في فلسطين بالتبعية الإقطاعية الكاملة لسلطة الملك الآشوري .

وفيما بعد أي في عام ٧٣٢ ق.م يحتل دمشق ويالحق بسلطته مجمل القسم الجنوبي لبلاد ما بين النهرين حتى الخليج الفارسي « البحر السفلي » . ويكتب عن ذلك تقلت بالأصار بنفسه في مدوناته العسكرية :

« لقد أخضعت لسلطتي بلاد كاردونياش الواسعة (بابل الكاسيين) كلها وحتى أبعد الحدود وأصبحت أسيطر عليها . . . وميروداخ . -

بالإدانة ابن ياكينا ملك بلاد البحر الذي لم يحضر أمام أسلافي الملوك ولم يقبل أقدامهم ، اتنابه الهلع من القوة الرهيبة للملك آشور ، لقد وصل إلى مدينة سايبا وبوجوده أمامي قبل قدمي الذهب زاد عن الجبال نكسبات كبيرة ، فقد استلمت مصنوعات وحبلاً ذهبية وأحجاراً كريمة وألبسة مبرقشة وأعشاباً مختلفة وأبقاراً وماشية كجزية منهم» .
وفي عام ٧٢٩ ق.م احتل تقلت بالاصار مدينة بابل عاصمة الدولة البابلية وبعد ذلك وجه أنظاره إلى الشمال الغربي نحو جبال عمان من ثم وصل إلى شرقي بلاد الميديين .

إلا أن الشعوب المقهورة لم تستكين لمصيرها ذلك بل انتفضت غير مرة ضد المحتل مخلصين بالاستقرار في الدولة الآشورية .
وينسب ظهور أسطورة التوراة عن النبي يونس الذي وجد في أحشاء الحوت إلى زمن حكم تقلت بالاصار . انعكس في هذه الأسطورة تشابك النضال في الدولة الآشورية ، حيث المشاغبات ، وتظاهرات العبيد والجماهير الشعبية الواسعة المضطهدة . كما كان تعداد العبيد من القبائل الأخرى في نينوى عاصمة بلاد آشور عهد ظهور أسطورة النبي يونس كبير جداً وتكلموا بلغات مختلفة ولم يفهم أحدهم الآخر ، وقد سمى النبي عدم الفهم هذا بعدم تمييز اليد اليمنى عن اليسرى .

إن قصة النبي يونس التي تقدمها التوراة كحقيقة مطلقة ليست إلا حكاية مستعارة أعاد نسجها واضعوا التوراة ضمن أحداث ذلك الزمن العارم . وتقول الأسطورة : أن النبي يونس سمع في منامه بأن الله دعاه لزيارة نينوى عاصمة الدولة الآشورية حيث كان عليه أن يشير بكلمة الله . وقرر يونس الابحار عبر مدينة فرسيس إلى نينوى وفي الطريق صادفته عاصفة هوجاء .

لقد أصاب الرعب كل من كان على متن القارب باستثناء يونس الذي لم يهتز لآثارها قط ، بل هبط الى عنبر السفينة وغفا بهدوء . ولكن البحارة يعتبرون أن يونس هو المذنب في هذه العاصفة وعليه وحده تقع المسؤولية بكاملها ، فيقررون رمي يونس في البحر كي تهدأ العاصفة ويقومون بذلك بعد أخذ موافقته .

وحالما وصل يونس الى البحر بدأت العاصفة تهدأ وسرعان ما هدأت كلياً .

ولما وقع يونس في البحر أمر الله حوتاً كبيراً أن يهجم عليه ويبلعه فبلعه الحوت وبقي يونس في أحشاء الحوت ثلاثة أيام وثلاثة ليال . فتوجه هذا المسكين الى الأعلى وطلب من ربه الرحمة والشفقة عليه والخلاص ، ولما سمع الرب صلاته ، شاء للحوت أن ينطقه وكان ذلك . فظهر يونس على الشاطئ ومنه توجه الى عاصمة المملكة الآشورية . لقد كانت هذه العاصمة لتلك الأزمنة مدينة كبيرة جداً ذات تعداد سكاني ينوف عن ١٢٠ الف نسمة . وراح يونس يسير حول نينوى المدينة متنبئاً بدمار نينوى نتيجة لخطاياها خلال ٤ يوماً . وحين سمع السكان بذلك قرروا أن يتقذوا أنفسهم بإعلانهم الصوم ولما بدؤوا الصوم لبسوا أسمالا مهترئة ، أما الملك وفق عادات بلاده فجلس في الرماد لابساً العبادة عليه .

وعندما سمع الله دعاء أهل نينوى وكيف هم يصومون ترأف بهم وسامحهم .

لقد بحث العلماء طويلاً عن المثيلة التاريخية لهذه الأسطورة وتوصلوا الى استنتاج مفاده بأن هذه الأسطورة ظهرت تقريباً في عام ٨٠٠ ق م . قبل تتويج ثقلت بالاصار الثالث ، عندما بدا أن انتفاضات الشعوب ضد بلاد آشور بإمكانها أن تهدم نينوى .

إلا أن الملك الآشوري تمكن من التنكيل بالمنفضين ويقول
النبي يونس بأن الله العظيم ساعد أهل نينوى بذابك • وتقول
الأسير يواوج الروسية ز • راكوزينا التي بحثت بالمثلثة التاريخية والأدبية
لأسطورة النبي يونس في كتابها « تاريخ بلاد آشور » • ووصلت
الى فكرة أن الحكاية عن كيفية وقوع النبي يونس في أحشاء الحوت
يمكن تفسيرها بأن كلمة « نينوى » هي مشتقة من كلمة « السمكة »
- « نونه » (بالآشورية - البابلية) •

هكذا وأن رمز المدينة تمثل بإشارة سمكة في شبكة • وتشير
الميثولوجية الآشورية - البابلية بأن السمك مخلوق مقدس وأن
القداسة فيه هي من أولى صفاته • ومن هنا الحوت العجيب الذي بلغ
يونس لم يكن إلا مدينة نينوى بحد ذاتها - تقول راكوزينا - حيث
أحاطت بالنبي جملة من المخاطر جعلت من الطبيعي أن ينطلق من صدره
دعاء بالخلاص » •

وفي أسطورة النبي يونس توجد مجموعة من العقدة •
فقد كتب الناقد التوراتي الفرنسي ل • تاكسيل بأن النبي يونس ولد
على بعد أكثر من ٦٠٠ كم من نينوى ولم يكن يعرف اللغة الآشورية
كما لم يكن بإمكانه التبشير في العاصمة الآشورية باللغة العبرية وغير
ذلك فإن مسيرة النبي يونس الى نينوى هي غير واقعية ، فبدلاً من
السير براً بشكل مستقيم ، اتجه بطريق معقوفة بحراً الى فرسيس
(في اسبانيا) • وأخيراً إن الحكاية عن الحوت بحد ذاتها - ومن
رأي تاكسيل - تذكرنا بشكل حي بالأساطير الاغريقية القديمة فقد
كتب : بأن « هوميروس في كتابه العشرين يتكلم عن مخلوق بحري
يهاجم هيرقليس ، وقضى هيرقليس ثلاثة أيام وثلاثة ليالي في أحشاء
هذا المخلوق أكلاً من كبده الذي كان يشويه ويأكله حتى خرج

بعد ٣ أيام من سجنه منتصراً • إن هذه الأسطورة عن هيرقليس ليست أسوأ من قصة النبي يونس أبداً •

كما توجد في الميثولوجية الوثنية حكاية شبيهة عن أريون الذي يرمى في البحر من قبل البحارة وينقذه دلفين حاملاً إياه على ظهره حتى ليسبوس •

ولابد من الإشارة الى استعارة فكرة الصوم من الألواح الحجرية زمن حكم تغلت بالاصار الثالث ، فهو الذي أصدر أوامره حينذاك لجميع حكام البلاد والمناطق المحتلة بتطبيق الصوم على جميع المملكة، ومن الممكن تماماً أنه عرف عن ذلك في مملكة إسرائيل في النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد في مرحلة ظهور شخصية النبي يونس ، ثم استخدموا هذه الفكرة في صياغة تلك الأسطورة •

إلا أن كتاب النبي يونس كان لا يسكن ان يظهر — كما يعتقد العلماء — قبل القرن السادس قبل الميلاد ولا بعد عام ٢٠٠ ق م • وفيما بعد استغل واضعوا الانجيل فكرة وجود يونس في أحشاء الحوت ثلاثة أيام وليالي في خدمة ظهور يسوع المسيح • ففي إنجيل متى ، يتنبأ يسوع المسيح بموته وانبعاثه في اليوم الثالث • وهكذا تناقلت الشعوب هذه الأساطير والخرافات والحكايا من شعب لآخر كل حسب إيديولوجيته ، مستخدمة إياها بشكل خاص — على سبيل المثال الذي نحن بصده — في وصف رحلة النبي يونس وحياة وموت السيد المسيح •

ومن هنا جاءت فكرة « الثالوث المقدس » في الديانة المسيحية، والتي ترجع في أصولها الى تاريخ شعوب بلاد الرافدين القديمة ، ومن بعدها انتقلت الى التوراة ومن ثم الى مسيحي العالم كله • وكذلك نرى أنه من الممكن تماماً بأن فكرة الصوم الذي عم نينوى آنذاك

قد دخلت فيما بعد الى الطقوس الدينية لدى الآشوريين المعاصرين
أجمع .

وتلاحظ البروفيسورة راكوزينا بأنه : « ٥٠٠٠٠ في السنوات
العجاف ، أيام النكبات والمصائب الاجتماعية ، وجدت لدى الآشوريين
وابلابيليين عادة إعلان صوم شعبي عام مع دعوات التوبة والانهال
كما كانت في مثل هذه الأحوال تنشد في المعابد الأناشيد المعروفة لنا
باسم « أناشيد التوبة » .

واستمر إبان حكم سلنصر الخامس ٧٢٧ - ٧٢٢ ق م نجل
نقلت بالاصار الثالث تعزيز مركزية السلطة الملكية مما أوجب مقاومة
طبقة الأعيان التي فقدت كل امتيازاتها . ونتيجة لخيانة داخلية تم
خلع سلنصر الخامس ونصب مكانه سرغون الثاني .

لقد تابع هذا الأخير سياسة أسلافه الاحتلالية ففتح سورية
وفلسطين غرباً وقاد عدة حملات ضد أورارتو في الشمال . كما قام
سنحريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق م) ابن وخليفة سرغون الثاني بمجموعة
حملات ضد البلاد البابلية وفي عام (٦٨٩ ق م) احتل مدينة بابل
ودمرها .

ولما وصل أسرحدون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق م) الى السلطة بدلا
عن سنحريب قام بإعادة بناء بابل المدمرة رغبة منه في تطرية العلاقات
بين سكان مدينة آشور وسكان بابل وكذلك كسب ود البابليين الى
جانبه . لقد شن كل من هذين الملكين حرباً شعواء على بلاد مصر،
إلا أن أسرحدون وحده تمكن (عام ٦٧١ ق م) من قهرها وإخضاعها
لنفوذه .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت آشور أقوى دولة عظمى في العالم
القديم . لقد وصلت حدودها في الشرق الى جبال زاغروس وفي الغرب

حتى البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك بلاد مصر ، وفي الجنوب انتشرت أملاك الدولة الآشورية حتى البحر الجنوبي (الخليج الفارسي) ، وفي الشمال حتى القفقاس تقريباً . لذلك سُمى الملوك الآشوريين أنفسهم بـ « زعماء جهات الدنيا الأربع » ومن بينهم تميز آشور نبعل « ٦٦٩ - ٦٣٠ ق م » من سلالة سرغون الثاني .

كان الوحيد الذي يجيد القراءة والكتابة ويلهم جيداً بالعلوم والآداب والفن ويعتبر دبلوماسياً ماهراً وقائداً عسكرياً ومتذوقاً للموسيقى ومقدراً لها .

ولكن الحروب المستمرة أعاقته من ممارسة العلوم والفنون لأنه قادها دون انقطاع ضد الشعوب التي لم ترغب بالاستكانة للاحتلال الأجنبي ، حتى أن أخاه الأصيل شمش شوموكين حاكم بلاد بابل أراد الانفصال عنه وغالباً ما انتفض ضد أخيه في سبيل استقلال هذه البلاد ، مما جعل آشور نبعل يتخذ قراراً بإنهاء عصيان بلاد بابل ، فحاصر هذا الملك بابل بجيشه واحتلها . ولم يرغب شمش شوموكين بالاستسلام والوقوع في الأسر فقفز من أعلى السور إلى القصر المتهب بالنيران واتحرق . وألهم عصيان بلاد بابل الشعوب المضطهدة الأخرى ، فبدأت الانتفاضات تشتعل تارة هنا وتارة هناك وبعث موت آشور نبعل آمالاً جديدة لدى الشعوب الخاضعة لبلاد آشور وهبت للنضال التحرري .

فانتفضت شعوب سورية وفينيقيا وفلسطين ومصر وغيلام وغيرها من البلاد ، واتجه الملوك الآشوريون في مثل هذه الحال إلى الحفاظ فقط على العرش المهتز . وتعرف المرحلة الأخيرة من وجود الدولة الآشورية بانفصال بابل وتربع حاكم الشواطئ البابلية السابق نابوبالاصار (٦٢٦ - ٦٠٥ ق م) على العرش البابلي .

كان نابو بالاصار كلداني الأصل ولكي يحقق النصر الأكيد على آشور عقد تحالفاً مع الملك الميدي قياقसार وعزز هذا التحالف بزواج نبوخذنصر ابن نابو بالاصار على أميدا ابنة الملك قياقसार .
وبتحريض من البابليين ورغبة في الحيازة على ممتلكات الدولة الآشورية قام الميديون بقيادة ملكهم فراورت إبان حياة الملك آشور بانبل بمحاولات فرض الحصار على العاصمة الآشورية نينوى واحتلالها وبهذا الصدد كتب هيرودوت : « بالرغم من ابتعاد جميع الحلفاء عن الآشوريين وتركهم وحيدين إلا أن الآشوريين كانوا - بشكل عام - في وضع جيد ، ففي زمن شن الحملات عليهم قتل فراورت الذي دام حكمه اثنين وعشرين عاماً وكذلك فني قسم كبير من جيشه » .

ففي هذه المرة ردت المدينة جميع الهجمات ومحاولات الحصار ، كما صمدت تحصيناتها . لقد كانت مدينة نينوى قلعة منيعة بنيت على شكل مستطيل منتظم ، وبلغ طول سورها ١٥٠ ستادي وعرضه ٩٠ ستادي وسماكته كبيرة بحيث كان يمكن أن تسير عليه ثلاث عربات بحرية دفعة واحدة . كما كان قد بني على المحيط الخارجي للسور ١٥٠٠ برجاً ارتفاع كل منها ٧ أمتار .

لقد كانت حامية المدينة مسلحة بشكل جيد وكان تعداد سكانها كبير (١٢٠ ألف نسمة) مما يمكنها من ابداء المقاومة للمعتدين . فقد قهر الميديون وهزموا وقتل ملكهم فراورت في إحدى المعارك . وتفيد الأساطير بأن الصيام الذي أعلنه الملك لمدة مئة يوم هو الذي أنقذ نينوى أيام الحصار .

أما المحاولة التالية لاحتلال بلاد آشور قام بها بنجاح قياقसार ابن فراورت . وكتب هيرودوت حول ذلك : « كان أشد بأساً من

أسلافه وهو أول من أشرك الشعوب الآسيوية الخاضعة له في تأسيس فصائل عسكرية خاصة ، فقد نظمهم حسب نوعية السلاح في فصائل رمي الرماح والنبالة والخيالة وقبل ذلك كانت مختلطة مع بعضها دون تميز . كما أنه وحد تحت قيادته آسيا الدنيا باتجاه نهر غاليس ، ثم جمع كل الشعوب الخاضعة له وذهب للحرب ضد نين (مدينة نينوى - المترجم) ، رغبة منه في الانتقام لأبيه واحتلال هذه المدينة » .

ولكنه ما كان باستطاعته لوحد قهر قوة آشور لو لم يفهم التحالف مع بابل ويفسر نجاح البابليين وفيما بعد حلفائهم الميديين في الصراع ضد بلاد آشور ، قبل كل شيء ، بعد اكتراث الجماهير الاشورية الشعبية الواسعة ، والتي ذقت الأمرين من مآواكها وكهنتها ومالكي العبيد فيها .

« لقد كانت جماهير الفلاحين في بلاد آشور - كتب البروفيسور دياكونوف - في وضع مزر تماماً وعانت الأمرين من الابتزاز والسخرة والتجنيد العسكري » .

بالإضافة لذلك يؤكد البروفيسور دياكونوف بأن هجوم بابل ، وميديا تلقى دعماً شعبياً واسعاً في بلاد آشور ، إذ أن الجماهير الشعبية الآشورية سعت نحو التحرر من الطغيان الملكي وبذلك تكون قد قدمت خدمة كبيرة للقوات البابلية والميدية .

لقد امتدت حروب البابليين والميديين والشعوب الأخرى التي لم ترغب بالبقاء تحت نير الدولة الآشورية أكثر من عشر سنوات ، وباتتصارات متبادلة . وأخيراً كان الانتصار النهائي الى جانب الشعوب التي قادت نضالاً تحررياً .

وفي عام ٦٠٥ ق م انتهى وجود بلاد آشور كدولة مستقلة ، واقتسم الحلفاء (الميديون والبابليون) أراضيها فيما بينهم إلا أن

الآشوريين لم ينتهوا بسقوط الدولة الآشورية وهذا الشعب لم يباد . فقد اقتاد الميديون كثيراً من الحرفيين في نينوى والذين زينوا مدن بيرسيوليس وإقباتان ، كما علم العيسد الآشوريون الميديين فن الحفر على المطبوعات (النقش) .

وحول هذا الموضوع كتب المؤرخ الاغريقي القديم تيودور الصقلي في عمله « المكتبة التاريخية » بأن الملك الميدي لم يفن سكان مدينة نينوى ، بل وزعمهم على القرى المجاورة . « ٠٠٠ . وأعاد لكل منهم ممتلكاته ٠٠ »

ولاحظ الكاتب والمؤرخ الآشوري ب . أرسانيس بأنه بعد سقوط الدولة الآشورية « التجأ الآشوريون الى جبال آشور المنبعدة (كردستان - حالياً) حيث عثروا على مأوى لهم سنوات طويلة ٠٠ » . وفي كتاب آخر له يرجع المؤلف الى ذلك ثانية ويدقق : « بعد سقوط الدولة الآشورية لم يباد الآشوريون ، بل فر قسم منهم الى جبال آشور في مقلوب وسنجار وخرج عشرة قادة مع كامل قواتهم باتجاه مدينة نصيبين ، وهناك في مكان مدينة أورفا الحالية أسسوا دولة عسرايا الجديدة وفيما بعد سميت بدولة عسراينا » .

ويؤكد هذه الفكرة مؤرخ آشوري آخر هو أ. منشي حيث يلاحظ بأنه في زمن الحروب مع الأعداء اخترق قسم من القوات الآشورية طوق حصار الأعداء وخرج الى مناطق آشور الجبلية ، حيث وجدت تحصينات منيعة عديدة . مرت السنوات وراح الآشوريون يرجعون الى مناطق سكناهم التاريخية .

وكتب المؤرخ والنقب الانكليزي سبتون لويد بهذا الصدد بأنه بعد سنوات عديدة نلت سقوط نينوى أخذت بقايا سكانها ترجع الى ضفاف نهر دجلة . ومع ذلك وبغض النظر عما وقع على

كاهل الشعب الآشوري من مآس فإنه تمكن من حفظ تراثه وثقافته .
ويؤيد وجهة النظر هذه مؤرخ انكليزي آخر وهو ويغرام
الذي لاحظ بأن الشعب الآشوري القاطن في المناطق المجاورة لأطلال
نينوى ما زال يحافظ على عاداته وتقاليده .

كل ذلك معاً أعطى الحق والأساس للبروفيسور دياكونوف لأن
يكتب ، بأن « الابادة المفاجئة للشعب الآشوري ، الذي غالباً ما أدهش
كثيراً من المؤرخين لا تمت للواقع بصلة بتاتاً . . . » .

وفي الختام نود أن نضيف بأن سقوط المملكة الآشورية لم
يؤد الى الابادة الجائرة للآشوريين ، فقد صمدوا ضد الامتزاج مع
المحتلين المتعددين لبلاد ما بين النهرين وحافظوا على لغتهم وعاداتهم
وتقاليدهم وفي نهاية المطاف على ثقافتهم ونمط معيشتهم .

توجهات تطور التجمع القومي الآشوري منذ سقوط الدولة الآشورية وحتى يومنا الحاضر

لقد استمر التكتاف العرقي للآشوريين في نطاق دولة واحدة
على امتداد ألفي سنة تقريباً وطوال فترة ديمومته هذه قدم خزماً
شديداً للعمليات التكاملية فيه وكما يفترض ووضعت المقدمات
الأساسية لاستمرار الاستقرار اللاحق للقومية الآشورية .

لقد تشكل التجمع العرقي الآشوري زمن مجتمع مالكي العبيد
من العناصر الأساسية (الآشوريين والخوريين والصوباريين والآراميين)
الذين امتزجوا تدريجياً وشكلوا عرقاً « إتنوس » جديداً ذو سيادة
في الثقافة الآشورية الأقدم والأقوى من غيرها . وإيان سقوط
الامبراطورية كان هذا التجمع القومي قد أصبح شعباً له علاقاته الطبقيّة
الخاصة . فقد تميز بوحدة الأرض والخصائص الثقافية وبوحدة

كبيرة لذلك الزمان في اللغة والوعي العرقي الذاتي وبضعف دور روابط القربى الدموية وفي كثير من الأحيان بغايبها . ولذلك في عام ٦٠٥ ق م عندما سقطت بلاد آشور تحت ضربات الميديين والبابليين لم يؤد ذلك إلى فناء الآشوريين أو امتزاجهم بالمحتلين .

وفيما بعد يرتبط تاريخ الآشوريين اللاحق ارتباطاً وثيقاً بمصائر الامبراطورية الرومانية أولاً ومن ثم ببيزنطه وبالأخمينيين ، والبارفيايين والساسانيين في إيران وبالخلافة العربية والامبراطورية العثمانية . وكون الآشوريين يدخلون كتجمع عرقي في نطاق التشكيلات السياسية الحكومية ، يتخذون تدريجياً خصائص الأقلية القومية . ومع ذلك فقد تبين أنهم موضع أقلية مضطهدة عرقياً وفيما بعد دينياً أيضاً . تتعرض لا للاستغلال فحسب بل وللإبادة الجسدية . لقد جعلتهم حالتهم المتميزة يبحثون عن أشكال وأساليب مقاومة المضطهدين . وفي القرن الأول الميلادي أخذت الديانة المسيحية تنتشر في سورية وما بين النهرين وإيران وكان الآشوريون في عداد الشعوب الأوائل الذين اعتنقوا هذه الديانة .

وتتسم الخاصية المميزة لتكوين العرق الآشوري كأقلية قومية في هذه المرحلة بأن عامل الدولة لم يلعب دور عنصر التكوين العرقي فيه ، بل لعب المنبر الديني (الكنيسة المسيحية) ذلك الدور . ودون أن يكون لدى الآشوريين سلطة القادة المدنيين ، وجدوا أنفسهم في كنيسة واحدة وتحت قيادة روحية واحدة ، وتشابكت أوجه التاريخ المدني للشعب الآشوري منذ تلك الفترة بتاريخ الكنيسة الآشورية . وهكذا كانت المسيحية عاملاً مساعداً في توطيد مستوى اللاحمة القومية لدى الآشوريين .

إن تحول المسيحية في بداية القرن الرابع الى دين الدولة الرسمي

في بيزنطة التي ضمت الأراضي التي يسكنها الآشوريون لم يخفف الاضطهاد القومي والاجتماعي والاقتصادي عنهم • لذلك انصب عدم الرضى لديهم عن وضعهم في بوتقة النضال ضد الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية على شكل ردة نسطورية في القرن الخامس ووحيدانية (☆) (اليعاقبة) في القرن السادس ومارونية في القرن السابع الميلادي • وفي القرن السادس عشر تكونت بين الآشوريين الكنيسة الكلدانية التابعة للكنيسة البابوية الرومية • وفيما بعد الكنيسة الكاثوليكية في البلدان التي يسكنها الآشوريون في الشرق الأوسط •

لقد كانت الدعاية للديانة المسيحية تقدم باللهجة الغربية للغة الآشورية والواسعة الانتشار في سورية، وكان كل من يعتنق المسيحية آنذاك يدعى بالسريان أي المسيحيين السوريين ولا زال حتى الآن آشوريو العراق يطلقون مصطلح (سورايا) على كل مسيحي بشكل عام •

وتعرف الروس لأول مرة على الآشوريين من خلال الأرمن ، وراحوا يدعونهم « بالأتوريين » ، إلا أن مصطلح « الآشوريين » يستعمل رسمياً في إحصائيات السكان في الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩٦٩م •

ويحاول الساسة البرجوازيون البرهان على أن الآشوريين المعاصرين لا يملكون لا تاريخاً ولا فلسفة ولا أدباً ولا لغة خاصة بهم ، كما أنه لا يجمعهم جامع مع الآشوريين القدماء ، وأنهم فقط نسبوا لأنفسهم اسم ذلك الشعب العريق • إن هدف مثل هذه

(*) الوحدانية (مونوفيزيائية) مذهب في الدين المسيحي يقر بالطبيعة الالهية الواحدة المسيح وليس بطبعيتين : الهية - وبشرية - المترجم

الافتراءات يتلخص في محاولة تجريد الآشوريين من السلاح في نضالهم ضد التوسع الامبريالي وإفقادهم الثقة بقوتهم وإركانهم أمام الثقافة البرجوازية . إن الوقائع التاريخية تدحض بقوة كل هذه التخريصات المعادية .

ويعتبر مؤسس الأدب والفلسفة الآشورية في القرون الوسطى هو تاتيان الذي وضع المؤلف المشهور « دياتيسارون » . وهو مجموعة مقالات عن مواضيع الانجيل وكذلك صاحب كتاب « خطاب للعللين » . . . إن التأثير الثقافي للآشوريين - وفق استنتاجات العالم السوفيتي س . أفيرنيتسف - تتلمس آثاره من إيرلندا وحتى الصين .

إن الآشوريين المعاصرين وريثة الثقافة العريقة يذكرون جيداً نضال أسلافهم في سبيل الحرية والتقدم . فلقد نهض الآشوريون مرات عديدة للنضال في سبيل الحرية والاستقلال ، وتشهد على ذلك الانتفاضات المتعددة التي قام بها الآشوريون في الزمن الحديث والمعاصر بما في ذلك الانتفاضة المعادية للعثمانيين سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ والتي ذهب ضحيتها ما يقارب ٥٠٠ ألف إنسان آشوري . لقد كان لأكتوبر العظيم تأثيراً كبيراً على الحركة التحررية الآشورية التي استوحت منه فكرة النضال في سبيل حق الأمم في تقرير مصيرها . كما كان لاتتصار الاتحاد السوفياتي في الحرب الوطنية العظمى تأثيراً واضحاً على حركات التحرر الوطني لشعوب العالم بما في ذلك الشعب الآشوري . إذ شارك الآشوريون عام ١٩٤٥ م بنشاط في مساندة حركة الأذربيجانيين والأكراد القاطنين في إيران للحصول على الحكم الذاتي . وقد جرت مشاركة الآشوريين الإيرانيين في ذلك تحت شعارات المطالبة بحق التدريس في المدارس باللغة الآشورية

وإصدار الصحف والمجلات والكتب باللغة القومية .

إن التاريخ المرير للأشوريين يبين أكثر من مرة أن غدر الوحوش
الامبرياليين بهم جعلهم في موضع الأناص المنبوذين في نظام الرأسمال
العالمي .

إن مسخ شعب بأكمله ذو تاريخ وثقافة عريقين وتحويله إلى
شعب « زائد » في الشرقين الأدنى والأوسط سيقى للابد صفحة
سوداء في تاريخ الأوساط الشوفينية والاستعمار والاستعمار الجديد .
وأحد الأمثلة على حل المسألة القومية في الاتحاد السوفيتي
هو وضع المواطنين السوفيت - الاشوريين . فالاشوريون في العائلة
الواحدة للأمم وشعوب الاتحاد السوفيتي هم مواطنون متساوون
مع الجميع ولهم كل إمكانيات الحفاظ على ثقافتهم وعاداتهم . وفي
السنوات القاسية للحرب الوطنية العظمى حارب الاشوريون جنبا
إلى جنب مع جميع شعوب الاتحاد الأخرى ضد الفاشية الألمانية .
فقد شارك في هذه الحرب - وفق الاحصائيات الرسمية - أكثر من
ألفي شخص من أصل ٢٠ ألف إنسان آشوري قطن الاتحاد السوفيتي
حينذاك وقد نال إثنان منهم لقب بطل الاتحاد السوفيتي وثالث
الحائز الأول على جميع أوسمة المجد .

وبفضل السياسة الوطنية اللينينية يعيش الاشوريون حياة
في العائلة المتألفة للشعوب السوفيتية من صغيرها لكبيرها .

عوضاً عن الخاتمة
الارث الحضاري لبابل وأشور
وأنا أتذكر عشتار ، حين لم يخطفها البابليون
منا بعد .. (جاك لندن) •

استقت الشعوب المسيحية خلال ألفي سنة تقريباً تصوراتها
عن بابل وأشور والبابليين والآشوريين من التوراة فقط •
وقد كتب العالم الأسيريولوجي الروسي ن • نيكولسكي في
كتابه (بابل العريقة) ما يلي : « إن المفاهيم التي نشأت لدى الأوروبيين
عن بابل والملوك البابليين •

وعن آشور والملوك الآشوريين استندت كلياً الى أرضية
الأساطير التوراتية • قال الآشوريون صوروا قساة دمويون يشربون
الدماء البشرية ولم يبق إلا قليل وكادوا أن ينعثوا بأكلة اللحوم البشرية • أما
البابليون والملوك البابليون فقد شبهوا بالأناس الفاجرين المخشيين
المتعادين على الترف وإشباع الغرائز والرغبات • ولم تكن هناك حتى
فكرة الإشارة الى أن هؤلاء القساة المسلطين على بني إسرائيل يمكن
أن يكونوا شعوباً متمدنة ذات ثقافة عالية وحتى أساتذة للاغريق
والرومان » •

بينما ، وعلى عكس هذه الافتراءات تلقى الاغريق القدماء ومن
بعدهم الرومان تأثيرات الحضارة الآشورية البابلية في مجالات عدة
منها العلوم والتكنيك والتاريخ والمثولوجية والأدب والعمل العسكري
والطب والزراعة والرياضيات وغيرها •

يكتب ن • نيولسكي « لقد دخلت عناصر الثقافة الآشورية -
البابلية في لحمنا ودمنا وتغيرت وتفاعلت لدرجة غير معقولة
حيث لم يرد إلا الشك في منشأها زمنياً طويلاً • إلا أنها عديدة وتذكرنا

بنفسها يوماً • فنحن اعتدنا مثلاً على الأيام السبعة
للأسبوع لدرجة أنه لا تتصور أن نسأل أنفسنا من أين جاء
هذا التعداد لأيام الأسبوع وكذلك ننظر للثاني عشر شهراً في السنة
أو إلى ٦٠ دقيقة في الساعة و ٦٠ ثانية في الدقيقة •

بينما إن هذه التقسيمات الأساسية الداخلة في لحمنا ودمنا
ليست بمجملها منجزات أصيلة لحضارتنا بل إنها تأخذ منابعها من قديم
الأزل من بلاد بابل العريقة • إن الإنسان الأفرسي والانكليزي
والألماني يلفظ تسمياته لأيام الأسبوع بشكل آلي دون أن يظن أبداً
أن هذه التسميات هي ترجمة مبسطة لتسميات بابلية قديمة • يتعلم
مئات الآلاف من الطلاب والطالبات في المدارس تقسيم الدائرة إلى
٣٦٠ درجة وقيسون الأقواس والزوايا بالدرجات ولا يرد ببال أحد
منهم السؤال لماذا لم تقسم الدائرة إلى مئة أو ألف درجة وفق
النظام العشري ، كما لا يفكر أحد من علماء الرياضيات بضرورة إجراء
مثل هذه الإصلاحات ، إذ أن مجمل علم الهندسة المبني على هذا
التقسيم قد دخل في لحم ودم علماء الرياضيات والتخلي عنه صعب
مثلاً هو صعب التخلي عن تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة والساعة إلى
٦٠ دقيقة • إنه يحمل مثل هذه العراقة المشرفة ويرجع في أصوله إلى
هتايك البلاد في بابل • نحن حتى هذا الوقت نتكلم عن الإنسان
المحظوظ بأنه ولد تحت « نجم سعيد » ، ويوجد بيننا حتى الآن
عدد غير قليل من الناس الذين يؤمنون بحق بأنه يمكن قراءة المصير
مسبقاً بواسطة التنجيم ، ولكن قبل ١٠٠ - ٢٠٠ سنة كان العلماء
يعتبرون التنجيم فرعاً من فروع علم الفلك •

إن الموطن التاريخي لعلم الفلك هي بابل أيضاً وأن الفلكيين
البابليين هم الذين وضعوا القواعد الأساسية لعلم الفلك • هناك

الاسمة نستعملها لكل دقيقة وهي مأخوذة من هناك أيضاً وهي كلمة « ثلاث » (*) - إنها تسمية بابلية لوحدة وزن وهي أعلى وحدة نقدية بابلية ، كذلك تأتي من بابل كلمة « خير وقيم » (***) التي تستعمل كثيراً في التوراة وتراويل الكنيسة وعندما نقول - مزاحاً - أن العدد سبعة هو رقم مقدس فإننا نكرر دون وعي أو إدراك أبداً ذلك الاعتقاد الراسخ بذلك في بابل آنذاك . ويمكن العثور على عدد كبير من الكلمات ذات الصفة البابلية في التوراة وبعض الطقوس الدينية . ومعروفة لنا جميعاً منذ نعومة أظفارنا روايات عن خلق الكون - شجرة الحياة وعن الطوفان وبلبله بابل ، كل هذه الروايات ظهرت أولاً في بابل وأن مؤلف الكتب التوراتية غير فيها وفق مشيئته وجعلها تتناسب مع الايمان بالإله الواحد . ويسكننا العشور في أماكن كثيرة من التوراة وحتى في العهد الجديد على كلمات كبيرة وصغيرة ذات صبغة بابلية .

ولتوسيع المعرفة عن الإرث الحضاري لبلاد آشور وبابل نأخذ مثلاً واحداً عن أحد المعارض الذي افتتح مؤخراً في موسكو سنة ١٩٨٤ في قاعة « بيت العلماء » والمخصص لفن التطريز . فقد أكد الباحثون أن هذا الفن هو أحد أقدم الفنون على الأرض وأنه عثر على اللوحات الحجرية الآشورية على عناصر الزينة في الألبسة معمولة وفق تقنية فن التطريز . بالإضافة لذلك إن الاقحوان المنتشر في العالم أجمع انطلق في رحلته هذه من الحدائق المعلقة في بابل ، كذلك انطلقت

(*) بالروسية تعني المهارات - المترجم
 (***) وهي الحدي المراتب العليا للملائكة في ملكوت السموات
 وتصورهم وهم بست اجنحة وعدد كثير من العيون - المترجم -

وردة الجوري من بابل عبر الاغريق والرومان الى أوروبا .
وهناك اكتشاف آخر في تاريخ الموسيقى ، حيث تكلم عنه
أساتذة جامعة كاليفورنيا سنة ١٩٧٥ م ، إذ أنهم بعثوا الحياة في
رومانس آشوري مكتوب على لوح حجري بعمر يقرب من ٣٤٠٠
سنة ، كما أنهم أعادوا صنع القيثار الآشورية - البابلية وتم أداء هذا
الرومانس عليها . وكان يعتبر سابقاً بأن الموسيقيين القدامى استنبطوا
نوتة واحدة فقط في المرة الواحدة ، أما الآن فقد تم البرهان على أن
الموسيقيين الآشوريين - البابليين استنبطوا نوتتين في كل مرة ،
واستخدموا المدرج الموسيقي السباعي الغربي وليس الشرقي الخماسي ،
إذ أن علماء الموسيقى كانوا يعتقدون قبل هذا الاكتشاف أن المدرج
السباعي وضعه الاغريق سنة ٤٠٠ ق م .

وهناك نص كامل لأغنية لم يتسكن من إحيائها ، إلا أنه يلاحظ
فيها تكرار كلمة « الحب » و « القلب » مما قدم التبرير لاعتبارها
رومانسياً عاطفياً .

والاختراع الآخر لدى الآشوريين والبابليين والذي لا زال
يستعمل على نطاق واسع في العالم حتى يومنا الحاضر هو الساعات
الشمسية والمائية والتي شاهدها حتى هيرودوت . فقد عرف العلماء
عن الساعة الشمسية المخترعة في بلاد الرافدين من نص مكتوب على
لوح غضاري يرجع لعام ٧٠٠ ق م فقد حوى هذا اللوح إرشادات
عن استخدام الساعة الشمسية (غنومونا) . وقد أثبت العالم البلجيكي
الأسيربولوج ف . كيومون بأن الاغريق اقتبسوا الغنومونا أثناء
إقامة العلاقات التجارية الشرق الآسيوية والمدن اليونانية .

واستعمل الآشوريون والبابليون الساعات الشمسية النصف
دائرية لأغراض الرصد الفلكي . فقد صنعت من الأسلاك المعدنية

كرة بحجم يسمح لها التدرج بسهولة حول ميناء الساعة الذي كان له شكل الفنجان • وكانت الكرة محزومة بإطار كبير يعكس دائرة الأبراج وقد رسمت علامات الأبراج على هذا الاطار مع مراعاة المسافات الزاوية لها • ولمعرفة في أي مكان من فلك الأبراج تقع الشمس ، كان من السهل تحديد ذلك على إطار الميناء •

أما الشكل الآخر من الساعات التي استخدمها الآشوريون ، والبابليون في الأزمنة الغابرة كانت الساعات المائية • فقد تألفت هذه الساعات من أنابيب اسطوانية الشكل • وقد تم فرز أناس خصيصاً لخدمة هذه الساعات • فقد كانوا يملؤون الأنابيب بالماء عند بزوغ الشمس وعندما كانت تفرغ من الماء كان الشخص المراقب ينبه عن ذلك • وكان يجري ذلك من ٥ - ٦ مرات يومياً •

إن الأسبوع السباعي الأيام هو من إرث الآشوريين او البابليين ويرجع الى آلهة الفلك السبعة ، الذين سجد لهم أهل بابل وأشور القدماء وهم : شمس (الشمس) ، سين (القمر) ، مردوخ (المشتري) نيرغال (المريخ) عشتار (الزهرة) • نابو (عطارذ) نينورتا (زحل) • وقد حفظت هذه الأسماء في تسميات الأيام باللغات الألمانية والفرنسية والانكليزية ولغات أخرى •

لقد تركت الاعتقادات الدينية الآشورية - البابلية آثاراً كبيرة على مضامين كتب العهد القديم والعهد الحديث • ففي مثال الشجرة التوراتية للخير والشر تعرف بيسر على الأسطورة الآشورية - البابلية عن «الخطيئة الأصلية» ، والتي يحكى فيها بأن البشر عاشوا في بستان كان يحوي على شجرتين (شجرة اللباس وشجرة - نبات) وشجرة - نبات كانت توهب الحياة • إلا أن البشر أكلوا من ثمار شجرة اللباس أولاً وأرادوا أن يأكلوا من ثمار شجرة - نبات كان

ذلك تماماً يمكن أن يجعلهم خالدين أزليين كما هي الآلهة، إلا أن الآلهة لم تشأ بأن يصبح البشر على صورتهم ومثالهم لذلك أبعادوا البشر من هذا البستان .

كذلك نقلت الأسطورة البابلو - آشورية عن الإله تموز - الذي يموت وينبعث - الى الديانة المسيحية . « وفقاً للاسطورة عن الإله بيل - مردوخ - يروي الأكاديمي ف . ستروفه - يعتقل هذا الإله عند منخل الملكة التحت أرضية ويعذب ويحقق معه ثم أخذونه الى أعماق الجبال . وفي الوقت نفسه كان الى جانبه مجرم ما . بسبب غياب بيل - مردوخ حزناً عميقاً لدى الشعب فينهض للمعركة وتهبط زوجة الإله لتلحق بهم الى الملكة التحت أرضية وتنتقذه وتخرجه للحرية » .

« ... وبهذا الشكل يوجد في هذه الأسطورة البابلية ، التي حفظت بشكل سيء للأسف وأصبحت معروفة لنا فقط في عام ١٩١٧م أحد مصادر تكوين الانجيل دون شك . إن مثل هذه العلاقة بين حياة السيد المسيح وشخصية الإله الذي يموت وينبعث قد شهد بها أحد آباء الكنيسة الكاثوليكية وهو الأب يرونيم الذي عاش في القرن الرابع الميلادي » .

كذلك تركت ملحمة غلغاميش أثراً عميقاً في الأدب العالمي . ويمكن تقصي ذلك - على سبيل المثال - في قصيدة هوميروس « الأوديسا » حيث يتفق كثيراً من مقاطعها مع الملحمة .
عن الذي شاهد كل شيء ، حتى آخر الدنيا
لقد قرأ جملة كل ما هو مكتوب
عق الحنكة لدى قارئ الكتب
راه مخفياً وعرفه مستوراً

وجاب الأخبار عن أيام ما قبل الطوفان

لقد ذهب بعيداً - تعب هو ثم عاد

عندما نبدأ بدراسة الهندسة لا بد لنا أن نتعلم نظرية فيثاغورس

إنه اقتبسها أثناء زيارته لبابل • أما الرياضيون الآشوريون -

البابليون فقد عرفوها قبل ذلك الوقت بألف سنة، كما عرفوا استخراج

الجذر التربيعي والتكعيبي ووضعوا مبادئ الجبر • ويكتب الأكاديمي

ستروفه : « إن مصور النجوم الذي يمكن رسمه دون استخدام

التلسكوب وضع في بابل وعبر الحيشين وصل الى غربي البحر الأبيض

المتوسط • لقد وصل الفلك في بابل الى درجة عالية جداً بحيث كان

له تأثير واضح على المعارف الفلكية في بلاد الاغريق فيما بعد » •

وفي بلاد ما بين النهرين تم وضع أول تقويم قمري لا زال يستخدم

حتى الآن ، لقد تمكن علماء هذه البلاد من إيجاد العلاقة بين الشمس

وإشارات الأبراج الفلكية في يوم الاعتدال الربيعي - كان بإمكانهم

التنبؤ بالكسوف والخسوف •

لقد جمع العلماء الآشوريون والبابليون النباتات واصطفوها ،

وصنفوها ووضعوا قوائمًا بالحيوانات المحلية والمجلوبة ، وكذلك

بالمعادن كما أجروا تجارب في الزراعة والري • لقد حول سكان بلاد

الرافدين أوطانهم الى مركز ضخم في الزراعة وقد اشتهروا بزراعة العنب

وصناعة الخمر منه •

كما أسست في بابل أول حديقة للحيوان • فقد اكتب عن ذلك

الباحث الطبيعي الشهير ج. داريل : « لقد كان عند الآشوريين العديد

من الحدائق بما في ذلك لدى أولئك المشاهير مثل سمير أميدا (فقد

أحبت الفهود كثيراً) وابنها نينوس (وكان يفضل الأسود) والملك

أشور بنبعل المختص بالأسود والجمال » •

ولابد في الختام من الإشارة الى أن النحت في آشور وبابل كان يتميز بخصوصية في الشكل والموضوع وكان له أثراً واضحاً على النحت الأوروبي بالاجمال ومن خلال بيزنطة على الروس أيضاً • ويكتب الأكاديمي شوسيف بهذا الصدد : « أخذت المدرسة الفنية في بيزنطة بدايتها من المدرسة الاغريقية القديمة وتلك ارتشفت لنفسها منجزات الفن والثقافة الشرقيتين • إن الفن الشرقي فاقع وبهي، ذلك البهاء الذي يأخذ بدايته من الفن في بابل وبلاد فارس ونقل عبر بيزنطة الى روسيا » •

لقد ألهمت الاكتشافات العظيمة للحضارات القديمة في بلاد ما بين النهرين علماء الآثار والجيولوجيين والمؤرخين والعاملين بفك الرموز وفي المتاحف • لقد دخلت شخصيات وأسماء الأبطال الأسطوريين والواقعيين وتسميات بابل وأشور ونيوى آداب وثقافات الغرب والشرق على السواء ، كما كتب حول المواضيع التاريخية للحضارات القديمة القصائد والدراما والروايات •

